الحق أقول لكم

أهازيج تموز

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلابدّ أن يستجيب القدر
ولا بدّ لليل أن ينجلى ولا بدّ للقيد أن ينكسر

أبو القاسم الشابى

* * *

يا روح العقل المطلق السراح ، يا بنت الأزل ، تضيء شمسك أكثر ما تضيء فى غيابات السجون .

أيتها الحرية ! أنت القلب الذى لا يعرف حباً سوى حبك ؛ فكأنك بين شغاف الفؤاد .

وعند ما تعقل الأصفاد أبناءك ، وتغيبهم فى ظلام الأقبية الرطبة ، فإن وطنهم يجنى النصر ثماراً لعذاباتهم ، وتذيع أخبارك ، على أجنحة الرياح ، فى كل مكان .

شيون ! إن سجنك واد مقدس ، وبلاطك مثوى القرابين ؛ لأن أقدام أبطال الحرية قد خلفت آثارها فيه ، وبراه الزمن والرطوبة حتى استحال طينة رخوة .

لا محا الزمان تلك الآثار ، ولتلبث على الأيام شكاة إلى الحى القيوم من الظلم والجور ! .

اللورد بيرون

* * *

إن ثورة « ٢٣ يولية » ، التى نحتفل اليوم بعيدها السادس ، لم تكن ثورة محلية فى مصر وحسب ، ولا ثورة إقليمية فى الوطن العربى ، ولا ثورة مجموعة من البشر دون سائر البشر ؛ ولم تكن ثورة طارئة ، مهدت لها ظروف طارئة تنتهى بانتهائها ؛ وإنما كانت تعبيراً صريحاً مسموع الصدى فى كل الأرجاء ، يعبر عن التطور الجديد فى الشعور الإنسانى العام الذى يؤمن بالحرية ، وبالكرامة الإنسانية ، كما يؤمن بالسلام ، وبالصداقة والمودة بين الشعوب .

كمال الدين حسين

* * *

للثورات تقاليدها ، ولكن أعاصير ثورتك أصبحت ثورة على الثورات .

كانت الثورات — كما تعلمنا — تبدأ قوية ثم تضعف ، أما ثورتك ، ثورتنا ، فقد بدأت تغلى كالمرجل ، ثم أصبحت بعد ست سنوات تهدر كالرعد ! .

كان أبطال الثورات يقطفون ثمار ثوراتهم خلوداً إلى الراحة والاستجمام ، أما أنت فقد كان ثمارك من ثورتك المزيد المزيد من الثورات .

نجاح الثورة يغري بالغرور ، أما نجاحك فقد أغراك بالبساطة .

نجاح العهد الثورى يدفع إلى الركود ، أما نجاح عهدك ، فقد دفعك إلى العمل الكبير ! .

ناصر الدين النشاشيبى

* * *

دائرة المعارف العربية

أعجب شيء فى طبائعنا أننا نناقش المسائل من كل نواحيها . . . حتى نقتلها بحثاً . ونقتلها هى الكلمة الصائبة هنا ؛ فمنذ تحدث الصحفيون يطالبون بوضع «إنسكلوبيديا» عربية ، وردّ عليهم الأستاذ الدكتور طه حسين ، وفرسان القلم يجولون ويصولون ، وكلٌّ طائره إلى عنقه وقد خطّ عليه بأحرف من . . . حبر المطابع : هل من مُناجز ؟ هل من مُنازل ؟ .

وكان أشد ما أخشاه حتى أواخر يونية الماضى أن تنجلى المعركة عن ضحية واحدة . . . هى دائرة المعارف العربية .

ولكن الله سلم ، وأنشأت الجمهورية العربية المتحدة وزارةً للثقافة منذ الأول من يولية سنة ١٩٥٨ . ومهما كثر القيل والقال حول هذه الوزارة الجديدة ، وما ينتظر لها أن تنجز أو لا تنجز ، فإن رجاءنا جميعاً ألا يتوه مشروع دائرة المعارف العربية بين رقصات « يا ليل يا عين » ، وأغانى بيرق عمر مكرم ، وألا يُشْغَزْبه الإنتاج السينمائى الفاخر ، أو يُزَلْزِلَه المسرح الشعبى .

ولقد أذكر يوماً اجتمعنا فيه بمكتب وكيل وزارة كبيرة ، فى أول جلسة طرقنا موضوع دائرة المعارف العربية . كان هذا عام أربعة وخمسين على ما أظن ، ولم يكن بيننا من يدرك خطر الأمر مثل ذلك الجراح العلامة ، الدكتور م . . . تركنا نناقش الأهداف والوسائل ، وهو فى صمته وإطراقته المعهودة ، يدلى بالرأى الرصين بين الآونة والآونة ، فتحس بأن هنا رجلاً يعرف أن الكلام من فضة لا طائل تحته ، أما إذا كان من معدن أرفع من الذهب ، فهو خير من السكوت .

أدلى إلينا بثلاث نصائح :

ــ ألا نفكر بمشروع دائرة المعارف الصغرى قبل أن نعدّ للإنسكلوبيديا الكبرى عدّتها ؛ فالجهد واحد فى التحضير ؛ لأن الجزالة فى المادة المكتوبة باختصار لا تجىء إلا أن يكون كاتبها قد أحاط بالموضوع إحاطة العالم المتبحر ؛ فهو الأقدر على التركيز مع الوضوح .

ــ ما أشبهكم بصديق ظريف لنا لم ير الأرغن ولم يسمع له ، ولكنه فكر ذات يوم فى اختراع آلة كالبيانو لاتقرع أصابعها أوتاراً ، بل توصّل الهواء من منفاخ كبير إلى مجموعة مزامير ! . والمؤكد أن اختراع الصديق كان يبدأ من حيث بدأ الأرغن فى أعالى القرون الوسطى ، وربما قبل ذلك . يخيل إلىّ أنكم تتحدثون كهذا الصديق فى وسائل وضع دوائر المعارف . لماذا لا تنتفعون بخبرة من سبقونا بنحو ثلاثة قرون إلى تأليف دوائر المعارف بالمعنى الحديث ؟ من رأيى أن نوفد من يدرس وسائل إعداد دائرة المعارف البريطانية ، أو ما فى مستواها ، ونوفده إلى دارها ؛ أو أن نستعين بخبرة واحد أو أكثر من العاملين فيها ؛ فنوفر جهد استنباط الأساليب ، وانتهاج السبل .

ــ يجب أن تقدّروا من الآن أن المشروع فى حاجة إلى أن يُفرد له ديوان كامل ينهض بأعبائه ، أىْ إدارة متخصصة تجرى جميع الاتصالات ، وتعدّ الجزازات ، وتضع قوائم العلماء والباحثين الذين يكلَّفون كتابةَ المادة أو فرع المادة ، فى حدود مرسومة ، أو عدد معلوم من الكلمات .

ومعنى هذا أن يعمل فى هذا الديوان عدد هامّ ، قد يزيد على العشرين ، وأن تقدروا فى حسابكم أن خمسمائة متخصص فى الأقل ، هم الذين يعهد إليهم فى كتابة المواد أو أفرع المواد ، أى أنكم بحاجة إلى اعتماد لا يستهان به ، وجهد جبّار ، وإلى أن تثابروا وتصابروا نحو خمس أو عشر سنوات حتى يتم وضع دائرة معارف عربية ، جديرة بهذا الاسم .

ولا ترددوا فى استخدام المتخصصين من كل الأمم حتى فى بعض الدراسات العربية .

وافترقنا فى ذلك اليوم المجيد، يوم مولد الإنسكلوبيديا العربية الأولى ، . . . لنعرف بعد ذلك أن الوزارة الكبرى شمّرت عن ساعد الجدّ ، فى حزم وعزم ، وأفردت لتنفيذ المشروع . . . موظفاً واحداً ! .

* * *

التراث الموسيقى بالنوتة

أمامى كراسة رمادية اللون ، صارمة المظهر ، أصدرتها سيدة ؛ ومجلد ضخم لونه وردى فاتح أصدرته « اللجنة الموسيقية العليا » ، وتلقيت الهديتين فى شهر ، وربما فى أسبوع واحد .

ويجب أن يعرف بأمر هذين الكتابين كلُّ معنىٍّ بتراثنا الموسيقى فى مائة السنة الأخيرة ، أو ما وراءها .

« اللجنة الموسيقية العليا » دوّنت بالنوتة « الأدوار والموشحات » ، كما سجلت كلماتها .

والسيدة بهيجة صدقى رشيد دوّنت بالنوتة « الأغانى المصرية الشعبية » ، كما سجلت كلماتها ، من أمثال :

« سالمة يا سلامة » ، « يا ليلة بيضا » ، « وحوى يا وحوى » ، « يا بتاع النعناع » ، « الحنّة يالحنة ، يا قطر الندى» ، « يا بنات اسكندرية ، مشيكم على البحر غيّة » ، « عطشان يا صبايا » ، « اتمخطرى حلوة يا زينة يا وردة من جوّه جنينة » ، «يا طير يا غريب يا مسكين دانا فى الغربة بآلى سنين » ، « يا نخلتين فى العلالى يا بلحهم دوا — يا نخلتين على نخلتين ، والأربعة طرحوا سوا » ، «آه يا عزيز عينى وانا بدّى أروح بلدى — بلدى يا بلدى وانا بدى أشوف ولدى » ، « قمره يا قموره يا محنى ديل العصفورة ؛» إلخ .

كتبت السيدة بهيجة صدقى رشيد ستا وخمسين «غنوة» ريفية وبلدية ، هى تراث شعبىٌّ أصيل ، عاش آباؤنا وأجدادنا ، بل عشت أنا فى طفولتى ، على ألحانه ، جمعت النصوص ، ودوّنت الألحان تدويناً صادقاً ، وإن كان يحتمل بعض التصويب ، وكتبت الكلمات بالأحرف العربية ، ثم بالأحرف اللاتينية ، وأضافت ترجمة إنجليزية ؛ وبذلك أصبحت هذه المدوّنة ذات قيمة لكل باحثى الفولكلور المصرى فى العالم .

ذاك جهد سيدة واحدة ، تعمل وحدها فى هدوء بيتها الكبير الذى تديره إدارة مثالية ، حققت لها فيما أذكر لقب الأم المثالية . أرجو لعملها النجاح الذى يستحق ، وأن يعنى « مركز الفنون الشعبية » فى وزارة الثقافة بهذه الكراسة عنايته بكنز ثمين جداً من موسيقى الشعب المصرى .

أما المجلد الوردى فخطورة الأمر فيه أنه عمل لجنة « عليا » للموسيقى قدّم له العالم الموسيقى الدكتور محمود أحمد الحفنى بمقدمة تاريخية جامعة ، تمتاز بالطول وحسن الديباجة وإن لم تخل من عثرات وهنات تغتفر لأى إنسان إلا للدكتور الحفنى : ومثال ذلك قوله بأن الموسيقى المصرية تدهورت فى العصر المملوكى ، وبأن عهد سلاطين المماليك — وهو من أمجد عهود التاريخ المصرى — كان عهد انحلال . وهذا خلط عجيب بين عصور الاستقلال ورفعة الشأن إبان الدولة المملوكية ، وبين العصر العثمانى المتدهور حينما شارك شيخُ البلد والمماليك — الباشا التركى فى النهب والقتل والسلب ، إتماماً لما بدأ به سليم العثمانى . ولكنى أحب أن يطلع الناس على الفصل الخاص بالموسيقى المصرية فى القرن التاسع عشر ليعرفوا بيئتهم تتمثل فى موسيقاهم الشعبية .

وخطورة الأمر فى مجلد « اللجنة الموسيقية العليا » أنه جمع خمسين دوراً من أدوار الشيخ المسلوب ، والساعاتى ، وعبده الحامولى ، ومحمد عثمان ، والحضراوى ، والشلشمونى

ـ أو الشلشلمونى ، وإبراهيم القبانى ، وداود حسنى .

فالموسيقى هنا أعمق غوراً من الموسيقى الشعبية التى دوّنتها السيدة بهيجة صدقى رشيد ؛ فهى أدوار وموشحات ألفها موسيقيون أفذاذ ، حملوا راية النهضة الموسيقية من أواخر القرن الماضى حتى أوائل هذا القرن . وأملى أن يعرف الجيل الحاضر هذه الأدوار ، من أمثال « جمالك يا فريد عصرك » و « كادنى الهوى » و «أنت فريد فى الحسن» . و « الله يصون دولة حسنك » و « رايح فين يا مسلّينى » و « يا طالع السعد افرح لى » و « يا قمر دارى العيون » إلخ .

إنى لواثق من أمر واحد فى شأن هذه المدّونة الكبيرة ، وهو أن المشرف على تدوينها هو أستاذنا الكبير إبراهيم شفيق آخر السلالة العالمة بهذه الألحان ، وهو قاموسها وابن بَجدَتها .

ولا شك أن «اللجنة الموسيقية العليا» قد أدّت للثقافة الموسيقية خدمةً من أجل الخدمات بمدّونتها الحافلة .

ولكنى لا أتمالك من الأسف ألا يجىء التدوين بالنوتة واضح السّمات . ولا يمكن أن يعزى ذلك إلى خطأ فى الحفظ ، وإنما الخطأ جاء فى كتابة الموسيقى . ومن العجب العجاب ألا يعرف موسيقيونا طريقهم نحو تدوين « الغناء » كما يفعل الأوروبيون الذين أخذوا عنهم ، وذلك بتقطيع النوتة بحسب مقاطع الألفاظ . وهذا خطأ مادى هيّن ، إنما الذى لا أفهمه ألا يجىء التدوين صادقاً ؛ فقد طالعت كل الأدوار التى ما زالت ترن فى أذنى منذ صباى ، وأذكر على الأقل ألحانها الأساسية ، فوجدت النوتة لا تؤدى اللحن كما أذكره . ولأكنْ أكثر صراحة إذ أقول بأن هذه النوتة ، مع الأسف ، لايمكن أن تغنينا عن الحفظ « بالسماع » ، وأن من يكتفى بهذه النوتة ليغنى تلك الأدوار المشهورة ، لن يصل منها إلى طائل جدّى .

إننى مقدر تماماً صعوبة التدوين فى هذه الأدوار ، ويمكن القول بأن المتقدمين ممن عرفوا كتابة الموسيقى ، من أمثال ذاكر بك ، قد استطاعوا ، وهم يحوّلون موسيقى الأدوار الغنائية إلى ألحان تعزفها الموسيقات العسكرية ، أن يقدموا صورةً أقرب إلى الأصل من مدّونة اللجنة الموسيقية العليا ، وكان المفروض فى هذه الأخيرة أن تكون أكثر تطابقاً للأصل ، ما دامت تعنى بتدوين الغناء كما هو ، لا بتحويله إلى موسيقى الآلات النحاسية والخشبية .

ولا شك أن تدوين لحن شعبى صغير مثل « تعاليلى يا بطة » ـ كما جاء فى مدّونة السيدة بهيجة صدقى رشيد ـ شىء أبسط جدّاً من تدوين دور مثل « دع العذول » : فالأول لا يتعدى سطرين من النوتة ، فى مقابل أربعة وعشرين سطراً للآخر ، على ما فى الأدوار من تحولات نغمية ، وتصرفات إيقاعية غير قليلة .

وللإيقاع الشرقى وحده حكاية أخرى ؛ فإن كتّاب الموسيقى الشرقية عجزوا تماماً عن دقة تدوين الإيقاعات الغنية التى امتازت بها موسيقانا . ويخيل إلىّ أن العلة فى كل ذلك أننا حيال فريقين من الموسيقيين : فريق يحفظ هذه الموسيقى حفظاً جيدا ، ولا يكتب الموسيقى ولايقرؤها ؛ وفريق عرف شيئاً من مبادىء الكتابة الموسيقية ، ولا يعرف الموسيقى الشرقية معرفة الفريق الأول لها .

«إن تدوين اللجنة الموسيقية العليا لتراثنا من الأدوار والتواشيح » يذكّرنى بمدّونة بشارف تركية كانت بين يدى أيام الشباب ، وكنت أحفظ بعض هذه البشارف عن طريق سماعها بمصر ، أوعن طريق قراءتها فى مدّونات المولوى أحمد أفندى دده ؛ فكان من العبث أن أطالع فى المدونة التركية بشرف « حجاز كار همايونى » مثلا ، أو بشرف « سوز دولار سلطان سليم » أو « راست عاصم بك » ؛ لأن النوتة كانت نوعاً من الكروكى البسيط ، والمشوّه للحن ، على حين أن نوتة أحمد أفندى دده كانت تنطق بالبشرف نطقاً كاملاً .

ولقد حاولت عبثاً أن أطالع فى مدوّنة « اللجنة الموسيقية العليا » بعض الأدوار الكلاسيكية من أمثال « جمالك يا فريد عصرك » أو « يا قمر دارى العيون » — وأظننى ما زلت أحفظ هذا الدور الأخير من أوله لآخره — ولم أكن أيئس من المحاولات الأولى ، ولكنى انتهيت فى كل محاولة إلى أن أعزف اللحن الأساسى من الذاكرة ، فيخرج شيئاً آخر مخالفاً لما جاء فى مجلد اللجنة .

ثم ما هذه الطريقة فى تجليد المدونة ؟ إنك محتاج إلى شخصين يمسك كلٌّ منهما بنصف المدوّنة ، ويجريان عليها تمريناً فى شد الحبل ، حتى تظل مفتوحة ، أما أن تضعها على حامل موسيقى ، أو على حامل البيانو ، فلتعلمْ أن « تراثنا القومى — الجزء الأول — من الأدوار والموشحات » مُجَلَّد بطريقة تجعل استعماله للقراءة الموسيقية شيئاً عسيراً على الطالبين . وأرجو ألا يضحك القارئ إذ أخبره بمحاولتى استعمال مشابك الغسيل ، ولكن ضخامة المجلد كانت تفسخ المشبك ، ثم تقذفه فى الهواء قطعتين كأنهما « فرقع لوز » .

لقد حرصت على النقد ، كى تحرص اللجنة على تلافى هذه العيوب فى الأجزاء التالية ، ولا يمنعنى النقد القاسى من أن أقدم لجميع أعضاء اللجنة الموسيقية العليا ، ولرئيسها الأستاذ « أحمد شفيق أبو عوف » الشكر والحمد على ما قاموا به من عمل قومى بعيد المدى قصّر عن أدائه قوم كان من أول واجباتهم ، التى تلقوا فى سبيل أدائها الإعانات على ممر السنين ، أن يقوموا بتدوين التراث الموسيقى القومى .

* * *

حكاية الشباك

لا ، ليست قصة غرامية تجرى بين النوافذ والطنف ، إنما هى الحكاية التى شغلت ذهنى بعض الوقت : ما أثر « الشباك » فى عمليات التأليف ، والعرض لأىّ عمل فنى ؟

المنظر : قاعة الاجتماع بأستوديو السينما فى مدينة لينينجراد ، وقد جلست بين جمع الفنانين والإداريين الذين يؤلفون مجلس إدارة هذا الأستديو الكبير ، وعلى رأسهم رئيس المجلس .

الوقت : صباح يوم من أيام أبريل سنة ١٩٥٨ .

الموضوع : أثر « الشباك » على الإنتاج ، فى المجتمع الاشتراكى .

خلال أحاديثنا التى استغرقت قرابة ثلاث ساعات ، وتناولنا فيها شئون الإنتاج السينمائى كافة فى بلاد السوڤيت — أهدافه ، ووسائل تمويله ، وحساباته — عرضنا للسينما الأمريكية فقلت لهم : إن السينما الأمريكية تكاد تباعد بينى وبين فن السينما .

فأجابونى : ومع ذلك فثمة أفلام أمريكية نعجب بها إعجاباً : فيلم « مارتى » مثلا ، و « الحرب والسلام » .

قلت : هذه أفلام عظيمة دون ريب ، ولكن ما نسبتها إلى الإنتاج الأمريكى ؟ إنها من الضآلة بحيث لا تعدّ شيئاً مذكوراً . إن هوليود بحاجة إلى استرجاع مصروفاتها الباهظة ، وأرقامها الفلكية ، ثم إلى الربح المركب . معنى ذلك أن يكونوا عبيداً للشباك ، إنتاجهم يهدف إلى اجتذاب الملايين فى القارات الخمس ، وفوق البحار السبع ، من البولينيزيين سكان جزائر بحر الجنوب إلى البانطو والهوتنتوت ، إلى سكان الأشجار فى الأحراج الاستوائية . من حسن حظكم أنتم أن حكاية الشباك هذه لا تعنيكم .

— كيف تقول ذلك ؟ إن أمر الشباك يعنينا كما يعنى أصحاب النظام الرأسمالى .

— كأننا يا بدر . . .

— أتحسبنا نعيش فى عوالم مثالية ، وننتج أفلاماً

لمجرد الفن ؟ يجدر بك أن تعرف أننا لا نفهم فى هذه البلاد حكاية الفن للفن ، ثم إننا نعنى أن تنجح أفلامنا ، وتظفر بإعجاب أكبر عدد من الناس واهتمامهم . نحن — الجالسين معك — نناقش موضوع الفيلم من أول أدوار إنتاجه : نناقش الفكرة والقصة والسيناريو ، ثم نصدر قراراً بالبدء فى العمل ، ونناقش توزيع الأدوار ، وتقسيم العمل . وإذا عرض الفيلم عنينا بنتائجه ، فندرس أثره عند الجمهور ، ونراجع حساباته كلها ، ونتابع أقوال النقاد والنظارة . وكيف تتصور أن نبذل الجهد والمال ثم نصفق فخورين بأن الفيلم لم يتحمل عرض أسبوع أو أسبوعين ؟ .

أفهم من هذا أنكم تعنون قبل كل شيء بالنجاح لدى عامة الناس .

— فى مجتمعنا الاشتراكى لا نعرف خاصة وعامة .

— معذرة ! مجتمعكم مثل أيّ مجتمع ، فيه العامة أهل الثقافة المحدودة ، والخاصة الذين يرتفعون بتفكيرهم وإحساسهم إلى تذوّق الأعمال الفنية الكبرى . لا تحاولوا أن تقنعونى بأن جمهور شوستاكوفتش وكبالفسكى ومكسيم جوركى ، وتشايكوفسكى ، هو نفسه جمهور الأغانى العاطفية ، والمسرح الهزلى ، وأن من يتأثر بالمدرسة الفرنسية الحديثة للتصوير ، التى تملكون منها فى « الإرميتاج » مجموعة رائعة ، هو نفسه الذى يبحث عن القصة وراء الصورة ، ويعتبر نفسه ذوّاقة لفن التصوير ؛ وكما أنكم تعنون بإنشاء مسارح خاصة للأطفال ، فإنكم لا تكتفون بمسارح الفن التى تعرض مسرحيات جوركى وتشيكوف وشتشدسكى وأوستروفسكى ؛ فالأمر يتعلق بنمو ثقافى وشعورىّ يختلف باختلاف طبائع الناس ، واستعدادهم وتعليمهم .

— لا يمكن أن نذهب معك إلى هذا الغلو فى التفرقة بين الناس .

— أنا لا أعنى التفرقة بين المهندس والأستاذ ، وبين العامل ، إنما أقصد أن بين عمال المصنع الواحد من يهتمّ بالفن الرفيع ، ومن لا يُعنى بغير الفنون الشعبية ، بين من يتذوّق صور سيزان وبيسارو وبين من تكفيه الصور ذات الموضوع الدرامى مما رأيت منه أكثر من اللازم فى بعض متاحفكم .

— المهم أننا فى هذا الأستديو ننتج أعمالاً لا تبور فى السوق . ولقد وجدت أنت نفسك الحل : فكما أن مسرحنا يقدّم أنواعاً من الإنتاج تختلف باختلاف أذواق الجمهور — المسرح النقدى الهزلى ، ومسرح الأطفال ، والمسرح الأخلاقى ، والميوزيك هول ، والمسرح الفنى — فإنا كذلك ، فى السينما ننتج فيلم المفاجآت ، والفيلم الأسطورى ، والفيلم العاطفى ، والفيلم التاريخى ، والفيلم الاجتماعى ، والفيلم الموسيقى . ولكلٍّ جمهوره . نحن نؤدّى لكلٍّ جماعة من الناس حقها ، وعندنا أن فيلماً بوليسيّاً نحسن إخراجه ، خير ألف مرّة من فيلم فلسفىّ أو اجتماعىّ ضعفت عناصر تكوينه .

— هذا حق . وما قولكم فى أن فيلم « مارتى » الأمريكى — وهو من أقوى ما أخرجت هوليود — لم يثبت فى القاهرة أو الإسكندرية أكثر من أسبوع ، على حين استمر عرض فيلم « الحرب والسلام » عندنا أسابيع ، وهو أيضاً من أعظم أفلام هوليود ؟ .

— يمتاز كلٌّ من الفيلمين بصفات تجعله فى مقدمة الإنتاج السينمائى ، إلا أنّ طبيعة أحدهما ، بما فيه من مناظر خارجية كثيرة ، وبما فى قصة تولستوى وأشخاصه من روعة الخلق الفنى ، تمعن فى إظهارها الأحداث التاريخية ، أكثر جاذبية للجماهير من فيلم « مارتى » العصرى ، الذى يحكى قصة يومية معتادة . والحقيقة أن فيلم « مارتى » أعظم من فيلم « الحرب والسلام » من وجهة النظر الفنى المحض . ولقد أنتجت موسكو أخيراً

فيلماً من نوع « مارتى » ، نرجو أن يعترف لنا العالم بتوفيقنا الكبير فيه .

— وما هذا الفيلم ؟

— « عند ما تمر أسراب اللقلاق »

* * *

ولم يخيب مهرجان « كان » هذا العام رجاء السينمائيين السوفيت ؛ فقد فاز هذا الفيلم بالجائزة الكبرى ، كما حازت ممثلته الأولى جائزة التمثيل .

ورأيت فيلم « عند ما تمر أسراب اللقلاق » أخيراً فى عرض خاص ، فوجدته ممتازاً إلى حد كبير ، وأتساءل : أيكون حظ هذا الفيلم عند ما يعرض عندنا مثل حظ « الحرب والسلام » ، وهو فيلم عظيم ، ومثل حظ « الإخوة كارمازوف » ، وهو فيلم متوسط الجودة ، ومع ذلك كان نجاحه بين ظهرانينا نجاحاً منقطع النظير ؟ .

وهل أطلب إلى الزملاء الذين يحسنون الكتابة فى فنون السينما على صفحات « المجلة » أن يعنوا بتحليل عميق لقطاعات جمهور السينما فى مصر ؟ .

* * *

بين الفصاحة والوضوح

إذا افتقدنى قراء « المجلة » يوماً ، سواء كان اختفائى حيًّا أو ميتاً ، فليعرف القاصى والدانى أننى رحت ضحية اللغويين المصححين ! .

حكيت فى العدد الماضى من هذه المجلة قصة السباق غير المتكافئ بين « الأرنب والسلحفاة » ، ويعرف من يعالج « الضمائر العائدة » أن أمرها يستعصى بعض الشىء فى حال العودة إلى اسمين من جنس واحد ، أما وهذا غير موجود فى موعظة السلحفاة والأرنب — فى رأى حضرة صاحب الجهالة كاتب هذه السطور — فقد جعل الله لى من أمرى يسراً ، وكتبت ، مطمئنًّا إلى عجمتى ، حاسباً أن الأرنب مذكر والسلحفاة مؤنث ، ولم أحسب أن فى السويداء رجالا ، وفى « المجلة » لغويين أصالى :

« ومن المواعظ التى كانت تؤثر فى الطفل تأثيراً عكسيًّا ، موعظة الأرنب والسلحفاة ، والسباق غير المتكافئ الذى جرى بينهما فى ظروف لا أعرفها ، واحتقار الأرنب للسلحفاة ، وتقاعسه فى بدء السباق » .

فأصلح القطب المتولى عثار الضاد بهذه المجلة : « وتقاعسها فى بدء السباق » . ولك أن تفهم « بالويم » : هل كان المقصود هنا تقاعس الأرنب ، أو تقاعس السلحفاة ، واللبيب بالإشارة « يفهمو » ، فأنت مضطر أن تعيّن المتقاعس هنا : لا بد أن يكون — آسف ! لا بد أن تكون الأرنب ، لأن السلحفاة ليست ناقصة تقاعساً ! .

والموعظة كما كتبت تقول بأن « السلحفاة فازت بالسباق بسبب تقاعس الأرنب ، واعتداده بنفسه » ، فأسرع الأستاذ اللغوى إلى قلمه الأحمر وكتب : « فازت السلحفاة بالسباق بسبب تقاعس الأرنب ، واعتدادها بنفسها » ، وافهمْ ما تريد أن تفهم من هذه الجملة . وأرجو أن تكون ضيق العقل مثلى ، فتفهم أن « اعتدادها بنفسها » تعود على السلحفاة ، وهو غير ما قصدت إليه ، أو ما تعنيه القصة طبعاً ، وما برحتَ أنت ، وما برحت أنا ، نحسُّ بأن الأرنب مذكر ، والسلحفاة مؤنث ، مهما قالت المعاجم ، وادّعى أهل اللغة .

سألت الأستاذ الأجرومى — وأرجو ألا يختلط عليك هنا أمر الفعل الثلاثى ومشتقاته ؛ فما قصدت الإساءة ! — سألت الأجرومى ، أو قل إننى أطلقت عليه الرشاش اللغوى هكذا :

— أي جريرة أجرمت يا أجرومي فتجرّ بجرّة جائرة رجرجت جملتي ، وجبرت جؤجؤ جمجمتي ؟ .

— ما الجريرة جريرتك ، يا فتى ، وإنما هي جريرة الأرنب ؛ فهي (أي الأرنب لا الجريرة) مؤنث ! .

— الأرنب مؤنث ؟ .

— أي والله ، بهذا تقول المعاجم .

— وتكون « الأرنبة » إذن هي الذكر ؟ .

— اعلم يا فتى ، أن الأرْنبة طرف الأنف .

— وإذا قصدت شراء ذكر أرنب ، لأعقد له على أرنب « جميلة ، بيضاء » عندى ؟

— تقول للبائع : هل عندك خُزَزٌ ؟ .

— وتعتقد أن الفرارجي سيسلمني أرنباً ، أو يسلمني ... لبوليس العباسية ؟

— عيب أهل هذا الزمان ، أنهم لا يعرفون اللام ألف من الشمعدان !

— يا أجرومي ! ما السابق في الخلق : البيضة أم الدجاجة ؟ أقصد : الوضوح أم الفصاحة ؟ .

— الفصاحة تضرب الوضوح على عينه اليسرى ، يا فتى ! .

— كنت أحسب أن الفصاحة هي الوضوح يا أجروم ؛ لأن اللغة هي الكلام المفهوم ، لا التقاذف بالدقشوم ، أو التضارب بالشوم .

لست أرى فائدة من الاسترسال في هذا الحديث السيبويهي ؛ فالشيخ الأجرومي يقول إنه على حق ، حتى لو كان حقاً يراد به إبطال المعنى الذى قصدت إليه في سرد موعظة السلحفاة (مؤنث) والأرنب (مذكر) .

ولا حول ولا قوة إلا بالله . . .

وبالقاموس المحيط لمجد الدين الفيروزبادى ، الجزء الأول ، الطبعة الثالثة سنة ١٩٣٥ ، بالصفحة ٧٦ فصل الراء ، باب الباء (رنب) ، قال ، رحمه الله ، وجعل الجنة مثواه :

(الأرنب) م للذكر والأنثى ، أوْ لها ، والخُزَز للذكر ج أرانب ، وأران ، وكساء مرْنباني بلونه ، ومؤرْنبٌ للمفعول ، ومَرْنبٌ كمقعد خُلط بغزْله وَبره ، وأرض مَرْنَبَة ، ومُؤَرْنِبة ، ومؤرْنبة كثيرته (فتقول عندنا طقيسى مؤرنب ، وعشة مرْنبة) . والأرنب جرَذٌ قصير الذنب ، كاليرْنب (وفسر الأرنب بعد الجهد باليرنب) ، وضربٌ من الحليّ ، وامرأة (فتقول : أرْنبي تتقمش الجوالقَ ، أى امرأتى تلبس الشوال) ، وبهاء طرَف الأنف ، والأرَيْنبة عشبة كالنّصيّ ، والأرنبانيّ الخزّ الأدكن . . . والمرْنب فأرَةٌ عظيمة . . .

والله ، بعد كل هذه التفسيرات ، هو الأعلم .

وإنا لله وإنا إليه لراجعون .

* * *



وزارة الثقافة

وزارة للفنون والآداب والتاريخ والبعث القومى

من الأخطاء الشائعة فى مصر ، وهى من رواسب عصور التقهقر والانحلال — أن يضع الناس الفنون على هامش النشاط الإنسانى باعتبار أنها تختص بالترفيه والتسلية والزينة ، أى أنها شىء كمالى ، ولازمة من لوازم الترف .

والفن هو الصورة الفذة التى تتمثلها المشاعر الإنسانية على اختلاف منازعها ، وظاهرة التعبير التى نشأت مع نشأة الفكر مقرونة فى أول الأمر بالعقائد والديانات .

وكلما ارتقى الإنسان فى مدارج الحضارة ارتفع تعبيره الفنى حتى إن المجتمع الواحد تتفاوت فنونه تبعاً لتفاوت ثقافة أفراده ؛ فالفن لدى العامة غير فن أهل الثقافة وإن جمعت بين هؤلاء وأولئك آصرة الشعور العام ، وألفت بينهم ظروف الوحدة الاجتماعية .

وإذا كان الفن تعبيراً عن الشعور ، وصورة من صور الفكر ، فمظاهر الفن بدورها تؤلف بين الناس ، وتجمع بين أشتاتهم لتكون منهم شعباً وأمة . والفن هو المهذب لنزعاتهم ، المروض لنفوسهم ، القوام على نظام معيشتهم . والفن إلى جانب الدين واللغة والعادات والتقاليد ركن من أركان المجتمع ، ودعامة من دعامات النظام ، وأساس من أسس الأخلاق .

وكان اليونان القدماء حريصين على تربية الملكات العقلية والشعورية ، بقدر حرصهم على تقويم البدن .

فكانت التربية عندهم تتناول « الجمناستيق » لتقويم الأجسام ، و « الموسيقى » لتقويم النفوس . والموسيقى هنا تعني فنون « الموزى » ، أي تربية النشء فكرياً وشعورياً بدراسة العلوم والآداب ، والتاريخ والشعر والغناء والموسيقى والرقص .

ومن قبل اليونان بآلاف السنين نشأ الشعب المصرى نشأة فنية ، وكان التعبير الفنى ، على اختلاف صوره ، أصيلا متأصلا فى الحضارة المصرية منذ فجر التاريخ ، خرج من صميم الشعب فى أفراحه وأتراحه وتعبده ، وصاحب الطقوس الدينية فى جميع مظاهرها ، فكانت النصوص المقدسة مؤلفات من الأدب العالى ترتل وتنشد على عزف الآلات الموسيقية ، وكانت القصور والدور والمعابد والمدافن متاحف كاملة لفنون العمارة والحفر والتصوير والزخرف .

والصور والتماثيل والمحفورات رسمت للحياة المصرية القديمة صوراً صادقة ، تطلعنا على مكانة الفنون عندهم ، فهم يمارسون العزف والإنشاد فى المعبد ، وخارج المعبد ، ويرقصون لا فى مجال اللهو وحده ، بل فى حضرة الآلهة ، وفى الاحتفالات الرسمية ، والأعياد الشعبية ، وفى الأفراح والمآتم . وكانت الصلوات أشعاراً من صميم الأدب ، بل كانت بعض الطقوس أقرب ما تكون إلى تمثيليات مقدسة ، تشتمل على نشيد « الخورس » يرد عليه غناء الفرد فى اصطحاب آلات موسيقية بلغت حداً عجيباً من الإتقان والتنوع .

ومع قلة ما توارثنا من الأدب المصرى القديم ، فإن هذا القليل يصور الحالة الفكرية ، وما كان للأدب القصصى من اتجاه خلقى ، وهدف تربوى ، فضلا عن قوة فى الخيال وصدق فى التعبير .

ظلت شعلة الفن متقدة حتى بعد انقضاء عهد الأسرات ؛ فالشعب المصرى كان من القوة والترابط ، والتقاليد المصرية كانت من الثبات ، بحيث فرضت على الأسر الحاكمة الأجنبية أن تتخذ المظهر المصرى فى اللباس ، والعادات والطقوس ، وأن تشجع البناء والمثال والمصور والمزخرف المصرى على مواصلة منشآته العظيمة ، كما يبدو ذلك واضحاً فى المعابد المصرية التى أنشئت فى عهود البطالمة والرومان المنتشرة على طول الوادى فى أسوان وإدفو وإسنا ودندرة . وهكذا ظلت مظاهر الفن المصرى حية قائمة فى المعبد والمسكن والمدفن حتى آخر العهد اليونانى والرومانى أى ظلت ثلاثة آلاف سنة ونيفاً .

وعندما اعتنق المصريون الديانة المسيحية ، ظل الشعب محتفظاً بروحه الفنى فى بناء الكنائس والأديرة ، وفى ألحان الكنيسة وزخرفها . وكان الشعر والنثر فى اللغة القبطية أدباً دينياً ودنيوياً يحتفظ بالمثل العليا فى الأخلاق . وانتشر التصوير بالألوان ، والحفر على الخشب ، وتنوعت فنون الزينة ، على الخشب والمعادن ، وفى تلك المنسوجات التى ذاعت شهرتها فى أنحاء العالم خلال العصور الوسطى .

وبعد الفتح العربى ، لم تنطفئ للفن المصرى جذوة ، بل تحول وتطور ليعبر عن روح مصرى إسلامى فى الشعر والنثر والعمارة والزخرف . وظل الشعب يهزج بأهازيجه فى الحقول والقرى والدساكر ، وانتقلت موسيقاه الدينية إلى حفلات الذكر ترتيلا وإنشاداً بمصاحبة الدف والناى والصنج ، وأذن المؤذنون فى الناس بصوت رخيم وإيقاع موسيقى ، بل جاءت تلاوة القرآن على رأس هذه الروائع الفنية ، واتخذت طابعاً فنياً خاصاً ما زالت مصر تزهو به على جميع الشعوب الإسلامية .

وإذا كانت فنون التصوير الحى قد توقفت زماناً خوف الفتنة ، فإن الفنان المصرى الذى أنشأ المساجد والمدارس والخوانق والمنازل أعمالاً تتبوأ مكانها الرفيع فى تاريخ الفنون العالمية ، قد حذق فن الزخرف ، فجاءت الأيادى الصناع بتلك الأعمال الفذة فى النسج والوشى والحفر على النحاس والخشب ، وفى المشكاة والخوان والسلسبيل والإيوان — أمثلة فنية تقمصتها روح شعب عريق فى الحضارة ، التعبير الواضح قوام حياته فى المعبد والمسكن والندوة والروضة .

وإذ نكبت مصر بالغزو العثمانى ، واضطربت أمور معاشها ، لم يكف الشعب المصرى — على الرغم مما عاناه من اضطهاد واستغلال — عن متابعة حياته الفنية وإن تضاءلت ، حتى إذا ما عادت مصر إلى الاتصال بتيار الحضارة العامة — وقد انفصلت عنه أم الحضارات ردحاً من الزمن — تيقظ روحها الخالد ، فتطورت الفنون والآداب فى نصف القرن الحاضر ، وظهر الشعر المصرى الحديث ، والقصة المصرية ، ونشأ فن التمثيل والقصة التمثيلية ، وتنبهت المدارك الفنية لتخريج مدرسة فى الحفر والتصوير والعمارة والزخرف ، ومدرسة فى التمثيل ، وانتقلت الموسيقى من الصهبة والموال إلى التخت فالمسرح ، وهى تتلمس اليوم طريقها نحو التعبير عن أرفع المشاعر وأقوى الخلجات .

وكان من أثر اليقظة بعد الحرب العالمية الأولى ، أن عالجت حكومات ذلك العهد تشجيع الفنون والآداب ، ويظهر أن هذا التشجيع جاء كرهاً ، وأن جهد تلك الحكومات لم يتسم بالإخلاص ، وإنما كان نوعاً من التسليم بواقع الحركة الفنية ، ومحاولة لمجاراتها بإرشاد ملك أو أمير ، لذلك اتخذ التشجيع غالباً مظهر التملق للأسرة الحاكمة ، ودعاية للملك ، وموضوعاً للتفاخر الكاذب بين الأجانب .

فاختلط الأمر على الناس واضطربت موازين

النقد ، وتسرب الأفاقون والمداحون والنفعيون يزجون بضاعتهم على أنها فن ، وما هى إلا مداهنة رخيصة للحاكم إن لم تكن استثارة لأحط غرائز الإنسان ، وانزلقت الفنون كلها فى منحدر الإسفاف والغثاثة ، وغشيت مصر غاشية لا تكاد تستبين فيها الفرق بين الرقصة الفاحشة والأغنية المبتذلة والفيلم السوقى والمسرحية المهرجة ، وبين الأدب العالى والموسيقى الرفيعة ، والرقصة الفنية ، والتصوير الصادق .

فإذا اقتضانا الإنصاف ألا ننكر نوعاً من التشجيع قامت به الحكومات فى العهود السابقة فإن هذا التشجيع سرعان ما تحول إلى دعاية رخيصة للحكام ، وفقد التناسق والاستقرار ، وقام على غير دراسة لواقع حاجة الشعب ، حتى أدى إلى عكس الغرض منه ، وهدد حياة الفن والأدب بالفناء ، لولا بقية من صدق إحساس الأمة ، ولولا جذوة الإيمان فى نفوس قلة من رجال الفكر والفن فى مصر .

ولقد جاء اليوم الذى تعنى فيه الجمهورية العربية المتحدة عناية خاصة بشئون الفكر والفن ، فتضم شمل أهله ، وتأخذ بناصر وسائل التعبير الفنى بأنواعه ، حتى تحقق الجمهورية الناشئة فى النواحى الروحية والفكرية مثل ما هى بسبيل تحقيقه فى ميادين السياسة والاجتماع والاقتصاد . . .

ولكى تستطيع الجمهورية أن تكون للفن والآداب نصيراً اختطت وسيلة للبحث والدرس ، وأنشأت أداة للاتصال برجال الفكر حتى تعرف طريقها نحو التشجيع ، ونهجها فى بعث النهضة الفكرية .

والواضح من الاتجاه الذى ظهرت آثاره منذ عامين فى إنشاء المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ، أننا فى سبيل رعاية الإنتاج الفنى العام ، ورفع مستوى الذوق ، والتقدم فى الطريق السوى نحو حضارة قومية أصيلة .

وها نحن أولاء اليوم نرى الجمهورية العربية المتحدة تواصل الرعاية ، وتأخذ فى مساندة الفكر ورفع شأنه ، بإنشاء وزارة للثقافة ، حرصت فيها على أن تحفظ لوزارة الإرشاد القومى اسمها القديم بما تحتويه من خبر ، أو لا تحتويه ، وأن تقدم عليه كلمة الثقافة علماً حياً ، وتوجيهاً واضحاً لوزارة كانت بالأمس تركيباً مزجياً من الإعلام والاستعلام والسياحة والإذاعة والثقافة والفن .

أصبحت أهم شئون الفكر والفن والتاريخ بالجمهورية العربية المتحدة فى عنق الوزارة الجديدة : تشرف على التأليف والترجمة ، ووضع دوائر المعارف ، وتنظيم المكتبات والندوات الفنية ، وتشجيع القراءة والاطلاع ، والتحول بالمتاحف إلى جامعات حية تبصر المواطنين بأمجادهم التاريخية والفنية ، وتصل بين حاضرهم الثقافى وتاريخهم العريق فى وحدة متصلة ، لا فى قطاعات منفصلة . وتشجع وزارة الثقافة الجديدة المصورين والمثالين والمزخرفين بكل الوسائل التى تملكها الدول الحديثة ، وتنشئ معاهد عليا لتعليم الموسيقى والتمثيل وفن السينما ، وتراقب الإنتاج الفنى بكل أنواعه ، ترعى الصالح ، وتمهد الأرض للتجديد ، وتقتلع منها الحسك الضار . وأصبحت شئون الطبع والنشر ، سواء منها ما يتناول التراث التالد أو الإنتاج الطريف ، فى يد الوزارة الشابة . وأخيراً وليس آخراً ، تتولى وزارة الثقافة أمور دار الكتب المصرية ثم دار الوثائق التاريخية ، وتوجه مؤسسة الثقافة الشعبية فى الطريق الذى ترسمه لمصالحها وإداراتها المختلفة .

ولقد ألقيت على وزير الثقافة بدولة صديقة السؤال الذى ألقيه اليوم على وزير الثقافة بالجمهورية العربية المتحدة : كيف يستطيع موظفون ، مهما تعمقت ثقافتهم ، وارتقت أهدافهم ، أن يشرفوا على شئون الفكر والفن ، أى على شئون إنتاج فئة من الناس تعرف بحرصها على الحرية ، ولا تعمل إلا فى جو فسيح مطلق ، تكره أن توجه ، وترفض الولاية من أى مكان ؟

فأجابنى على الفور :

« إنى موافق على كل كلمة جاءت فى سؤالك ، بل إننى معجب أن يجيء هذا السؤال على رأس الموضوعات التى جئت تحدثنى عنها ، وهاك الجواب . . » .

وأخذ يحدثنى حديثاً ممتعاً ، عرفت منه أن شئون وزارة الثقافة مشاركة بين فريق من الموظفين واسعى الثقافة ، شديدى الحساسية بجلال عملهم ، وفريق من روّاد الفكر والفن ، يجتمعون شهرياً ليتدارسوا فى حرية وانطلاق ما يحقق وما يرجى تحقيقه ، ويخططون للمدى القصير والطويل خططاً تتناول الإنتاج الفكرى بأنواعه ، وينتهون إلى قرارات تقدم لوزير الثقافة ونوّابه الأربعة وتؤلف الدستور الحى ، المتطور شهراً عن شهر ، وعاماً بعد عام لما يطلب من وزارة الثقافة أداؤه .

يتألف من هؤلاء وأولئك مجلس استشارى لوزارة الثقافة يعرف « بالكوبلجيوم » يضم واحداً وعشرين عضواً من « عمال الفكر » فى كل حقل ، ومن الرؤساء المسئولين عن الفنون والآداب بالوزارة .

وتقوم إلى جانب هذا المجلس الاستشارى ، لجان دائمة لكل فن وفرع من فروع الإنتاج الفكرى ، تنتظم المختصين بهذا الفن وذاك الفرع من فروع الإنتاج الفكرى . وهذه اللجان تعمل فى فترات أقصر من فترات المجلس الكبير ، وعدد أفرادها لا يتعدى ، موظفين ، وغير موظفين ، عشرة أعضاء .

وإن « المجلة » لتضع هذه الإجابة تحت أنظار وزير الثقافة للجمهورية العربية المتحدة ، وهى واثقة من حدبه على شئون الفكر والفن ، مطمئنة إلى أن تمرّسه بها ، واتساع أفقه ، ورصانته ، ستساعده على ترسّم الخطط ، وتلمّس الوسائل النابعة من بيئتنا وقوميتنا ، ومقدراتنا وقدرتنا ، دون انسياق إلى خيالات المتخيلين ، وتحليق المحلقين . لأن الفنون والآداب وإن كانت فى معظمها ربيبة التخيل والتحليق ، هى أيضاً بنت التمعن والتعمق والدرس .

أما فى إدارتها ، والإشراف على حياتها ، فهى تتطلب قبل كل شىء التفكير الهادئ ، والتخطيط المؤسس على حقائق البيئة ومجمع آراء المفكرين والمؤرخين والأدباء والفنانين ، يقوم على تنفيذها موظفون متخصصون.

قـــرار
رئيس الجمهورية العربية المتحدة
رقم ٦٧١ لسنة ١٩٥٨
فى شأن تنظيم وزارة الارشاد القومى

رئيس الجمهورية

بعد الاطلاع على الدستور المؤقت

قرر

مادة ١ – تتكون وزارة الإرشاد القومى من :

(ا) الديوان العام .

(ب) مصلحة الفنون .

(جـ) الإدارات والمؤسسات العامة التابعة لوزارة الإرشاد القومى الآن وهى :

١ – الإدارة العامة للشئون الثقافية .

٢ – مركز الفنون الشعبية .

٣ – مركز الوثائق التاريخية .

٤ – مؤسسة دعم السينما .

(د) مصلحة الآثار ومركز تسجيل الآثار المصرية بالإقليم المصرى (نقلا من وزارة التربية والتعليم)

(هـ) الأقسام الآتية من الإدارة العامة للثقافة بوزارة التربية والتعليم :

١ – قسم التأليف والترجمة .

٢ – قسم نشر التراث القديم ودائرة المعارف .

٣ – قسم النشرة الثقافية والمحاضرات والندوات .

٤ – شراء مقتنيات فنية وجوائز الفنانين .

(و) مؤسسة الثقافة الشعبية (نقلا من وزارة التربية والتعليم)

(ز) الأقسام الآتية من الإدارة العامة للفنون الجميلة بوزارة التربية والتعليم :

١ – قسم المتاحف (متحف الفن الحديث) .

٢ – قسم الفنون التشكيلية والتطبيقية .

٣ – مركز إحياء الفنون القديمة .

٤ – قسم المعارض الدولية والمحلية فى مصر والخارج .

٥ – قسم مراسم الفنانين .

٦ – قسم الأدلاء والتراجمة .

٧ – مصنع صب القوالب .

(ح) دار الكتب بالقاهرة ومطبعتها (نقلا من وزارة التربية والتعليم)

(ط) معهد التمثيل المسائى والنهارى ومعهد الموسيقى العربية .

(ى) المتاحف الآتية (نقلا من مصلحة السياحة بوزارة الاقتصاد والتجارة) :

١ – متحف الحضارة .

٢ – متحف الجزيرة .

٣ – متحف بيت الأمة .

٤ – ضريح مصطفى كامل .

مادة ٢ – ينشر هذا القرار فى الجريدة الرسمية .

صدر برياسة الجمهورية فى ٨ ذى الحجة سنة ١٣٧٧ (٢٥ يونية سنة ١٩٥٨)

(جمال عبد الناصر)

قرار رئيس الجمهورية العربية المتحدة
رقم ٦٩٢ لسنة ١٩٥٨
بشأن وزارة الثقافة والإرشاد القومى

رئيس الجمهورية

بعد الاطلاع على الدستور المؤقت

قرر

(المادة الأولى)

تعدل تسمية « وزارة الإرشاد القومى » إلى « وزارة الثقافة والإرشاد القومى »

(المادة الثانية)

ينشر هذا القرار فى الجريدة الرسمية .

صدر برياسة الجمهورية فى ٩ ذى الحجة سنة ١٣٧٧ (٢٦ يونية سنة ١٩٥٨)

(جمال عبد الناصر)

صلاح الدين الأيوبي في رأي مؤرخ أوروبي

بقلم ستانلي لين بول

للمؤرخ الإنجليزي ستانلي لين – بول كتاب اسمه « صلاح الدين وسقوط بيت المقدس » ضمنه الفصل الذي ننشره هنا يصف فيه الأيام الأخيرة من حياة صلاح الدين .

ما إن أيقن صلاح الدين يقيناً لا يدع مجالاً للشك أن ريتشارد « قلب الأسد » ملك إنجلترا قد ركب البحر وغادر بلاده في طريقه إلى الشرق ، حتى بدأ يجوب أنحاء الوطن الذي بذل النفيس في سبيل الاحتفاظ به ، فزار جميع المعاقل والمدن الكبرى متفقداً وسائل الدفاع عنها ، آمراً بزيادة استحكاماتها ، ورصد حامية قوية من الفرسان والمشاة في كل مكان .

واستقبل في بيروت في اليوم الأول من نوفمبر عام ١١٩٢ م أمير أنطاكية « بوهيموند » المشهور بالمتلجلج ، والذي كان قد اشترك في معاهدة الصلح . وكانت المقابلة ودية خرج منها الأمير وقد أقطعه صلاح الدين ضياعاً في سهول أنطاكية قدر ريعها السنوي بخمسة عشر ألف دينار .

وفي « كوكب » التي كانت تعرف من قبل باسم « بلفوار Belvoir » التقى صلاح الدين وتابعه القديم « قراقوش » منشئ أسوار القاهرة ، وكان سجيناً في « عكا » منذ تسليمها . ولم يؤنبه صلاح الدين ، وإنما احتفى بالولي الحميم والمخلص المقيم .

وفي الرابع من نوفمبر استقبلت دمشق سلطانها أحسن استقبال بعد انقضاء أربعة أعوام على خروجه منها ، فما أبلج الصبح حتى اكتظت ساحة الاحتفالات بالأصدقاء القدامى وأفراد الشعب المبتهج ، وتبارى الشعراء وإن لم تسعفهم الألفاظ بالمعاني النفيسة التي ترتفع إلى مستوى المناسبة العظيمة .

لقد عاد صلاح الدين مرة أخرى إلى داره بين أطفاله ، وإننا لنراه جالساً في فناء قصره الصيفي وإذا بالحاجب يعلن قدوم وفد من الفرنسيين ، وما إن مثلوا بين يديه وهم حليقو الوجوه ، قصيرو الشعور ، غريبو الأزياء ، حتى ارتاع ابنه الصغير أبو بكر وأخذ يصرخ ، فشُغل صلاح الدين بطفله ، واعتذر لممثلي فرنسا .

ولبث مع صلاح الدين أبناؤه الكبار الذين بلغوا مبلغ الرجال ، وخاضوا معه معاركه ، وكان يصحبهم أخوه العادل في رحلاته اليومية لصيد الغزلان في السهول الواسعة حول دمشق . وكان صلاح الدين يفكر في الذهاب إلى مكة لأداء فريضة الحج ، وكان تواقاً إلى العودة لزيارة مصر بعد أن تألق نجمه كسلطان لأول مرة . ولكن الوقت مضى ، وعاد الحجيج من الجزيرة العربية وصلاح الدين لم يبرح دمشق ، وبقي مستمتعاً بمباهج بيته الهادئ الآمن .

وفي يوم الجمعة الموافق ٢٠ من فبراير عام ١١٩٣ م خرج صلاح الدين ممتطياً صهوة جواده للقاء الحجيج يرافقه « بهاء الدين »* . لم يكن نشيطاً في الأيام الأخيرة ، وكان

* هو أبو المحاسن يوسف بن رافع المعروف بابن شداد والملقب ببهاء الدين قاضي حلب ، ولد بالموصل سنة ٥٣٩ واتصل بخدمة صلاح الدين سنة ٥٨٤ فولاه قضاء العسكر والحكم بالقدس ، ومن مؤلفاته « سيرة صلاح الدين بن أيوب » .

فصل الخريف قد حلّ ، وامتلأت الطرقات بماء المطر الغزير ، وقد نسى أن يضع رداءه المبطن على جسمه ليتقى به غائلة البرد فغشيته الحمى فى تلك الليلة ، ولم يستطع مشاركة أصدقائه فى طعام العشاء فى اليوم التالى ؛ فأثار جلوس ابنه فى موضعه من الإيوان الدمع فى عيون الحاضرين ، وبعث التشاؤم فى نفوسهم .

* * *

وبدأت صحة السلطان تسوء ، وأخذ يعانى آلاماً موجعة فى رأسه وبطنه . وفى اليوم الرابع قصده الأطباء ، ومنذ ذلك الحين ظلت حالته تتدهور من سيئ إلى أسوأ ، وأصيب جلده بطفح من أثر الحمى ، وهزل جسمه . وفى اليوم التاسع شرد عقله ، وراح فى غيبوبة ، ولم يعد قادراً على شرب دوائه . وكان « بهاء الدين » ومستشاره « القاضى الفاضل » يذهبان لرؤيته كل ليلة ، أو على الأقل للاطلاع على رأى الأطباء .

وكانا يخرجان أحياناً وقد بلل الدمع مآقيهما ، وهما يحاولان إخفاءه حتى لا يتنبه الجمع المنتظر على الأبواب ، ويقرأ فى ملامحهما حال سيدهما الصحية .

وفى يوم السبت — وكان قد مضى على الإصابة عشرة أيام — استطاع الطب أن يخفف من وطأة المرض حين تناول المريض جرعة قوية من ماء الشعير وتصبب عرقاً غزيراً ، « فشكرنا الله تعالى . . . وانصرفنا طيبة قلوبنا »* . وكان ذلك آخر ما بذل من جهد .

وفى ليلة الثلاثاء استدعى أمين سرّ السلطان ومستشاره إلى القصر ، ولكنهما لم يتمكنا من مقابلته لأنه كان فى النزع الأخير ، وكان معه أحد الصالحين** يردّد الشهادة ، ويقرأ من آى الذكر الحكيم . وحين بلغ قوله تعالى : « هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم » تمّم السلطان قائلا : « صدق الله العظيم » . وحين وصل القارئ إلى قوله تعالى : « عليه توكلت »

تبسم الرجل الذى يغالب سكرات الموت ، وتهلل وجهه وأسلم روحه إلى بارئها .

* * *

مات صلاح الدين يوم الأربعاء الرابع من مارس عام ١١٩٣ م ، وهو فى الحادية والخمسين من عمره ، ودفن بعد صلاة العصر من اليوم نفسه فى الدار التى فى البستان بقلعة دمشق ، ووضع بجانبه سيفه الذى خاض به معارك الجهاد « ليكون معه فى جنات الخلد » .

لقد وهب صلاح الدين كل ما كان يملك فى حياته ، فكان لا بد من اقتراض نفقات دفنه ، حتى القش الذى صنع به طوب القبر اقترض ثمنه . وكان مشهد تشييع الجنازة غاية فى البساطة ؛ فقد لف النعش بثوب من النسيج المخطط ، وحيل بين الشعراء والخطباء وإلقاء المراثى ، فلم يجرءوا على الكلام . وحين رأى القوم المحتشدون حول البوابة ، النعش انخرطوا فى البكاء ، وانعقدت الألسنة ، فلم ينبس النابس بدعاء أو صلاة ، وظلوا يعْولون وينشجون فحسب .

كانت كل العيون تذرف الدمع السخين ، وقلما كنت ترى من لم يغلبه البكاء . ثم قفل القوم عائدين إلى دورهم ، وأغلقوا أبوابها خلفهم ، فأقفرت الطرقات ، وساد الشوارع صمت عميق ينبئ عن حزن عظيم ، ولم يذهب إلى القبر سوى أمين السر الباكى مع أفراد أسرة السلطان الذين حضروا للصلاة يعصرهم الحزن والبكاء .

وفى اليوم التالى تدافع القوم على القبر ينتحبون ، ويدعون ، ويرتلون القرآن ، ويستمطرون شآبيب الرحمة والرضوان على البطل الراقد تحت الثرى .

وقد بقى الجثمان حيث دفن عامين كاملين ، ثم نُقل بإشراف أحد أبنائه ، ودفن فى المحراب على الجانب الشمالى من الكلاّسة بجانب المسجد الأموى العظم حيث بقى إلى اليوم . وقد كتب عليه مستشاره الأمين الذى لحق بمولاه هذه العبارة : « اللهم فارضَ عن تلك الروح ،

* من كلام بهاء الدين فى كتابه « سيرة صلاح الدين » .

** هو الشيخ أبو جعفر إمام الكلاسة .

وافتح لها أبواب الجنة ؛ فهى آخر ما كان يرجوه من الفتوح » .

وكتب ابن خلّكان بعدئذ يقول : « ولقد دخلت هذه القبة من الباب الذى فى الكلاّسة ، وقرأت عنده ، وترحمت عليه ، وأحضر لى القيم ومتولى القبة بقجة فيها ملبوس بدنه ، وكان فى جملته قباء أصفر قصير ورأس كميه بأسود ، فتبركت به » .

وكتب الطبيب عبد اللطيف البغدادى يقول : « ما رأيت ملكاً حزن الناس بموته سواه » .

* * *

لقد كان سرّ قوة صلاح الدين كامناً فى حب رعيته له . وإذا كان غيره قد سعى إلى تحقيق أهدافه بالإرهاب والقسوة وأبهة الملك فقد بلغ هو غايته باللطف ، ولعل كلماته الخالدة التى وجهها قبيل وفاته إلى « الظاهر » أحبّ أبنائه إليه ، وكان بسبيل توليته أحد الأقاليم — تكشف لنا عن مصدر قوة صلاح الدين .

قال يخاطب ابنه : « أوصيك بتقوى الله تعالى فهى رأس كل خير ، وآمرك بما أمر الله به ، فإنه سبب نجاتك ، وأحذّرك من الدماء والدخول فيها والتقلد بها ؛ فإن الدم لا ينام ، وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر فى أحوالها ؛ فأنت أمينى وأمين الله عليهم ، وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء وأرباب الدولة والأكابر ؛ فما بلغتُ ما بلغت إلا بمداراة الناس . . . » .

* * *

ولقد كانت السماحة هى أبرز سمات خلقه ، لا أية صفة من الصفات التى كانت تميز الملوك فى عصر صلاح الدين ، فلا هى العظمة لأن الاحترام الذى كان يوحى به انبعث من الحب الذى يطرد كل خوف ، ولا هى الدولة فقد كان أبعد ما يكون عن مظاهر الأبهة والسلطان.

وكان صلاح الدين من أقرب الملوك إلى قلوب الشعب ، ومن أكثرهم عطفاً عليه . كان يؤْثِر معاشرة الأدباء والبلغاء ، وكان هو محدّثاً ممتعاً « حافظاً لأنساب العرب ووقائعهم ، عارفاً بسيرهم وأحوالهم ، حافظاً لأنساب خيلهم » .

وكانت مشاركته العاطفية ، واهتمامه الصادق البعيد عن التكلف مبعثاً للطمأنينة فى نفوس الحاضرين فى مجلسه ، ولم يكن يحجر على رأى ، بل كان يدع الحديث يتدفق ، وقلما يسمع الحاضرون صوته . وكان الرجعيون من رجال القصر يتحسرون على المراسم الصارمة التى كانت متبعة فى عهد « نور الدين » حين كان يلتزم الحاضر فى مجلسه الصمت « كأن على رأسه الطير » حتى يؤذن له فى الحديث .

أما فى حضرة صلاح الدين فقد كان الحديث يدور بلا كلفة . على أنه كانت هناك حدود لا يجرؤ أحد على تجاوزها فى حضرته ، فما كان ليطيق سماع الكلام النابى ، ولا يسمح بالتطاول على الناس أو النّيل منهم . كان يكره من الألفاظ حوشيها ، وكان يسيطر على كلماته سيطرة تامة حتى فى أشد سورة غضبه . وكانت عفة قلمه من عفة لسانه ، فلم يعرف عنه أنه وجه كلمة قارصة لمسلم قط .

* * *

وقد سجل الطبيب عبد اللطيف البغدادى فى مذكراته بعض الأثر الذى تركه صلاح الدين فى نفسه ، وهو يرينا الجانب الاجتماعى من سيرة صلاح الدين فى قوله :

« رأيت ملكاً عظيماً يملأ العين روعة والقلوب محبة ، قريباً بعيداً ، سهلاً محبباً ، وأصحابه يتشبهون به : يتسابقون إلى المعروف . . . وأول ليل حضرته وجدت مجلساً حافلاً بأهل العلم يتذاكرون أصناف العلوم ، وهو يحسن الاستماع والمشاركة ، ويأخذ فى كيفية بناء الأسوار وحفر الخنادق ، ويتفقه فى ذلك ، ويأتى بكل معنى بديع . وكان مهتماً فى بناء سور القدس وحفر خندقه ، ويتولى ذلك بنفسه ، وينقل الأحجار على عاتقه ، ويتأسّى به جميع الناس ، الفقراء والأغنياء

والأقوياء والضعفاء ، حتى العماد الكاتب والقاضى الفاضل ، ويركب لذلك قبل طلوع الشمس إلى وقت الظهر ، ثم يستريح ويركب العصر ، ويرجع فى المساء ، ويصرف أكثر الليل فى تدبير ما يعمل نهاراً » .

كانت حياته كلها غاية فى البساطة ، والدأب ، والزهد ، حتى إنه رأى سرادقاً فخماً أقيم من أجله فى دمشق فلم يأبه له وقال : « إننا لسنا خالدين هنا ، وهذا الإيوان لا يصلح لمن يتوقع الموت . إننا هنا كى نعمل فى خدمة الله » . وكان يحتقر الترف والانغماس فيه . وإذا رأى أحد أبنائه وقد تخلى عن واجباته فى سبيل غرامه بإحدى الجوارى أنّبه تأنيباً صارماً ، وحال بينه وبين غرامه .

وقال عنه بهاء الدين : « ولقد كان السلطان كثير المروءة ، ندىّ اليد ، كثير الحياء ، مبسوط الوجه لمن يردُ عليه من الضيوف » .

والتاريخ مملوء بصفحات فضائله : ومما سجله له أنه لم يكن يسمح بجلد خدمه فى عصر كان جلد العبيد فيه أمراً طبيعياً ، ويكتفى بطردهم إن ثبتت عليهم جريمة السرقة ، أما العقاب بالسوط فقد كان يمقته أشد المقت .

وقد تجاوزت سماحته وصبره كل حد ، ولم يبخل بهما قط ، ويروى « بهاء الدين » فى شىء من الفزع كيف كانا راكبين إلى القدس معاً فى يوم ريح مطير ، فنضحت البغلة عليه من الطين ، حتى أتلفت جميع ما كان عليه وهو يبتسم ، وأراد بهاء الدين التأخر عنه بسبب ذلك فأبى .

وفى مناسبة أخرى رمى أحد الخدم آخر بحذاء فتجاوز حتى كاد يصيب السلطان ، ولكنه أدار وجهه إلى الناحية الأخرى ، وكأن شيئاً لم يحدث .

وألحّ عليه مملوك قديم ذات مرة لينظر فى التماس له ، وكان السلطان مرهقاً ، ولكنه تجشم مع ذلك عناء البحث عن الدواة بنفسه ، وأحضرها ، وأجاب سؤاله دون أن يبدو عليه ضيق .

وكان أصحاب الحاجات يتكاثرون عليه فى مجالسه العامة ، ويملئون المكان على سعته ، حتى كانت طرّاحته تداس عند التزاحم عليه لعرض مطالبهم ، ولكنه كان دائماً يتسلم عرائضهم بيده ، وينظر فى مظالمهم ، ولا يدع أحداً منهم ينصرف من حضرته خالى الوفاض . وكانت تصل إليه كل يوم طائفة من هذه الأوراق المدضّة المضنية ، فكان يخصص بعض وقته لمراجعتها مع أمين سرّه . ويوقع على كل منها بما يحقق العدل والإنصاف .

وفى يومى الاثنين والخميس كان يجلس فوق منصة القضاء مع القضاة والفقهاء ، ويفتح الباب للمتحاكمين ، ولم يكن يطلب لنفسه أى امتياز أمام هذا المجلس ، أو يسمح به ، وإذا كان لأحد ظلامة ضد أحد الأمراء أو حتى ضد السلطان نفسه ، استدعاه للحضور إلى مجلس الحكم كعامة الشعب . وإذا صدر الحكم لصلاح الدين خلع على خصمه ، ودفع نفقات الدعوى ، وصرفه سعيداً تتملكه الدهشة .

فكان الشعب خليقاً بألا يخشى صرامة قاض كهذا ، ولكنه إبان الجهاد كان يتحول إلى الصرامة ، وينتحل القسوة ؛ ولعل قائمة الأسرى الذين نفذ فيهم حكم الإعدام ، وخاصة من بين « الداوية » ترينا كيف تتغير النفوس وتتحول بفعل التمسك بالعقيدة ، ولكن الأمر لم يكن كذلك دائماً عند هذا السلطان السمح ؛ فقد روى التاريخ لنا كيف جىء بأسير إفرنجى يرتعد فرقاً ، فلما مثل بين يدى صلاح الدين لم يلبث أن صاح قائلا : « كنت أخاف قبل أن أرى هذا الوجه ، فبعد رؤيتى له وحضورى بين يديه أيقنت أنى ما أرى إلا الخير » فرقّ له ، وأطلق سراحه .

وإلى جانب هذه الأمثلة التى سجلتها هذه الصفحات عن حلمه ورقة قلبه يمكن إضافة أمثلة كثيرة أخر ؛ فهناك قصة مؤثرة عن المرأة التى جاءت من معسكر الصليبيين فى عكا تبحث عن طفلتها — وكان الجند العرب قد حملوا الطفلة معهم — فسمح لها الحرّاس بالمرور ،

وقادوها إلى السلطان ، فلاذت به تستنصره « لأنه رحيم جداً » كما يقولون ، فإذا بصلاح الدين يتأثر بآلام هذه المرأة ، وتترقرق الدموع فى عينيه ، ويأمر بتفتيش المعسكر وإعادة الطفلة سالمة إلى أمها ، وإبلاغهما إلى خطوط العدو .

* * *

كان حبه للأطفال جانباً جميلا من جوانب شخصيته ، وكان يعتبر كل طفل يتيم أمانة فى عنقه ، وكان مولعاً بأطفاله الصغار إلى حد بعيد .

وإذا كنا لم نقرأ شيئاً عن زوجاته فما ذلك إلا لأن الرجال الشرقيين لا يتحدثون عادة عن زوجاتهم . ولكن وردت إشارات كثيرة إلى سعادته بأولاده .

إن صلاح الدين لم يكن يسمح لأولاده الصغار بمشاهدة الأعمال الدموية ، وهـذا التحرز وإن كان طبيعياً فى زماننا هذا كان نادراً فى عصره . ولقد علل صلاح الدين طريقته هذه بقوله : لا أريد أن يعتادوا إراقة الدماء وهم صبية صغار ، أو أن يلتمسوا المتعة فى قتل النفوس فى الوقت الذى لا يعلمون فيه بعدُ الفرق بين المسلمين والكفار . وكان يلقنهم الدروس بنفسه ، وكان يجد متعة ربما فاقت متعتهم ، فى أن يركز فى عقولهم الناشئة بعض المعارف الدينية فيحفظوها عن ظهر قلب .

كان صلاح الدين نقيّ الإسلام ، خالص التقوى ، وكان دينه بالنسبة له كل دنياه ، ولم يتعصب لشىء سواه قط . والعمل القاسى الوحيد الذى ينسب إليه فى غير أوقات الحرب هو أمره بإعدام « السهروردى » الفيلسوف المتصوف ، بسبب خروجه على الدين ؛ فقد كان صلاح الدين يمقت الفلاسفة الانتقائيين Eclectic ، والماديين ، والمفكرين المتحررين حفاظاً على الدين ، وذياداً عن حماه من أن ينتهك حدوده أو تنتقص تعاليمه ، وكان إيمانه قوياً فى بساطة ووضوح ؛ فالإسلام فى جوهره ، وكما كان يؤمن به رجل مثل صلاح الدين ، إنما هو دين البساطة النبيلة والتضحية الجادة بالنفس .

وما أيسر القول بأنه كان حريصاً على أداء فروض الدين إلا فيما ندر ؛ حيث اضطرّ إلى الإفطار فى رمضانين أثناء الجهاد المتواصل ، وربما كان الصيام مسئولا عن التعجيل بنهايته ؛ فقد كان كثير المرض ، وكان الصيام خطراً عليه بسبب ما يتعرض له من إجهاد شاق . وقد حذره أطباؤه دون جدوى ، فضعفت بنيته نتيجة لإصراره على القيام بهذا الفرض الدينى وهو فى بيت المقدس فى السنة الأخيرة من حياته ، وأصبح أقل قدرة على مقاومة الحمى القاتلة .

لم يكن أحد أكثر منه محافظة على الصلوات الخمس ، ومثابرة على أداء صلاة الجمعة فى المسجد الجامع . وحتى فى أشد حالات العلة كان يستدعى الإمام ويقسر نفسه على الوقوف والقيام بفرائض الجمعة . وكان الاستماع إلى القرآن يتلى أمامه من قارئ حسن التلاوة يثلج صدره ، بل إن قلبه يذوب من الاستماع إليه ، ويتحدر الدمع على خديه . ومع هذا الضعف وهذه الرقة لا يسعك إلا أن تحبه لطبيعته العاطفية المرهفة ، فقد كان خاشع القلب رقيقه ، وكانت الدموع تسرع إلى مآقيه .

لقد كان يساوره الأسى لأنه لم يستطع أداء فريضة الحج ، ولكن عزاءه فى ذلك أنه كان يحسن إلى الحجاج ، وكان من أوائل أعماله عندما تسلم زمام الحكم أنه ألغى الضريبة الباهظة التى ظلت قروناً بأسرها تثقل كاهل الحجاج ، وكانت آخر مرة ظهر فيها للعامة حينما استقبل أفواج الحجيج العائدين من البيت الحرام ، وكم تألق وجهه وهو يتلقى تحياتهم ، ولم يكن قد بقى من حياته إلا أيام .

ولم يظهر صلاح الدين غيرته الدينية أكثر مما أظهرها فى ميادين « الجهاد » وهو أرفع مراتب الفروض الإسلامية وأخطرها شأناً . ومع أنه كان يبغض بطبعه إراقة الدماء حتى لكأنه لا يمتّ إلى الجندية بسبب ، فإنه كان يتحول إلى رجل آخر عند محاربة الكفار .

قال عنه بهاء الدين : « وما رأيته استكثر العدوّ أصلاً ولا استعظم أمرهم قط » .

وكان ينصت إلى الآراء العسكرية على اختلافها ، ويناقش نتائجها فى غير حدّة ولا غضب ، وكان من عادته – كما رأيناه كثيراً – أن يمرّ على جواده بين خطوط القتال لا يرافقه غير تابعه الخاص . وحدث مرة أن ظلّ على صهوة جواده فى مواجهة العدو وهو يستمع فى اطمئنان إلى حديث شريف يتلى عليه بصوت جهير ، ولا يحيط به إلا أركان حربه .

لقد كان يعشق الجهاد فى سبيل الله ، وكان منصرفاً بكل وجدانه إلى تلك الغاية التى كرّس لها حياته ، ولم يكن يعرض فى حديثه أو تفكيره لشىء سوى الجهاد حتى فى سنيه الأخيرة ، مضحياً فى سبيل ذلك بكل مباهج العيش والدعة والسعادة المنزلية . وكان لا ينفك يحلم بمزيد من المعارك الكبرى لإعلاء كلمة الدين ، ويصرح لأمين سرّه بأنه حين يتمّ له طرد الفرنجة من فلسطين سوف يطاردهم عبر البحر حتى لا يبقى على وجه الأرض من يكفر بالله .

وسأل صديقه مرة عن أشرف الميتتين فأجابه : « الموت فى سبيل الله » ؛ فقال صلاح الدين : « غاية ما فى الباب أن أموت أشرف الميتتين » .

وحين غلبته العلة الموجعة عندما كان يحاصر عكا إلى حد أنه لم يقوَ على الجلوس إلى المائدة ، كان يعتلى ظهر جواده طيلة يومه أمام العدوّ ، فإذا دهش القوم من صبره وقوة احتماله قال : « إن الآلام تفارقنى حين أكون على صهوة الفرس ، ولا تعود إلا حين أترجل » .

بذل صلاح الدين فى الجهاد كل شىء : قوته وصحته ، بل حياته ذاتها ؛ وأنفق ثروته كلها فى هذه السبيل . كان مجبولاً على العطاء فأعطى بكلتا راحتيه فى أريحية وسماحة لا حد لهما ، سواء أكان فقيراً أم غنيًّا . كان يقارن المال بالتراب ولذلك كان يكره أن يضنّ به على السائلين ، وإذا أعطى أجزل العطاء فى كل حين ، ولم يحدث قط أن قال : « قد زدت مراراً فكم أزيد » .

كان فريسة للسائلين الجشعين ، حتى إن بهاء الدين كان يخجل من سخف العرائض التى كانت تعرض عليه . ولو ترك صلاح الدين وشأنه ما استطاع أن يقوم بحملاته الحربية لنقص الموارد المالية ؛ فقد كانت القاعدة عنده أن يدفع مندوبوه ثمن المؤن التى يأخذونها من الشعب . وكان أصحاب بيت ماله يحتفظون دائماً فى السر ببقية من مال للطوارئ ، ومع ذلك فقد كان أيسر على صلاح الدين أن يبيع آخر ضيعة يملكها من أن يردّ سائلا فقيراً صفر اليدين .

وهكذا لم يكن فى خزائنه عند وفاته غير دينار صورى واحد من الذهب ، وسبعة وأربعين درهماً ناصرية من الفضة .

لم يترك من بعده داراً ولا متاعاً ولا ضياعاً ولا أى نوع من الممتلكات ؛ فقد مات هذا السلطان العظيم فقيراً يكاد يكون معدماً .

وإنه ليشقّ على المرء أن يتصور طبيعة أشدّ إيثاراً أو أكثر إخلاصاً للأهداف العليا أو أحبّ إلى قلوب الناس جميعاً ، ولكنه يسهل عليه أن يتصورها فى صلاح الدين .

ولو قدّر لصلاح الدين أن يكون ذا طبيعة أكثر صرامة ، وأكثر براعة ودربة فى الشئون الاقتصادية ، وأبعد نظراً كرجل سياسة أنانى فحسب لكان من المحتمل أن يؤسس إمبراطورية أبقى على الأيام وأشد تماسكاً ، ولكنه ما كان ليصبح صلاح الدين رمز الفروسية الكريمة .

الثورة الروسية

قصة أحداثها معتمدة على أصدق الأسانيد

بقلم ألان مورهيد

ترجمة الأستاذ عباس حافظ

(١)

هذه فصول من كتاب يصدر وشيكاً ، يروى فيها الكاتب ألان مورهيد لأكبر حدث سياسى فى العصر الحديث ، وهو قيام الثورة الروسية عام ١٩١٧ ، وهى الثورة التى لا تزال تسيطر على سير الأحداث الجارية ، والتى ظل الناس إلى يومنا هذا غير مدركيها على حقيقتها ، ولا يزالون فى أمرها مختلفين .

وقد جاء هذا المؤرخ القصاص يسرد على الناس قصتها ، مستنداً إلى الوثائق التى اكتشفت فى ملفات وزارة الخارجية الألمانية ، مستعيناً بطائفة من الباحثين ، وعلى رأسهم الدكتور إسطفان يوسوفى أستاذ مادة العلاقات الخارجية فى جامعة جورجتون بواشنطن .

وفى هذه الفصول يصف لنا الكاتب بوادر تلك الثورة ومهيئاتها ، ويعود بنا إلى التجربة الأولى التى جرت فى عام ١٩٠٥ وحركات البولشفيك خلال الحرب العالمية الأولى ، ويشرح لنا كيف دالت الدولة القيصرية ، وعودة لينين ، وأحداث عام ١٩١٧ وقيام الاتحاد السوفيتى .

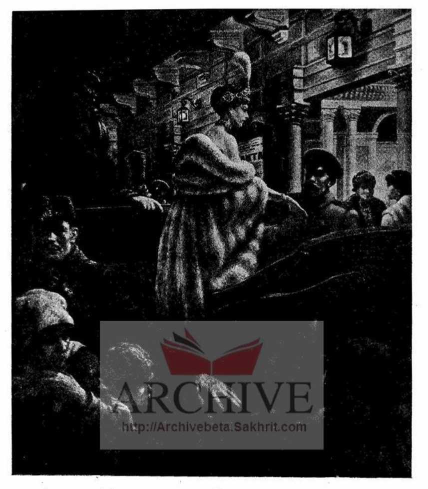
قبيل مغيب الشمس عن دولة القياصرة

سلطان مستبد خائر يكبت شعباً قلقاً حروناً

يقال إن شهرى سبتمبر وأكتوبر هما أسوأ أشهر السنة فى لننجراد ؛ إذ تهبُّ عليها خلالهما ريح رطبة عاتية من جهة خليج فنلندة ، ويظل فيهما الضباب والمطر متعاقبين عدة أيام متوالية، مرهقة ، وتلبث الأوحال ومياه الأمطار غامرة الأرض فى كل ناحية ، ويبادر الظلام الأصائل الشهب ، وتستمر الليالى المقرورة إلى العاشرة من الصبح .

ولكنّ شيئاً عجيباً كل العجب يحدث على مقدم شهر نوفبر ؛ إذ يبدأ الجليد فيه يشتدُّ ، ويتكاثف ، ويلحُّ ؛ حتى ليحجب عن عينيك مشهد الأشياء على قيد خطوات منك ، وأحياناً فى بعض الليالى يجعل المدينة كلها تستحيل خلقًا آخر ، ويبدل مظهرها تبديلا ، فتختفى الأوحال ، وتتراءى المنائر الوهاجة والقباب الزاهية الألوان ، قوائمَ وسط بياض غامر يخطف الأبصار ، وكأن نوعاً من الفرح يعمُّ الفضاء ، وتهبط درجة الحرارة إلى ما دون « الصفر » ، ولكن الناس لا يلبثون فى ذلك الجو الجاف السنىّ المتلألئ أن يتخلصوا أخيراً من وعكات السعال ونزلات البرد ، ويعاود وجوههم الابتسام ، وتتهلل منهم الأسارير .

وقد جرت التقاليد على أن يكون ذلك الموسم إيذاناً لسائقى المركبات « الدروشكا » بأن تستبدل بدواليبها المزالق السارية فوق الجليد ، وينطلق « الحوذية » ، وقد تجمدت منهم اللِّحَى من شدة البرد، بخيلهم على طول الطريق إلى الميناء بسرعة بالغة ، ويبدأ العمال على نهر « النيفا » يمدُّون خطوط « ترام » فوق أمواهه المتجمدة ،



كان كل شيء فى خريف عام ١٩١٦ يبدو فى بطرغراد كأن الحرب العظمى لم تحدث فيها أثراً، وهذه صورة سيدة حسناء فى فروها الجميل حالية بالزمرد وهى تنزل من المركبة أمام مسرح مارينسكى

للانتقال عليها إلى الجزر المتناثرة فى نواحيه ، وإلى ضفة « فيبورج » المقابلة .

وقد يتيسر للخاطر أن يتخيل هذا المشهد كما كان منذ قرابة أربعين عاماً ، حين كانت لننجراد لا تزال تدعى « بطرغراد » ، وهى يومئذ المدينة العاصمة ، يتجاوز عدد سكانها المليونين ، وكانت إلى شهر أغسطس عام ١٩١٤ تعرف بسان بطرسبورج ، ولكن تغير اسمها فى بداية الحرب مع ألمانيا فدعيت عندئذ « بطرغراد » ، وهو الاسم الذى سنطلقه عليها فى هذه الفصول .

وكان القيصر لا يزال فى شتاء عام ١٩١٦ مقيماً فى قصره ، وما برح الوجوه والسروات أو أهل الطبقة الأرستقراطية المعروفون فى أغلب العواصم الأوروبية يحومون حول السفارات الأجنبية والنادى الإنجليزى والكنائس والأوبرا ؛ فإن انقضاء عامين أو أكثر قليلا فى دنيا الحرب لم يحدث يومئذ أثراً إلا على السطوح ، أو على الأقل فى الظاهر ، فأصبحت صفوف المنتظرين أدوارهم على أبواب المطاعم ومتاجر الأغذية أطول مما كانت وأكثر تردداً ، وبدا شىء من القلق لكثرة عدد الوقفات

فى الشوارع من شدة الزحام ، واضطراب حركة المرور ، ولكن مركبات « الترولى » ظلت سائرة فى أرجاء المدينة ، وازدادت الحركة فى ردهات دار « الأميرالية » الكثيرة الزخارف ، واشتد النشاط فى « قصر الشتاء » ، ولبثت المسارح تفتح فى كل ليلة حتى أيام الآحاد .

واعتادت كارسافينا راقصة الباليه الأولى فى رواية تشيكوفسكى — « بحيرة البجع » — الظهور على مسرح « مارينسكى » على حين كان المغنى العظيم « شاليابين » يعمل فوق مسرح « نارودنى دوم » ، وظلت سوق الأوراق المالية هادئة ، ولم تكن الحرب لتحول بين دوق كبير ، أو سفير ، وبين معاودة إقامة حفلات استقبال باهرة كدأبهما قبل الحرب ، ولم يكن ثمة معهد ولا دار ولا مبنى أصيب بالقنابل ، أو دمرته القذائف ، بل لبثت المدينة ، إذا استثنينا الجليد ، وضخامة بعض الأبنية ، تبدو كأنها بعض المدائن الإيطالية الجميلة ، حتى لتذكر السائح أحياناً بمدينة « البندقية » .

كذلك كانت يومئذ دنيا السادات والخاصة والحكم المستقر ، كأنه من الروعة والبهاء ، كتاب حافل بالرسوم ، ملىء بالصور ، لا يزال يبدو لنا مألوفاً إلى حد ما ، بالرغم من كل الفورات والانتفاضات التى كانت تحدث خلال نصف قرن أو قرابته ؛ حتى ليسهل على المرء أن يتبين خلقاً كثيراً من أصحاب ذلك العهد وأناسيه ، ويعرف الأدوار المختلفة التى يضطلعون بها ، من حارس الباب الواقف أمام القصر المنيف فى سترته السوداء المرقشة وقبعته العسكرية ، إلى الغراندوق بأوسمته و « نياشينه » و « القوزاقى » المنحنى من فوق جواده ، والدوقة فى ثوبها الحريرى الأبيض ، وشعرها المصفوف كعش الطير ، وخصرها الهضيم ، وصدرها العارى ، إلى الأستاذ فى الجامعة ، والقس الأورثوذكسى فى قلنسوته الشبيهة بقطاع المدخنة ، وعصاه المستطيلة ، كأنه نبى من الأنبيـــاء . ومن خلف هذه الشخوص يتراءى أبداً للعين : المسرح ، والمرقص ذو الأعمدة الباذخة ، والمقاصير القوائم فى الأوپرا ، والنسر الروسى فوق الشعار القيصرى ، والقباب الصفر المرتفعة فوق الكنائس الذاهبة فى سماء شاحبة ، وركام الجليد ، وكثائف الثلوج ، والبرارى المترامية ، والخط الحديدى الممتد إلى أصقاع سيبيريا ومجاهلها .

كل ذلك قد يبدو لك تلخيصاً روائياً تافهاً لقصة روسيا القيصرية ، ولكن الواقع أنه لا يزال ماثلا فى الذاكرة ، وكثيراً ما يلوح أولئك الناس ، فى ذلك الأفق المحيط بهم ، أقل عجباً فى أعيننا بكثير من حديث القوميسيرين ، واللجان ، والمصانع ، ومشروعات القوى المائية ، وملايين « الكادحين » فى روسيا الحديثة .

ولعل مرجع ذلك إلى تلك الصورة الباهرة التى رسمها القصاصون الروس فى القرن التاسع عشر لعهد القياصرة وبقائها حية بارزة المعالم فى ذاكرتنا ، أو لعله راجع إلى السرعة المباغتة والشمول اللذين اقترنا بزوال تلك الدنيا وتلاشيها ، ولكن تلك الدنيا كانت على كل حال قائمة فى الأيام الأخيرة من عام ١٩١٦ ؛ حتى لم يكن الزائر العابر ليتبين حين يلم على « بطرغراد » ، أو يدور لحظة بخلده أن القيصر وبلاطه ، وذلك البناء الشامخ الباذخ الذى تقوم عليه حياة الإقطاع ، والذى شيد صرحه الأشم قياصرة الروس منذ آلاف السنين ، يوشك أن يتوارى إلى الأبد ! . . .

حيرة مستيئسة

ولسنا ننكر أن الحكومة واجهت أزمة فى شهر ديسمبر عام ١٩١٦ ، وأن جهاز الدولة كله والجيش كانا يومئذ فى حيرة مستيئسة ، وارتباك بالغ ، لا يبدو فى الأفق مخرج منه ، حتى أصبح حديث الناس فى كل مكان ، ولكن الواقع أنه لم يكن ثمة أحد — حتى الزعماء الثوريين والقيصر ذاته بغير شك — يدرك كل الإدراك ، حقيقة



وكان الجيش مفتقراً إلى الوسائل الصالحة لنقل الجنود إلى الميدان فاضطروا إلى استخدام مركبات نقل من كل نوع ، وكانت هذه الظاهرة عائقاً كبيراً فى سير القتال

الموقف فى ذلك الحين ومدى احتمال انفجاره . ومن الجائز أن بعض النـــاس كان يتوقع حدوث ثورة ، ويعتقد أن لا مفرّ من وقوع انقلاب ، ولكن لم يكن أحد ينتظر أن تحدث تلك الثورة التى كانت موشكة أن تحدث .

وكانت الحرب قد استنفدت قوى الجيش القيصرى ، فقد دعى إلى صفوفه نحو خمسة عشر مليوناً من الأجناد ، وأرسل فريق كبير منهم إلى الخنادق ، غير مجهزين بالأكسية اللازمة ، والأحذية الصالحة ، وفى بعض الأحيان بلا بنادق ، ولم يحص عدد الموتى فى يوم من الأيام الإحصاء الصحيح . ولعلك مستطيع أن تتصور ضخامته من كلمة كتبها فون هند برج القائد الألمانى ، عقب انتهاء الحرب ، وفيها يقول : « فى دفتر الحرب وحساب الأصول فيها والخصوم لم يكن لخسائر الروس حساب ؛ كأن صفحتهم ممزقة منزوعة منه ، فلا يعرف أحد رقم القتلى والجرحى والأسرى أخمسة ملايين هو أم ثمانية ؟ ونحن أيضاً ليست لدينا فكرة عنه . . . فليحاول الخيال إعادة تقديره . . . ولكن حسابه الصحيح سيبقى مجهولا إلى الأبد » .

وكان قد عرا القتال فى تلك الأيام ركود غمر الهدوء فيه المعركة المستطيلة الممتدة ثمانمائة ميل من بحر البلطيق إلى البحر الأسود ، ولكن ذلك التذبيح الذى تجاوز حدود العقل ترك عدة ألوية من الجيش الروسى بلا أمل فى النجاة ، ولا قوة على استعادة الموقف ، والتماثل من الصدمة ؛ فلا عجب إذا بدأ الجنود يلجئون يومئذ إلى الفرار ؛ فلم تأت نهاية عام ١٩١٦ حتى كان مئات الألوف قد تركوا مواقعهم من خط القتال ، وأخذوا طريقهم عائدين إلى مواطنهم فى داخل روسيا .

وكان أكثر أولئك الجنود من الفلاحين الذين لا يقدّر دخل الفرد منهم ، حتى فى الأوقات العادية ، بأكثر من مائة وخمسين دولاراً أو نحوها فى السنة ، وكانت العادة عندهم أن تعيش الأسرة كلها فى غرفة واحدة ، جوف كوخ مسقوف بالقش ، غير مكسوّ الأرض بالبلاط ، ولا منفذ فيه إلا كوّة فى السقف ليخرج منها الدخان عند طهو الطعام على النار ، وتبيت البهائم فى الكوخ مع أهله ، وربما لا يختلف طعامهم عن الخبز والخضر عادة ، إلا مرة أو مرتين فى العام ، فيجمع إليهما اللحم كذلك ! ولكن المرجح أن هذه الحال كانت أخفّ رحمة من ذلك المصير الذى كان قد بدأ يواجه العمال فى المدينة : فمنذ عام ١٩١٤ ارتفعت الأجور إلى الضعف ، ولكن أسعار الحاجات أصبحت فى تلك الفترة ذاتها أربعة أمثال ما كانت عليه ، ولم يعد يتيسر للناس شراء

شيء من الأسواق وحوانيت الأغذية ، إلا النزر القليل .

وجاء شتاء عام ١٩١٦ — ١٩١٧ خاصة قاسياً زمهريراً ، حتى لقد حدث فى وقت ما أن عُطب ألف وماتتا قاطرة ، وانقطعت عن المسير لانفجار مراجلها من تجمُّد الأنابيب ، وهو عامل ساعد على استفحال الفوضى العامة بسبيل نقل الأغذية وتوزيعها ، فكان الناس فى بطرغراد وموسكو يقفون صفوفاً متراصة أمام المخابز طيلة الليل المقرور ، ولم يكن عجباً فى تلك الأيام ، وبعد عامين كاملين من الهدوء النسبى فى ميادين الصناعة أن يعود العمال إلى الإضراب ؛ فقد هرأهم البرد — لاستحكام أزمة الوقود طبعاً — ونُهِكت قواهم من الإلحاح عليهم فى العمل ؛ إذ كانت ساعات الشغل عشراً فى اليوم عادة ؛ وعضَّهم الجوع ، وبلغ البؤس منهم كل مبلغ .

وأما المتعلمون والموظفون والتجار وأرباب الحوانيت والساسة والنبلاء فقد ظلوا فى عام ١٩١٦ من هذه الشدائد بمنجاة ، وإن كانوا مع ذلك قد وصلوا إلى حدٍّ من التبرم والضيق والمرارة كان ممكناً أن يصبح من عهد طويل محسوساً ظاهر الأثر لو أنه حدث فى بلد آخر .

وفى مجلس « الدوما » — أو البرلمان الروسى — انبرى فريق من أكبر النواب مكانة ، يلقون فى تلك الأيام خطباً كانت أقرب إلى « الخيانة » من أى كلام طرق الأسماع من قبل ، ومع ذلك كان كل إنسان يعرف أن « الدوما » لم يكن فى الواقع سوى « مهزلة » ، فلا يملك من السلطات التشريعية شيئاً ذا خطر ، بل كان « دكان كلام » صاحب كثير الجلبة ، وفى إمكان القيصر أن يحلَّه فى أى وقتٍ يشاء ، بل لقد حلَّه فعلا فيما مضى ، وكانت على البلاد وزارة كان مفروضاً أن تتولى إدارة شئونها إذا غاب القيصر أو تولى إلى الجبهة مع الجيش ، ولكنها لم تكن تملك إشرافاً حقيقيًّا ، ولا تضطلع بتبعات .

وكان قد عين على رياسة الوزارة رجل يدعى تريبوف ، من المحافظين العاديين ، ولم يكن أحد من الناس يعتقد — بل كان هو أقلهم اعتقاداً — أنه سوف يبقى طويلا فى هذا المنصب ؛ فإن السلطة الفعلية كانت تتوسد موضعاً واحداً ، وهو قصر « زارسكوى سيلو » ، الذي يبعد خمسة عشر ميلا من حدود بطرغراد ، حيث تقيم القيصرة ، ومن خلفها تلك الشخصية « الوجودية » ، التى تسيطر عليها ، وعلى القيصر من طريقها . . . . شخصية راسبوتين ! .

وكان المقت الذى يحيط بتلك الأميرة الألمانية المولد المتدينة ، وبذلك الراهب البشع ، قد أصبح نوعًا من « الهستيريا » المتوطنة فى « بطرغراد » ، وأسى مستولياً على الطبقة الأرستقراطية بالقدر البالغ الذى كان له فى نفوس الناس جميعاً ، وكان الناس فى المجامع يشيرون إلى القيصرة بقولهم « الألمانية » ، وقد دبِّرت يومئذ مؤامرة لقتلها .

أما راسبوتين فقد كان أصرح الساسة وأجهر النبلاء بالقول يعزُّ عليهم اختيار الألفاظ الكافية للتعبير عن كراهيتهم له ، وتبرُّمهم به ، واحتقارهم إياه احتقاراً ممتزجاً إلى حد بالغ بالخوف ، ولكنه لبث محتمياً بالقصر يتابع سبيله فى سكينة ، ويمضى فى وجهه بهدوء ، فيفصل الوزراء الذين لا يروقونه ، ويلقى كلمة فى أذن القيصر بسبيل إدارة دفة الحرب ، ويستخدم قواه المغناطيسية المنوِّمة لتحريك القيصرة المخبولة المخرِّفة النزَّاعة إلى الخزعبلات حتى لا تكاد تدرى ما هى فاعلة .

وكانت الحرب قد أجهدت الحكم القيصرى إلى حد مخيف ، ولم يكن القيصر نيقولا الثانى من جبلَّة بطرس الأكبر حتى يستطيع أن يعيد الأمر إلى نصابه ، ويصلح منه ما فسد ، وكان السباق قائماً بين الحرب متى تنتهى ، وبين الثورة متى تبتدئ ، وأيهما سوف يكون أسبق من الآخر ، وإن كان من الصعب فى الوقت ذاته أن يعرف المرء من أين يمكن أن تنبعث الثورة ، وكان من الجائز أن تقوم من جانب البلاط ، بحدوث انقلاب يعمد

النبلاء فيه إلى إسقاط القيصر وإقامة أمير آخر مكانه ، ولكن لم يكن أحد فى بطرغراد ، أو بين قواد الجيش ، يبدو جديراً بأن يكون زعيماً للثورة المنشودة ، كما كان يسود صفوف الأحرار والطبقة الأرستقراطية خوف غريزى مما قد يحدث إذا دكّ العرش دكًّا ، واتبعت الجماهير الجاهلة ، التى كانت تدعى عندهم « الجماهير العائشة فى الظلمات » سبيلهم ، فأحدثت ثورة فى الشوارع ، ونزعت إلى التمرد فى المدينة ؛ إذ قد يحدث عندئذ ما لا تحمد عقباه ، وكل شيء يومئذ جائز ، فلن يلبثوا جميعاً ، سواء منهم النبلاء وأصحاب المتاجر ، أن تكتسحهم الثورة اكتساحا .

أما الأحزاب اليسارية الثورية — أو معاشر الذين يرتضون الثورة بأى ثمن — فقد عدّت الحرب عليهم أيضاً فأوهنت من قواهم ، وجعلتهم يلوذون بالمكامن ، وكان أكثر الزعماء منفيين فى الخارج أو فى مجاهل سيبيريا ، وكان « لينين » يقيم فى سويسرا ، و«تروتسكى» فى طريقه إلى نيويورك ، و « بليخانوف » ، و«أكسلرود» و « مارتوف » ، و «دان » ، وكثير غيرهم مشتتين فى مختلف ربوع أوروبا وأقطارها ، وكان أغلبهم مختلفين فيما بينهم مشتجرين متنابذين ، ولم يكن أحد منهم يفكر فى الأوبة إلى روسيا أو يخطر بباله أن الثورة على الأبواب .

لقد كان المشهد كله فى تلك الفترة يغمره جمود غريب ، وإنه لمن العجب العاجب أن تنبرى الثورة الروسية وهى أخطر حدث سياسى فى العصر الحديث ، بل الحدث الذى غير معالم حياتنا أكثر من أي شيء سواه ، فتدخل فى التاريخ بتلك الفجأة الغريبة وذلك الانطلاق على صفحة اليمّ بغير دفة ولا هادٍ يهدى إلى السبيل .

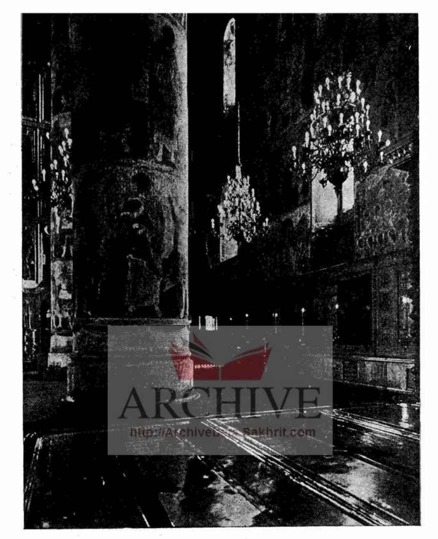
وكان السواد الأعظم من الروس ، فى الأيام الأخيرة من شهر ديسمبر عام ١٩١٦ بالرغم عن كل تلك الكوارث التى خاضوها ، والشدائد التى ابتلوا بها ، لا يزالون يتطلعون إلى القيصر ، أو على الأقل إلى فكرتهم عنه ، كأنه هو مصدر السلطان الأوحد ، فى الخير والشر على السواء ، بل ما فتئ فى أعينهم الرمز الذى يمسك بكيان الدولة ويشد بنيانها ، وبدا لخلق كثير منهم أنه لا يزال القادر على إخراجهم من تلك الفوضى التى ضلُّوا فيها طريقهم ، وكان من وجوه الشذوذ فى التاريخ أن نيقولا نفسه كان يشعر بذلك أيضاً .

أسطورة أكثر منه بشراً

وقد رأينا المؤرخين الروس منذ تولى السوفيت الحكم فى روسيا يتجاهلون نيقولا كل التجاهل ، أو يعدُّونه شبحاً فى بعض خرافات الأقدمين ، أو أسطورة أكثر منه إنساناً حقيقيًّا ، وإن كان عندهم فى الجملة شيئاً لا وزن له ولا حساب ، ولكن الحقيقة أنه كان فى عام ١٩١٦ شيئاً مذكورًا ، وله اعتبار بالغ ، ووزن كبير ، فقد كان يمثل أكثر من سواه النظام الذى تمرّد الثائرون عليه ، ولا يزال لأطوار طبيعته ومعالم خليقته شأن خطير فى القصة .

إن المرء ليعجب له ويتساءل خاصة : ما الذى دعاه إلى سلوك ذلك السبيل الذى سلكه فى تلك الأزمة ؟ وكيف كان هو وحده ، دون سواه من الذين سوف يعدُّون فى مصافّ الشهداء الأبرار فى هذا العالم ، الذى أعطى مثل تلك السلطة فى مثل تلك الفترة الخطيرة فى حياة روسيا ؟ فإن الثورة راحت تمرُّ به سارية ، كأنها حادث عارض لا يكاد يفطن إليه ، فلم يكن بالرغم عن وقدة ذكائه ، وطول خبرته ، يشعر فى أية مرحلة من المراحل التى كانت تسبق مهابّ الثورة على قدر ، ولا فى لحظة انبثاقها ، بما كان يحدث حوله ؛ حتى لقد ترك المأساة فى النهاية كما دخلها فى بدايتها ، ولبث وسط الهول والمفازع والعنف خالى الذهن ، جامداً ساكن الأوصال ، لا يدرى مما حوله شيئا .

هذا لغز لا سبيل إلى الكشف عنه بغير الرجوع



منظر كتدرائية أومينسكي فى موسكو التى كان القياصرة يتوجون فيها ، حتى بعد انتقال العاصمة إلى بطرغراد ،
كما كانت مدفناً للبطاركة الروس ، ويبدو ذلك فى الجزء الأمامى فى الصورة ، وكانت الجدران مزدانة برسوم من الإنجيل وتاريخ روسيا القيصرية

إلى نشأة أسلافه فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر .

ومن العسير حتى فى أيامنا هذه ، التى ألف الناس فيها قيام الطغاة والعصابات الحاكمة ، أن يدرك المرء كل الإدراك إلى أى حد كانت سلطة القياصرة مطلقة فى ذلك العهد الذى ولد فيه نيقولا عام ١٨٦٨ ؛ فقد كان القيصر يتولى مكانه كرئيس للدولة بتلك السهولة الطبيعية التى يتخذ عميد الأسرة موضعه منها ، ويتولى تبعاته عنها ، وكانت فكرة الحق المقدس للملوك تراثاً باقياً من القرون الوسطى ، بل أكثر من التراث شأناً ؛ فقد كان إيماناً قويًّا ، وعقيدة قائمة يؤمن الناس بها كافة ، لا الأسرة المالكة وحدها ، ويعتنقونها أصدق الاعتناق ، وكان لها عند جمهرة الشعب الروسى القائم خارج البلاط من المكانة الثابتة ، والسلطان المطلق ، ما كان للبيان

الشيوعى — المانيفستو — ورسالة لينين فى نفوس البلاشفة، حين أقبلت الدنيا عليهم .

وكانت التقاليد التترية العنيفة لا تزال فى عام ١٨٦٠ باقية على قوتها البالغة ، وسلطانها الثابت ، وطبيعة الشعب الروسى نفسه ، وما عُرف عن فلاحيه من البلادة والكسل ، وعن أعيانه ونبلائه من الخلاء من الثقافة ، وهى التى استوجبت أن يقوم فى البلاد حاكم تتركز السلطات فيه ، واقتضت أن يحكم بالقوة ؛ ومن الجائز بالطبع أن يقال : إن هذا التخلف كان قد فُرض على الشعب فرضاً ، وأكره عليه إكراهاً ، وإن طغيان القياصرة هو الذى أحال سواده الأعظم شعباً من العبيد الأرقاء ؛ ولكن الواقع أن تلك الدولة كانت دولة سلب ونهب ، يحكمها القيصر وفئة صغيرة من النبلاء والموظفين لمصلحتهم وحدهم ، وكسبهم ومنافعهم خاصة ، وما كان الفلاح إلا عبداً كل ما يتمناه على الله أن يعجل بمماته ، ويتوفاه بسلام ، أو يبقى حياً ، ولكن بأقل قدر ممكن من العمل ، والضرائب ، والسغب ، والأذى .

وكانت الطبقة الحاكمة هى وحدها التى تملك كل الثروة ، وتستمتع بكل الامتيازات ، وتستأثر بكل السلطة السياسية ، ولا تريد أن تنزل عن شىء من تلك المزايا جميعاً ، وتعد معاشر الفلاحين وهم الذين يؤلفون خمسة وتسعين فى المائة من السكان كالبُهْم والأنعام ، ولا تثق بتحميلهم أقل قدر من التبعات .

وحين خرج نيقولا إلى هذه الدنيا كان قد انفرط أكثر من قرن على قيام حكم بطرس الأكبر الذى أنشأ الدولة الروسية ، كأنها ملكه الخاص ، أو كضيعة فى الريف ورثها عن آل رومانوف ، أو قل مجرد مدرسة للبنين المتخلفين من الناحية العقلية . ومن تحت القيصر قامت ثلاث هيئات كبيرة : البيرقراطية — أو جماعة الموظفين ، والجيش ، والمجمع المقدس « السنود » .

وكان الأفراد الذين تنتظمهم تلك الهيئات خاضعين لنظام محكم كالنمل فى قراها : فكان الموظف منهم ، عاماً بعد آخر ، وتبعاً لمدى مقدرته ، وشخصيته ، وحظه ، يصعد درجات الوظائف وهى أربع عشرة درجة، لكل منها شعار خاص وامتيازات ورواتب ؛ حتى يبلغ سن التقاعد ، فيتقاضى فى النهاية معاشه .

وكانت خدمة الحكومة تشمل خلقاً كثيراً من الناس ؛ حتى ليبلغ عدد الموظفين فى الدولة عشرة فى المائة من الذكور فى الدولة كلها ، أما الفلاحون فكان الحكم فيهم للشرطة ، وكان هؤلاء مسئولين أمام كبار الموظفين فى الأقاليم ، وهؤلاء بدورهم كانوا مسئولين أمام حكامها المحليين ، الذين يتولى وزير الداخلية الإشراف عليهم ، وهو مسئول أمام القيصر ، وليس القيصر مسئولا أمام أحد إلا الواحد القهار .

ولم تكن هناك انتخابات ، ولا مجالس نيابى ، بل كانت كل السلطة « تترشح » وتنبعث فى القيصر وحده . وكان له مجلس وزراء يطلب عنده الرأى ، ويسأل المشورة ، ولكن أولئك الوزراء جميعاً كانوا طوع يمينه ، وهو الذى عينهم بنفسه ، وهو الذى يبقيهم فى مناصبهم إذا شاء ، ويمسكهم حين يرضى ، وإن كان رضاه أحياناً مرهوناً بالهوى ، قصير الأمد ، غير متراخى المدى ، ولم يكن ثمة شىء من حرية القول بل كان كل كل كتاب أو مجلة أو صحيفة تعرض على الرقابة قبل نشرها .

كان ذلك كله — أو على الأقل من ناحية خطوطه العريضة — قائماً سائداً إلى العهد الذى وُلد فيه نيقولا ، بكل ما كان مقترناً به حتماً من السخط والتبرم ، وما أعقبهما فى النهاية من غضب الشعب ونفوره من هذا الأسلوب فى حكمه . وهنا أيضاً يكاد يصعب على المرء الذى نشأ فى ظل حكومة ديمقراطية أن يدرك كل الإدراك مدى اللهفة الحرى التى كانت تسود أرجاء روسيا فى القرن التاسع عشر على قيام انتخاب ، ومجلس نيابى له حرية القول وبعض السلطة على الأقل فى سن التشريعات



مشهد من الحياة فى الريف يوحى بأن الفلاح الروسى لم يكن يملك سوى وسائل بدائية فى حرث أرضه ويعيش فى كوخ حقير

وإقرارها ؛ فقد كانت تلك هى الفكرة التى لبثت قائمة مخامرة النفوس ، متغلبة على كل ما عداها ، والشعار الذى اتخذته الأحزاب الثورية كلها ، سواء منها أحزاب اليمين ، واليسار ، والوسط .

والواقع أن الثورة الروسية فى جوهرها هى قصة الحياة والموت ، والصراع المستمر على تحقيق هذه الفكرة ، فكرة قيام هيئة نيابية فى البلاد .

وكان موقف القياصرة منها بسيطاً جداً ، وهو أن روسيا ليست أوروبا الغربية ، وأنها لم تتهيأ بعد للديمقراطية ، وأنك إذا أرخيت حبل الرقابة وشيكاً فقد تثور الملايين الجاهلة عليك فتكتسحك اكتساحاً ، فلا تكون العاقبة غير الوبال والفوضى ! .

وكان ثمة شىء يسير من إرخاء الحبل إلى حين فى عهد جدّ نيقولا ، ونعنى به إسكندر الثانى ؛ فقد رغب فى التقدم ولو على الأقل بضع خطوات فى سبيل الإصلاح ؛ إذ عمد فى عام ١٨٦١ ، بالرغم من معارضة شديدة من جانب أصحاب الأراضى والموظفين ورجال البلاط ، إلى تحرير عبيد الأرض ، ولكن تبين من مجرى الأحداث أن هذا التحرير الذى أراده لم يكن سوى « عبودية » من نوع جديد ! ووجد الفلاحون أنفسهم أسوأ حالاً مما كانوا من قبل وأبأس عيشاً ، وإنْ ظلّ هذا التحرير بداية خطيرة الشأن واسعة المدى ، كما لا يفوتنا أن إسكندر لم يكن هنا متخلفاً عن العصر الذى كان يعيش فيه ؛ فإن الرقّ لم يكن مقصوراً يومئذ على روسيا وحدها ، بل كان عام ١٨٦١ هو العام الذى بدأت فيه الحرب الأهلية فى أمريكا بسبيل تحرير العبيد .

وكانت وجوه الإصلاح الكبيرة الأخرى التى اضطلع بها إسكندر الثانى هى إنشاء مجالس « الزمستفو » أو المجالس الإقليمية التى كفلت نوعاً من الحكم الذاتى فى الريف ، وإصلاح النظامين القضائى ، والعسكرى ، العتيقين فى البلاد .

وكان ذلك فى جملته ، تقدماً خطيراً فى طريق الحرية ، وإن جعل القيصر فى الوقت ذاته على حذر منه وتوجس المتوجسين ، ولم تسئ الجماهير « العائشة فى الظلمات » كثيراً استغلال هذه المنح الجديدة على علاّتها ، ولكن ظل الأمن الداخلى الصحيح غير موفور ولا مستقر ، وما برحت انتفاضات الفلاحين تعاود الظهور كما كانت من عشرات السنين ، وما انفكت الجامعات تتحدث عن الثورة ، والتمرد والعصيان ، وتعددت المحاولات لاغتيـــال القيصر والخلاص من سلطانه ، وهى محاولات انبعثت فى هذه المرة ، من اليمين لا من اليسار ، ومن جانب المستنيرين والأحرار لا من جانب الفلاحين والعاملين فى الأرض ؛ حتى ليكاد المرء يرثى لإسكندر الثانى حين راح يصيح قائلا : « ما الذى ينكره علىّ أولئك المناكيد ؟ وما الذى يدعوهم إلى مطاردتى كما يطاردون وحشاً ضارياً ؟ » .

ولبث إسكندر بعد ذلك خمسة عشر عاماً متوالية — من ١٨٦٤ إلى ١٨٧٩ — لا يحاول مرة أخرى التخفيف

من سلطانه القديم ، وإن راح فى نهاية عام ١٨٨٠ يتحفز من جديد ؛ فقد أعد مشروعاً يرمى إلى وضع دستور بأمر منه ، ولم يبق بعد توقيعه غير إصداره ونشره على الناس ، حتى كان الثالث عشر من شهر مارس عام ١٨٨١ ، فإذا بكل تلك المشروعات والخطط وغيرها تنتهى نهاية فجائية موحشة .

فقد كان إسكندر فى عصر ذلك اليوم عائداً فى مركبة إلى « قصر الشتاء » من الطريق القائم على ضفاف « ترعة كاترين » فى بطرغراد ، فإذا بشاب يدعى ريساكوف يلقى قنبلة عليه ، فلم تصبه ، ولكنها أصابت نفراً من رجال حرسه « القوزاق » بجراحات ، فنزل القيصر من المركبة ليتحدث إلى المصابين ، وإذا بفتى آخر فى الخامسة والعشرين ، وهو طالب بولندى يدعى « أجناس كرينفسكى » يلقى عليه قنبلة أخرى ، وإذا بها تستقر بين قدميه وتصيبه إصابة مروعة ، فاحتملوه وهو مغشى عليه إلى القصر حيث فاضت روحه .

وهنا جرى مشهد من تلك المشاهد الروسية الرهيبة التى تذكرنا بما ورد فى قصص تولستوى ، مشهد الميت المسجى ، فى القاعة الباهرة الزخارف ، الشديدة الزحام ، المملوءة « بالأيقونات » وأهل الميت وهم متقاطرون لتحية الوداع الأليم للجريح المشرف على الموت .

وكان نيقولا قد بلغ يومئذ الثانية عشرة من العمر ، فدخل مع الداخلين ، فى ثوب أزرق ، من ثياب البحارة ، مع أبيه الذى سوف يصبح القيصر إسكندر الثالث ، وأمه الدانمركية الأصل ، ماريا فيودوروفنا ، وقد جاءت تهرع من حديقة القصر على النبأ ، ولا تزال ممسكة فى يدها « بالقبقاب » الذي تتزلق به على أديم الجليد .

جاءت الأميرة « زورزفسكا » التى كانت على الأرجح تحب القيصر أكثر من أى إنسان سواها ، وكانت عشيقته عدة سنين ، قبل أن يتخذها زوجاً من تسعة أشهر فقط قبل ذلك الحادث ، فألقت بنفسها على سريره ، وهى فى أشد الحزن ، وأبلغ الأسى ، حتى تلطخ ثوبها بدمه .

ولبث القساوسة والأطباء ثلاثة أرباع الساعة قياماً حول فراشه ، ولكن حم القضاء ، ووافى الأجل ، وكان تسعة من أفراد أسرة رومانوف ، حاضرى ذلك المشهد ، ومن بينهم نيقولا الصغير نفسه ، وكان مقدراً لهم أن يموتوا تلك الميتة ، ولم تدعهم الأحداث عبر السنين الطوال التى تلتها ينسون مشهدها يوماً من الأيام . وإن المرء لا يكاد يعجب لنيقولا الصغير ، إذ راح وشيكاً ينقلب مؤمناً بالقدر ، ولا يدهش له حين مضى على الأيام يتزع إلى الشعور الغريزى بالعزلة والشك والسكون إلى الهواجس ، حتى لقد قال يوماً : « لست موفقاً فيما أحاول ، أنا عاثر الجد ! »

وكانت لمصرع إسكندر الثانى أهمية أخرى ، بجانب تأثيرها السيئ فى نفسية نيقولا ومنازعه ، فقد كان بلا شك أحد المعالم البارزة فى تاريخ روسيا ، ولكنه قضى يومئذ على كل محاولة أو تفكير فى إحداث إصلاح اجتماعى فى البلاد .

وكان إسكندر الثالث ، والد نيقولا ، مثال الرجل الذى يحسن الانتفاع بالردة التى عرت حركة الأحرار عقب مصرع القيصر الذى كان من قبله .

لقد بدا قيصراً ، وانثنى يسلك مسلك القياصرة ، وقد أوتى بسطة فى الجسم ، ولحية مستطيلة ، واعتداداً بنفسه ، كما وهب الله له شدة أسر ، وقوة بدنية خارقة للمألوف ؛ حتى لقد قيل : إنه القادر على الإمساك بحدوة الحصان وفردها من انثنائها بكلتا يديه . والواقع أنه كان إلى حد كبير الشبه بالوجيه الإنجليزى فى الريف ، خلال عهد فيكتوريا ، وأقرب ما يكون إلى الحاكم المتفرد الشديد الأسر ، القانع بالتراث الذى أفاءه الله عليه ، المتمسك به لا ينوى له تبديلا ، ولا يمد عينه إلى ما وراءه ؛ فلم تكن فى نفسه طماعية فى غزو ، ولا رغب فى فتوح ،

ولا منزع إلى الدسائس الدولية ، بل كان كل ما يبتغيه أن تبقى الحال كما هي ، وكان ناصحه الأمين ، وأقرب مستشاريه إلى نفسه القاضي «قنسطنطين پوبدونوستزيڤ» رجلا رجعيا من الطراز الأول ؛ حتى لقد كتب يقول : إن البرلمان ليس إلا هيئة لتحقيق المطامع الشخصية ، وأيضاً غرور النوب ، وتنفيذ مآربهم الذاتية ، ومعاذ الله أن يقدر لروسيا أن تعطى البرلمان ، تلك المنحة المشئومة » .

وجاء القيصر الجديد فألقى على مشروع الدستور الذى كان قد أُعدّ فى عهد سلفه نظرة قصيرة نافرة ، ثم تولى عنه مُعرضاً ، وعاد السلطان المتحكم المطلق يتربع العرش مرة أخرى ، ومضى إسكندر الثالث مدى الثلاثة عشر عاماً التالية ، ينفق أكثر وقته فى التنقل بين ضياعه فى ربوع الريف ، مصرًّا على القول بأن الأمر لن يتغير فى روسيا على الزمان .

تجارة جديدة ، وصناعات حديثة

ولكن الوقع أن أشياء كثيرة بدأت تحدث فيها ، وتحوّلا واسع المدى مضى يغمرها ، ويلاحقها فى إلحاح . وقد تكون الحكومة وانية فاغرة فمها للحياة ، ولكن الاقتصاد القومى لم يكن كذلك ؛ فقد بدأت التجارة عام ١٨٨٠ تتحرك ويمتد نطاقها ، وأخذت رءوس الأموال تتدفق من الخارج على البلاد ، فنشأت حول المدائن الكبرى فيها صناعات جديدة تريد التوثب وشيكاً ، كما بدأ مدُّ الخط الحديدى الذى يشق أصقاع سيبيريا فى عام ١٨٩١ ؛ ليربط بين الصين وأوروبا ، ويفتح أسواقاً لم يكن أحد يحلم بها من قبل ، وظهرت فى كل مكان طبقة جديدة من الصناع للنهوض بالصناعة الفتية الناشئة .

وكان المنشئ الأكبر لهذا التحول الجديد « سرجيوس ڤيتى » وهو من أخطر الشخصيات شأناً فى السياسة الروسية ، رجل « واقعى » أوتى براعة نادرة فى إحداث التغييرات من تحت يد ميتة ، وهى يد القيصر وناصحه الأمين ؛ فقد مضى كوزير للمالية يصلح الكيان الاقتصادى فى دولة القيصر ، ويعقد قروضاً ضخمة من فرنسا ، ويرحب برءوس الأموال الأجنبية . وفى عهده وافقت روسيا على التعامل بعملة الذهب ، وظفرت الحكومة بمورد من أغنى مورد دخلها القومى ، واحتكرت بيع « الڤودكا » وبدأت فعلا تغتنى ، وتمتلئ خزائنها وشيكاً بالأموال .

وكانت الشخصية الخطيرة الأخرى فى بطرغراد خلال تلك السنين ، شخصية ڤاشيسلاف ڤون بليڤى ، وهو « بيرقراطى » من الغلاة ، لا يعرف الرحمة ، ولا يرتضى الهوادة ، وكان بطبيعة الحال يقر الحكم الفردى بكل مقوماته : من رقابة على الصحافة ، وكبت للحريات فى الجامعات ، وكراهية اليهود ، وسيطرة الشرطة ؛ فكان « ڤيتى » يعمل على التقريب بين روسيا والعالم الغربى ، وكان « بليڤى » يعمل فى الداخل ضد روسيا ذاتها ؛ فقد استطاع كمدير للشرطة إلقاء القبض على الزعماء الذين دبّروا المؤامرة الناجحة التى قضت على حياة إسكندر الثانى عام ١٨٨١ ، وأخذ فى أوائل عام ١٨٩٠ يتجه ببراعة وقسوة بالغتين نحو الظفر بمنصب وزير الداخلية ، فلا عجب إذا راح كلٌّ من « ڤيتى » ، و « بليڤى » يتبرم بالآخر ويجتويه .

وكذلك ، بأولئك الأقطاب الثلاثة : پوبدونوستزيڤ ، ذلك الرجعى العنيد ، و « ڤيتى » ذلك المدبر القائم على الخزائن ، و « بليڤى » ذلك الشرطى الغليظ القلب .

مضت الحكومة فى عهد إسكندر الثالث موغلة فى ذلك الطريق غير الطبيعى ، فلم تستطع أن تهزّها المجاعة التى بدأت عام ١٨٩١ وظلت قائمة ثلاثة أعوام سويًّا ، وانفرط ثلاثون عاماً أو نحوها فلم يحدث خلالها إصلاح يذكر .

ونشأ نيقولا فى تلك السنين على نحو ما كانت نشأة الأمراء الصغار وأسلوب تربيتهم فى القرن التاسع

عشر ، فكان عالمه دنيا مزدحمة بعديد الأقارب ، وزمر الحواشى ، والمؤدبين ، والصلوات ، والبذلات العسكرية ، والطوابير ، وأيام « المسامحات » فى القرم ، والصيد والقنص فى الأحراج والغابات ، وزيارة الأعمام ، وأبناء الأعمام ، فى قصور لندن وبرلين ، ولم يكن شىء من هذا كله يتصل من قريب أو بعيد بمشكلات روسيا الحقيقية ، وكان اتصاله الوحيد بالعناصر الثورية التى بدأت يومئذ تلتف حوله عنيفاً أشد العنف ، وعهده بهم قاسياً كل القسوة ؛ فقد كاد بعد سبع سنين من مقتل جدّه يقتل فى حادث على الخط الحديدى أصاب القطار الملكى فأخرجه عن القضبان فى « بوركى » ، وإن خرج القيصر وابنه من الدمار سالمين ليس عليهما من بأس ، فإن القيصر بادر بجسده الضخم يحول بين شظايا الأخشاب المتناثرة فى صالونهما وبين الوصول إلى ولده ، ريثما استطاع الأمير أن يتسلل من حطام القاطرة ، ولكن واحداً وعشرين راكباً آخرين ذهبوا ضحية ذلك الحادث . وقد عرفنا الآن أنه لم يكن من عمل الإرهابيين ولا تدبيرهم ، وإن اكتشفت فى العام السابق — وهو عام ١٨٨٧ — مؤامرة حقيقية فى اللحظة الأخيرة قبل التنفيذ ، مؤامرة جنونية خرقاء دبّرها طلبة الجامعة ، وإن أخذت مكانها من التاريخ ؛ لأن الثورة القادمة جاءت هنا فى أعقاب نيقولا ، وكان أحد زعماء تلك المؤامرة إسكندر أوليانوف شقيق لينين الأكبر ، فأعدم شنقاً .

رياضات فى الهواء الطلق

ويبدو لنا أن إسكندر الثالث كان حريصاً فى عشيرته على التقاليد ، بالغ العناية بأمر أفرادها ؛ حتى لقد أصرّ على أن يروض ابنه على النوم فوق فراش خشن فى الخيام ، والاستيقاظ فى السادسة من الصباح ، والقيام برياضات خشنة دقيقة فى الهواء الطلق عقب تلقى دروسه ، ولا نحسب نيقولا كان يضيق بذلك أو يجد منه رهقاً ؛ فقد كان مولعاً بالخروج إلى المروج ، وركوب الخيل عارية المتون من السروج ، والمشى المستطيل ، وحياة الجنود فى المضارب والخيام ، وقيل : إنه « كان أسرع مشياً من الحصان » . وقد مشى ذات مرة ، بعد ذلك التاريخ ، ، عشر ساعات متوالية لتجربة نوع جديد من « الجرابنديات » كان يراد تعميمها فى وحدات المشاة الجديدة . وبدا كأن لم يكن ثمة خالجة شك فى أنه كان يريد أن يحسن ويعمل صالحاً ، ويوفى مطالب مكانه بإخلاص ، وهو ذلك المكان الذى استبان له ووضح كل الوضوح ، مما كان يشهده من سيرة أبيه ، ومسلك ناصحه الأمين ؛ فلا غرو إذا ظل هذا الجانب من تنشئته ، مرانة طويلة على فنون الحكم المطلق ، وقدسية مكانه ، وحرمة سلطانه المصون .

وكان نيقولا يحب أباه ويقدسه ، ويريد أن يقتدى به فى كل شىء ، ولكنه مع ذلك نشأ ونما ، على النقيض منه ؛ فقد كان ناحل البدن ، رفيقاً ، هادئ الطبع ، وسيما فاتناً ، أشبه فى استحيائه وثقافته وانطوائه بقريبه الإنجليزى « جورجى » الذى أصبح فيما بعد الملك جورج الخامس ؛ فقد كان شديد الشبه به ، ولا تزال لهما صورة فتوغرافية يبدوان فيها واقفين معاً ، وهو فى قبعته ، وسترته ، وسراويله البيض التى يرتديها البحريون ، ولحيته المشوطة المهذبة كما تبدو فى ألواح « ڤان دايك » ورسومه الزيتية ، وهما يمرحان فى دنيا البهاء والجلال والعزة والسؤدد ؛ حتى ليلوحان فى الصورة من فرط الوقار ، وعنفوان الشباب ، وروعة الملاحة ، كأنهما طيف خيال فى أحلام الفتيات خلال العهد الڤيكتورى تمثل بشراً سوياً .

ولعل أخطر حادث فى حياة نيقولا هو غرامه بالأميرة « أليكس » تلك الأميرة الألمانية الصغيرة فى دوقية « هس » ، فقد بدأ ذلك الحب فى زيارتها لبطرغراد عام ١٨٨٩ ، ولم يعتقد نيقولا فى مبدأ الأمر أن هناك أملاً فى الظفر بها ، وإصابة الإعجاب لديها ؛ فقد



الاحتفال بتتويج القيصر نيقولا الثانى فى كتدرائية أوميسنكى بموسكو ويشاهد وهو يتلقّى الصولجان من بطريق سان بطرسبرج
وقد ظهرت القيصرة ألكسندرة والقيصرة الوالدة ورجال البلاط ونساؤه ، والقساوسة والبطاركة فى أسفل السلم

خالها مفرطة فى الجمال ، بعيدة المنال ، متأبية على الرضا .
وقد سافر بعد ذلك فى رحلة حول العالم ، دون أن يتقرر شىء أو يوضع تدبير ، للقاء آخر بينهما على الأيام .

وليس ثمة ضوء أوضح ولا أجلى من يوميات الأمير فى شبابه ليكشف لنا عن خافية ما كان بينهما من غزل ، وما استوثق من علاقة ، وما جرى يومئذ بينهما فى حياتهما الخاصة ؛ فقد كان نيقولا حريصاً على تدوين يومياته ، وتسجيل أحداث حياته فى مفكراته . وما نحسبه كان سيروح فى تلك اليوميات قليل الحرص ، مفرط الصراحة ، كما بدا خلالها ، لو درى فى ذلك العهد أن تلك اليوميات سوف تخرج يوماً إلى النور .

وقد ظفرنا أيضاً بكتب أليكس إليه ، وكان منحاها فى كتابة تلك الرسائل شيئاً يشبه النجوى ، ويكاد يقترب من حدود الاعتراف والكشف عن مسارب الروح .
وكانت الأميرة أليكس المثال الكامل للفتاة الناشئة فى العهد الفيكتورى ، فتاة فى السابعة عشرة ، زرقاء العينين ، شقراء الشعر ، متوردة الخدّين ، رقيقة البدن ، جميلة فى كل قسماتها ومعالم وجهها ، إلا الذقن ، فلعله كان يبدو حاداً عنيف التركيب ، وكانت حيية ، خفرة ، « رومانتيكية » المنزع بطبيعتها ، وقد بثّ الفيكتوريون فى نفسها — وهم وحدهم أعرف الناس بالأسلوب والوسيلة — إيماناً مطلقاً بالديانة « البروتستانية » ، فكانت تحب الكنيسة ، وسلطانها الخفى ، وجمالها الرهيب ، حباً يجبُّ كل شئ خلاه . . .

وقد كتب فى يومياته يقول : « ربّاه ! ما أشد لهفتى على الذهاب إلى ألينسكو » ! .

وكانت « ألينسكو » دار عمه ، الغراندوق سرجيوس الذى اقترن بأخت أليكس التى كانت تدعى « إلزابيث » ، وكانت « أليكس » قد جاءت لزيارة شقيقتها فى تلك الدار الريفية القريبة من موسكو .

كان ذلك عام ١٨٩١ ، ولكن العلاقة لم تكن قد تقدمت كثيراً بينهما ، وفى شهر يناير من العام التالى يبدو لنا نيقولا فى يومياته المتلهف النافد الصبر ، فقد كتب يقول : « كل مناى أن أتزوج فى يوم ٍ أليكس ؛ لقد طال علىّ أمد الحب . . . ! » .

المانع المذهبى

وكان المانع الأكبر من زواج أليكس بوريث عرش القياصرة ، اختلاف المذهب ، فهى بروتستانية ، ولا مفرّ من أن تعتنق المذهب الأرثوذكسى ، إذا أريد أن يتمّ قرانهما ، ولكنها لم تستطع أن تروض نفسها على هذا التحول عن ديانتها ، وكان ثمة قوم أصحاب سلطان يرون لهم مصلحة فى هذا الزواج ؛ فإن إمبراطور ألمانيا لم يعترض عليه ، والملكة فيكتوريا يسعدها أن ترى حفيدتها جالسة على أريكة الروس ، والقيصر إسكندر الثالث قد استجاب لتوسلات ابنه وتضرعاته ، وفى نهاية الأمر جاء إلحاح الملكة فيكتوريا فى أحد أيام شهر أبريل عام ١٨٩٤ موفقاً ، وانتهى الأمر بإقرار الفتاة اعتناق الأرثوذكسية لكى يتمّ القران .

وقد كتب نيقولا فى يومياته بتاريخ ٢٠ من أبريل يقول : « ذلك يوم بديع لا ينسى فى حياتى كلها ، إنه يوم خطبتى لفاتنتى ومعبودتى أليكس . . . يا إلهى . . . لقد زال شىء كالجبل الشامخ عن كتفى » .

ولعل تلك الفترة كانت أهنأ الأوقات وأسعدها فى حياته ، وإن جاء الزفاف أعجل وأبكر مما كانا يتوقعان ؛ فقد مرض أبوه فى ليفاديا ، حيث ضياعه فى شبه جزيرة القرم ، ولم تلبث حاله الصحية فى خريف ١٨٩٤ أن ازدادت سوءاً ، فتمّ القران فى غرفة نومه فى اليوم الأول من نوفمبر قبل وفاته ببضعة أيام . ولم تنقض خمسة أسابيع ، ولا يزال البلاط فى حداد ، حتى جرى الاحتفال بزواجهما ، وكان نيقولا عندئذ فى السادسة والعشرين ، وزوجته فى الثانية والعشرين .

وقد كتبت أليكس فى يوميات زوجها ، وكانت تلك اليوميات قد أصبحت — ككل شىء آخر — ملكاً متبادلاً بينهما ، تقول : « لم أكن أعتقد أن فى هذا العالم مثل هذه السعادة التامة ، ولا مثل هذا الارتباط بين البشر . . « إننى أحبك » . . . وفى هاتين الكلمتين تتمثل حياتى كلها » .

وهنا كان شعور مفرط لا متسع لمثله أحناء صدر ، وهنا سذاجة متناهية ، وغفلة بريئة خلية من كل تجربة ، وهنا اضطراب يغمر المشاعر ، ويطغى على الروح ، وكان مثل هذين الزوجين الصغيرين أولى بأن يرسبا إلى ضآلة دويلة لا تزيد شأناً عن دوقية « هس » ، إذ لم يكن أحد منهما ، حتى لو كانا وحدهما وغير سعيدين بالزواج ، يملك من المقدرة ما يعينه على ممارسة ذلك السلطان العجيب ، والحكم المتفرد ، فى روسيا الضخمة ؛ فقد كان نيقولا فى توجس ومخافة منه ، ولم يكن عند زوجته وقت له ؛ إذ كان المقام بقربه كل ما تتمناه فى هذه الدنيا وترجوه .

وكذلك بدأت من لحظة زواجها ، تلك السلسلة الطويلة من الانزواء والعكوف على لذات حياتها الخاصة ، ومتع دنياها المحدودة النطاق ، وأخيلة خاطرها الهنى السعيد ، فكان ذلك الجنوح أحد العوامل التى أدت فى النهاية إلى قيام الثورة ؛ فقد ذهبت تؤثر فى هذه الحياة شيئين اثنين ، لا ثالث لهما : وهما نيقولا ، والدين . وقد لبث هذان العنصران أكثر الدهر مختلطين كثيراً فى خاطرها ، وراحت القيصرة الشابة تدخل فى مذهبها الجديد ، مذهب الكنيسة الروسية الأرثوذكسية ، بإيمان المرتد الذى وصل إليه بعد صراع رهيب فى أعماق نفسه ، وجعلتها المقاومة العنيفة لهذا التحول فى البداية تستسلم فى النهاية استسلاماً كاملا ؛ فقد نشأت متدينة بالفطرة ،

فأتت الكنيسة الأرثوذكسية يومئذ بجلالها وروعتها وافية بحاجة نفسها ، مستجيبة للهفات روحها .

ولم تلبث أن بدأت تظهر عليها الأعراض الأولى لنفورها من لقاء الناس ، واجتوائها الظهور فى المجامع ، وتبرمها بالمحافل والمآدب التى كانت تقام فى بطرغراد ؛ إذ لم تكن تستطيب الاستعراض والبروز للناس ، بأى شكل كان ؛ حتى لقد أمعنت فى ذلك النفور ، فجعلت تسدل الأستار على نوافذ القطار الملكى ، عند وقفاته بالمحطات ، حتى لا تواجه كبار الموظفين والوجوه والأعيان السمجين فى التحبب إليها ، والخناوة بها ، وهم زحام على الأفاريز ينتظرون استقبالها .

وكان على والدة نيقولا ، وهى الإمبراطورة ماريا الرشيقة ، القوية النفوذ ، أن تعالج هذا النقص ، وتسدّ هذا المسدّ ، فكانت هى التى تقف بجانب ابنها فى حفلات الاستقبال التى كانت تقام فى القصر ، على حين تظل « أليكس » محتجزة نفسها فى جناحها الخاص ريثما يعود نيقولا إليها ، فلا غرو إذا نفر البلاط منها ، ولم تكن محبوبة من الحاشية ، وكانت تكره كل ما كان يحيط بزوجها من الدسائس والمكايد ، فى سبيل الزلفى لديه ، ومحاولة القربة منه ، وبدلا من أن تحاول على الأقل مصانعتهم ، انثنت تفعل ما كان من المحتم أن يضيقوا به ، ويستنكروه منها ، وهو تجاهلهم ، وإنكار وجودهم .

القيصرة والدجالون

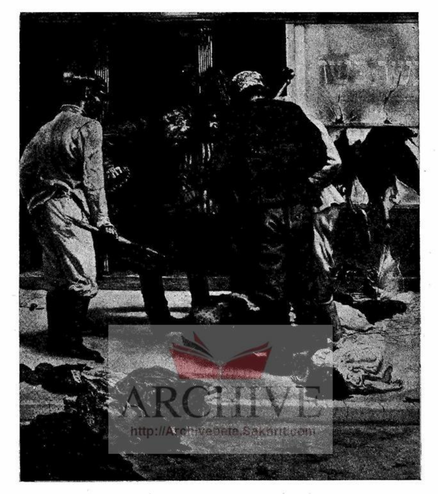
وكان ثمة باعث آخر على الكراهية لها ، ونفور الناس منها ، وهو باعث أكثر ظلماً لها ، وأشد خطراً عليها ، وهو أن روسيا بحاجة إلى وريث من الذكران لعرشها ، وهى لا تلد إلا إناثاً ، جعلن عاماً بعد عام ينحدرن إلى الحياة حتى أتممن أربعاً ، وهنّ أولجا ، وتاتيانا ، وماريا ، وأناستاسيا . وكانت القيصرة نفسها متبرمة بهذا ضيقة به ، متلهفة على غلام لولاية العهد ، فراحت من مرارة الخيبة تستسلم ، كما يستسلم مدمن العقاقير ، لنزعة الأوهام التى كانت كامنة فى أعماق طبيعتها ، فأضحت غنيمة باردة ، لكل دجال ، على شرط أن يضفى لوناً من الورع والدين على دجله ، فلم تلبث مواكب من الكهان المشكوك فى أمرهم ، وأدعياء الورع ، والمنجمين ، وقراء الطوالع ، والزاعمين أنهم القادرون على العلاج النفسى ، أو العارفون بمناجاة الأرواح ، أن وجدت سبيلها إلى القصر فى « زارسكوى سيلو » خارج بطرغراد حيث اعتادت أن تقضى أكثر وقتها ، واستطاع يوماً طبيب « علمانى » من الفرنسيين ، أو أحد أدعياء الطب ، إقناعها بأنها موشكة أن تلد ولداً ، فمضت تقاسى آلام حمل هستيرى موهوم لا وجود له .

والظاهر أن نيقولا ظل فى كل تلك الفترة المضنية يجاريها صابراً ، ويحنو عليها دائباً ، وكان هو الآخر قد فطر على نزعة فيه مماثلة ، وجانب من طبيعته ازداد أثره فى نفسه من تغرير المنجمين والعرّافين ، ونعنى به عنصر « البخت » ، وما لبث على مر السنين أن ازداد اعتماداً على زوجته ، والتماساً للعزاء والسلوة لديها ، والنظر إليها كرفيقة لا يركن إلى أحد سواها فى هذا العالم المحيط به .

وأقبل الحظ فى النهاية عليهما ، فرُزقا ولداً فى ١٢ من أغسطس عام ١٩٠٤ ، وبينما كانت النواقيس تدق فى جميع أرجاء روسيا وأنحائها إيذاناً بالوليد السعيد ، راحا يسميانه « أليكسيس نيقولا يفتش » .

ولكن الحظ لم يتمّ فصولا ؛ فقد ورث الغلام عن أمه تلك النقمة الأليمة التى كثيراً ما حلت بعدة أسر مالكة فى أوروبا ، ونعنى بها مرض « الهيموفيليا » ، وهو كثرة النزيف من الجرح ؛ فكان لا بد من استخدام العناية المتناهية بتربيته ، ولم يكن منتظراً أن يعيش بعد الثامنة عشرة .

وكذلك قضت القيصرة السنين العشر الأولى من



هذا المشهد فى أوديسا حيث اشتدت الحملة على اليهود فذبحوا تذبيحاً ، وكان البوليس يساعدهم إما بالاشتراك معهم فى اغتيال اليهود أو التهاون فى منعهم

زواجها فى معزل عن الحياة العامة ، لا تتدخل إلا قليلا فى شئونها ، على حين تُرك زوجها ، وناصحه الأمين بجانبه لا يكاد يفارقه ، يتخذ سبيله كما يشاء ، فلم يلبث أن كشف عن هذا السبيل الذى هو معتزم المضىَّ فيه .

وكان المعتاد عند تربُّع قيصر جديد على عرش آبائه الأولين ، أن يأتى صغار الموظفين فى الأقاليم ليقدموا تهنئاتهم ، ويلقوا خطباً أمام العرش ، فكانت إحدى تلك الخطب — وهى خطبة ألقاها ممثلو المجلس الإقليمى فى « تفير » — وهى مدينة خارج أرباض موسكو — تحوى لمحة من نقد ، وتلويحة من أمل فى «حماية حقوق الأفراد والهيئات العامة» .

ولو أن نيقولا تُرك لمشيئته لارتضى بلا شك هذه النصيحة المتلطفة ، ولكن الظاهر أن مستشاره « بوبيد ونوستزيف » بادر إلى استغلالها ، كما بدا من نغمة الرد الذى وجهه القيصر ، وهو أول بيان أدلى به عن سياسة الدولة ؛ فقد ذهب فيه يقول : « إن هذه الأفكار التى تخامر أعضاء المجالس الإقليمية بشأن الاشتراك فى إدارة البلاد هى « أحلام لا معنى لها ، وأمانىّ باطلة ، فإنى معتزم التمسك بمبادئ الحكم الفردى بثبات لا هوادة فيه ،

وعزم لا تراجع عنه ، كما فعل والدى الذى لن أنسى على الأيام ذكراه » .

وفى وسع المرء أن يقول : إن سقوط نيقولا بدأ من تلك اللحظة ذاتها ؛ لأنه بذلك البيان لم يتحدَّ شعور الثوريين وحـــدهم — لأنهم كانوا منه ناقمين على أية حال — بل استنفر به معاشر الأحـــرار فى بلاده ، ولم يكن فى وسع هؤلاء إلا أن يجيبوا عن ذلك التحدى بزفرة يائسة ، وحسرة موجعة ؛ ويتحولوا إلى اليسار كارهين .

ولم يكن فى وسع أحد يومئذ أن يفعل شيئاً فى سبيل إنقاذ الموقف ؛ فإن إسكندر الثالث ألقى إلى ابنه بمقاليد الحكم الفردى كاملة ، وترك له الحرص عليها ، كبعض شأنه ، وخاصة أمره ، وكانت الشرطة قوية فى كل مكان ، وجمهرة الشعب على تخلفها القديم ، لا تجد زعيماً يقودها ، ولا قائداً يتولى منها الزمام ، ولم يظهر بعدُ الفارقُ الأوحد بين الوارث والوريث ؛ فقد كان إسكندر الثالث قيصراً مسيطراً غلاَّباً قوى السلطان ، ولم يكن نيقولا على شىء من ذلك كله ، بل كان رجلا ضعيفاً ، ولا جلد لديه على المصانعة ، ولا أوتى البراعة فى المداراة والتوفيق ، وكان بطبعه للجدل كارهاً ، وإذا لم ترقه فكرة ، أو عجز عن مقابلة الحجة بالحجة ، عمد إلى التهرب منها والتسويف ، ولجأ إلى العكوف على متع حياته الخاصة وبساطة لهوه فى الريف .

فلا عجب إذا كانت قصة السنين العشر من حكمه هى فى الغالب قصة الجنوح إلى التهرب ، أو قصة العملية العقلية ، أو التطور الذهنى ، فى حياة رجل كان ممكناً أن يصبح ملكاً دستوريا بديعاً حقيقاً بالإعجاب لولا أنه لم يتهيأ إطلاقاً لفهم الأحداث السياسية وطأتها وسبر اتجاهها ، ولم يستعدَّ بتاتاً للسيطرة عليها ومراقبة مجراها .

ويبدو أيضاً أنه كان يكره من يعدُّهم أقدر منه ويعتقد أنهم يفوقونه ذكاء واقتداراً ، فلم يلبث « فيتى » ، وهو خير وزرائه — أن وجد نفسه فى حرج ، وولّى منه المتاعب ، ولم يحلَّ عام ١٩٠٢ حتى تواتت لبليڤى — وهو أحسن رجال البلاط لديه — سلطة الإشراف على وزارة الداخلية ، وتوطدت رقابته ، وكان مطمحه أن يجعل روسيا « دولة بوليسية » أكثر وأشدَّ مما كانت من قبل ، فواتاه النجاح فى هذا السبيل ، ولم يكن بالمخفق ، فقد كثرت على عهده حوادث الإضراب ، والمظاهرات فى الشوارع ، والحركات الثورية بين الفلاحين ، استنكاراً لجهاز شرطته ، وكراهية لأساليبه الشرطية ووسائله ، فلم تأت تلك الفورات بشىء ، غير ازدياد عدد المعتقلين فى المحابس ، والمبعدين إلى منافى سيبيريا النائية ،والإلحاح على اضطهاد اليهود ، وأن جعلت الحركة الوطنية تزداد نمواً واشتداداً فى المكامن والخفاء .

كذلك كانت الحال فى روسيا خلال تلك الأعوام الأولى من القرن العشرين . . . غيبوبة خفيفة تغمر أفقها ، أو إغفاءة عارضة ترنق فى أجفانها ، فكان كلهم يرى الخطر ، وكلهم المتبرم المتسخط ، ولكن لا يتقدم أحد إلى عمل ما ، ولا ينزع إلى تفكير فى الأمر ، ولا تدبير لدرئه ، حتى اقتضت الحال فى النهاية الاشتباك فى حرب مع دولة أخرى ليبلغ الحرج محله ، ويشتد الخطب ، وتوفى الأزمة على قمتها .

محاولة الاستيلاء على أرض أجنبيـــة

وكانت حرب روسيا واليابان فى الفترة بين عامى ١٩٠٤ و ١٩٠٥ آخر محاولة خاصة من جانب آل رومانوف فى سبيل التوسع ، والخطف ، أو قل آخر محاولة لوضع اليد على أرض الغير ، وإن كان دور نيقولا فى هذه المحاولة لم يستبن يوماً ، ولا عرفه الناس على اليقين ، ولكن ليس من شك فى أنه كان على غرار أبيه ، مفتوناً بفكرة الغزو والفتح ومدِّ رواق السلطان ، وكان الشرق

الأقصى سبيلا ذلولا أمام الروس ، وطريقاً سهلا لا يشق عليهم الذهاب فيه ، فإن جيوش القيصر لم تكن موفقة كثيراً فى حروبها فى الغرب خلال القرن التاسع عشر ، ولكن أرض الصين البدائية وسواحل المحيط الهادى مقنص القانص ، وصيد الصائد ، أو هكذا تراءت لهم فى تلك الأيام ، وكان مدُّ الخط الحديدى فى أصقاع سيبيريا قد كفل فعلا لهم «مَوْثباً» صالحاً يقفزون منه إلى مكان القنص ، وموضع الطراد ، واقتضى الفراغ من مده عبر منشوريا حراسته بقوة بوليسية كبيرة من الجنود الروس ، فما لبثت تلك الولاية الصينية أن أمست على الأيام أقرب إلى « محمية » روسية منها إلى إقليم يتبع الصين ، وكانت الخطة المرسومة يومئذ هى التوغل فى شبه جزيرة « كوريا » ، وكان جمع من أصحاب الأعمال الروس المقربين من القيصر قد ظفروا منه بامتياز للتنقيب عن المعادن ، والحصول على الأخشاب ، فى الأراضى التى على ضفاف نهر « يالو » فى كوريا الشمالية .

وكان ذلك كله يلوح خطراً يهدد اليابان ، فاحتجت ، وكان اليابانيون على استعداد فى ظروف معينة لقبول الحماية الروسية على منشوريا ، أما كوريا فالأمر فيها مختلف ، والمسألة خطيرة؛ فلا غرو إذا رأينا الجانبين فى أواسط عام ١٩٠٣ قد تأهبا للحرب ، وأخذا لها العدة فى غير تردد .

واختلف أصحاب المصالح الكبرى فى بطرغراد فى أمر هذه الحملة ، بين مؤيد ومعارض ، فكان بليڤى ، وقواد الجيش ، ورجال الأعمال فى « يالو » يناصرونها، على حين راح يعترض عليها « ويت » ورجال وزارة الخارجية ، ووقف القيصر بين هذين المعسكرين متردداً حائراً إلى حين وإن اعتاد الكلام « بألسنة» القواد وأصحاب الأعمال ، ولم يكن يتكلم من طريق وزير الخارجية أو يصدر عنه ، حتى لم يكن أحد فى بطرغراد ، ولا فى طوكيو ، يعرف يقيناً موقف روسيا تماماً، وذهبت الدسائس تنسج خيوطها الكثاف حول البلاط فى بطرغراد ، حيث كان الأمر يتصل بالأموال الضخمة ، والشخصيات الكبيرة ، والمصالح المترامية المدى . وفى وسط هذا كله ، انتهز نيقولا الفرصة فى شهر أغسطس عام ١٩٠٣ فتخلص من « فيتى » ، وكان هذا مكروهاً منه ، ولم يكن يوماً بالأثير لديه ، فاستبان لطوكيو من هذا أن القيصر لا ينوى التخلى عن خططه فى كوريا ، ولا يريد الانصراف عما يبغى من ورائها .

وبينما كان الجانبان لا يزالان يتبادلان المذكرات السياسية فى الأسبوع الثانى من شهر فبراير عام ١٩٠٤ إذ راح اليابانيون يوجهون ضربة بحرية إلى الروس فى شماليو — التى تعرف الآن باسم أنشون — فى البحر الأصفر ، بلا نذير ، ولاتحذير ، كما فعلوا فى ميناء بيرل مرة أخرى ، بعد ذلك الحادث ، بسبعة وثلاثين عاماً .

وكانت الحرب التى نشبت بين البلدين عقب ذلك الهجوم البحرى ، والتى سلخت ثمانية عشر شهراً ، سلسلة مستطيلة من الهزائم والنكبات التى مُنى الروس بها خلالها ، وكانت من بينها على الأقل فضيحة بالغة ؛ فقد أرسل القائد الروسى فى بورت آرثر التى كان يظن أنها المعقل الحصين الذى يعزُّ على من رامه ، العلم الأبيض — راية التسليم — إلى اليابانيين ، فى الوقت الذى كان لا يزال يملك فيه مليونى طلقة من الذخيرة وميرة تكفى أربعة أشهر .

وبلغت الحرب أشدَّها عندما أوفد الروس أسطولهم فى بحر البلطيق لطوفة حول العالم ، كآخر بارقة من أمل فى القضاء على الأسطول اليابانى فى البحر الأصفر ، وهى خطة خيالية رسمها الوهم ، ونسجها الانفعال ، أكثر منها خطة مدروسة ، وعملا متزناً من أعمال الحروب ، وكان أسطول البلطيق بطيئاً ظالعاً فى مسيره ، لاحتوائه على سفن قديمة ، وبحارة أغفال غير مدرَّبين ، فلم يصل الأسطول إلى الموضع إلا فى شهر مايو عام ١٩٠٥ ،

وكانت المخابرات اليابانية وصنائعها فى صفوف الروس تبلغ اليابان أنباء كل خطوة يخطوها ، وكل مقترب يقتربه ، فلم يكن من اليابانيين فى السابع والعشرين من شهر مايو إلا أن أطلقوا سفنهم ، على مقربة من شواطئ جزيرة تسوشيما ، تضرب ببراعة ، فى معركة ماهرة ، من مسافة سبعة آلاف ياردة ، طلائع الأسطول الروسى ، وحاق بالروس سوء ما صنعوا وزأوا وبال أمرهم ، فلم تستطع النجاة من سفن أسطولهم غير ثلاث بمحض الحظ وغرائب تصاريفه .

عواقب وخيمة

وانتهت الحرب على إثر تلك الهزيمة ، ورضى الفريقان وساطة الرئيس تيودور روزفلت ، فى سبيل عقد الصلح بينهما ، ولم تكن المعاهدة التى تمّ توقيعها فى بورتسماوث ، بولاية نيوهامشاير ، فى شهر سبتمبر عام ١٩٠٥ ، ضد مصلحة روسيا ، ولكن نيقولا خسر بها هيبته فى العالم ، وفقد قواته الضاربة ، وحبط ما صنع ، وذهبت أحلامه وأمانيه بسبيل إقامة إمبراطورية جديدة له فى الشرق أدراج الرياح .

تلك كانت الخسائر الظاهرة للناس ، ولكن أولى بها أن تنحّى جانبًا ، وتصبح نسياً منسيًّا ، إزاء مصاب أعظم ، وخطب أفدح ، أحاط بالقيصر من جراء هذه الحرب وعقباها ، وهو أنها هيأت الظروف والملابسات لقيام ثورة فى روسيا ذاتها ؛ لأن تلك النكبة أوهنت من قبضته على زمام السلطان فيها ، أو على الأقل أرختها ، وبدأت بعد بضعة أشهر ترسل وميضاً رهيباً ، وتبدى بوادر سوء تمّ عما هو على الأيام واقع .

وقصارى القول أن ما كان نيقولا يخاف حدوثه أكثر من أى شىء سواه ، حدث بالفعل ؛ فقد ظهرت الحركة الوطنية التى كانت لائذة بالمكامن ، سارية فى الخفاء ، طافية على السطح ، بادية للعين ، وانثنت الجماهير « العائشة فى الغياهب » تظهر فى الشوارع ، بكل ملايينها المجهولة من « الموزيك » الجياع ، والعمال الذين تقطعت بهم الأسباب فى المدائن ، والذين خيب قياصرة رومانوف آمالهم المتلهفة على قليل من التحسين لمستوى عيشهم ، والتخفيف من وطأة الحياة عليهم .

لقد ذهبت تلك الجموع الحامعة تزحف نحو أبواب القصر ذاته ، وإذا الدماء فجأة تسفك ، وكيان الدولة بغتة يرتجّ ، وإذا بروسيا تنظر بأول نظرة خاطفة إلى حشود الثائرين الذين سوف يحدثون بعد اثنتى عشرة سنة أخرى تلك الثورة البعيدة المدى فى حياة القرن العشرين ، بل أشد الثورات فيه تشنجاً وتراميًا وشمولا .

ولم يستطع القيصر أن يدرك ولو لمحاً مدى تلك الحمية التى أشربتها نفوس أولئك الثائرين ؛ فقد خلقت طرازاً جديداً من البشر ،وجاءت بثائر يعدُّ نفسه للثورة طعاماً ، ولوقودها حطباً ، بل أتت برجل يمشى فى أثر زعيمه ، ويتبع خطة حزبه ، ويكذب إذا اقتضى الأمر ، ويقتل إذا احتاج تحقيق هدفه إلى القتل ، فليس الذى به وطنية فحسب ، ولا رحمة لديه على شىء ، وإنما كل إيمانه بالثورة ذاتها ، وهو إيمان يبلغ مراتب العصبية العرمة ، وقد كان ترجنيف القصصى الروسى ، أحسن من عبر ، فى الفقرات التالية ، عن تلك الجِنّة التى استولت على الروس ، فجعلتهم يغلون فى طلب الاستشهاد هذا الغلوّ العجيب .

« ... وقال الحارس للفتاة : أنت تريدين أن تتخطى هذا الباب ، فهل تعرفين ماذا ينتظرك وراءه ؟ »

« وأجابت الفتاة قائلة : أعرف » .

« قال : ينتظرك البرد ، والجوع ، والمقت ، والسخرية ، والاحتقار ، والإيلام ، والسجن ، والمرض ، والموت » .

« قالت : أعرف ، وأنا له مستعدة ، وسأتحمل جميع الضربات » .

« قال : لا من الأعداء فحسب ، بل من الأقارب والأصدقاء كذلك » .

« قالت : نعم ، حتى من هؤلاء أيضاً » .

« قال : هل أنت مستعدة أن ترتكبى جريمة ؟ »

« قالت : إنى لاقترافها على الأهبة » .

« قال : أتعرفين أن هذا الذى، تؤمنين به قد ينكشف عن ضلال « مبين ، ويستحيل سراباً يحسبه الظمآن ماء فإذا بلغه لم يجده شيئاً ، وأنك قد تدركين أنك دمرت حياتك سدى ، ؟ »

« قالت : وأعرف هذا أيضاً » .

« قال : إذن فادخلى » .

« وتخطت الفتاة عتبة الباب وانسدل ستار كثيف خلفها » .

« وقال أحدهم ، وهو يصرف بأسنانه كظيما : « يا لها من حمقاء! »

« وقال آخر : يا لها من قديسة ! . . . »

* * *

وثبة المتآمرين

لينين يبنى للثورة ، وآخرون ينادون إليها

لقد جاءت الثورة الروسية نباتاً مستغلظاً ليس كمثله فى هذا العالم نمواً وتشعباً ، وفى وسع المرء أن يدرك مدى مفارقاتها المذهلة ، إذا هو تمثل فى خاطره الصورة الطبيعية لروسيا نفسها ، بشتائها المكفهر الطويل ، وتفاوت جوها الشديد برداً وحراً ، وترامى بطاحها الواسعة كأنها البحر الزاخر تمتد رقعته إلى آفاق لا حدود لها .

تلك قفار ومهامه لا يصلح لها الأخذ بالرفق ، ولا تغنى فيها أنصاف الحلول ، إلا كما يصلح الزورق الراشح لخوض عباب الأوقيانوس .

إن المرء ليحتاج فى تلك البرارى الواسعة الشاسعة إلى اليقين بالسلامة ، وإلى شىء صُلب يمسك به فى ذلك الفضاء الخطر ، والفراغ المرهوب . . . . شىء يجب حتماً أن يكون صُلباً لا شك إطلاقاً فى صلابته .

وكان هذا الإحساس مخامراً لنفوس الثائرين ، مستمكناً من أعماقها وصميمها ، فإما الكل أو لا شىء ، وإما الجنة أو الجحيم ، وفى الوقت ذاته يجب أن يكتسح العالم كله اكتساحاً ، وفى ذلك يقول دستويفسكى : « لقد ولدت « العدمية » Nihilism — النهلستية — فى روسيا ، ونحن جميعاً عدميون ! »

لقد كانت روسيا التى نشأ نيقولا فيها وكبر ، ملأى بكل صنوف « المؤمنين » ، جامعة بين نحل صغيرة يرتقب أفرادها « الخلاص » ، وبين طوائف أخرى أقل من تلك أذى ، تؤمن بالإغراق فى الخمر ، والشهوة والعنف ، والتعذيب « الجماعى » ، وإضواء الأجساد ، وتحطيم قوى الأبدان ، بل أحياناً تؤمن « بالانتحار الجماعى » .

وليس معنى هذا طبعاً أنه لم يكن فى البلاد رجال من كبار ذوى العقول ، وأهل المكانة ، والأعلام ، وسط تلك الفئات والجماعات الكثيرة التى جعلت تناضل فى سبيل التعبير عن أحاسيسها ، بل الواقع أن ذلك العهد كان عهد دستويفسكى ، وترجنيف ، وتولستوى . وليس المراد منه أيضاً القول بأن الحركة الثورية كانت فاسدة فى جوهرها ، معتلة من جهة أسسها وحوافزها ، وإنما كانت « خاماً » غير مصقولة ، ولا مهذبة ، وكانت تقاتل حيال قوى ساحقة ، ولكنها كانت أيضاً غرضاً لأثر ذلك الفارق العظيم بين المتعلم ، والفلاح ؛ فلا عجب إذا كانت الحركة الثورية فى روسيا من البداية ذات جانبين ؛ فكثيراً ما عمد الفلاحون إلى الانتقاض من تلقاء أنفسهم ، فلم تزد فوراتهم عن ثورة محلية ، ونهضة بلا زعامة ، وانفجارات من الجماهير ، على حين ظل المتعلمون المتمردون فى الجامعات موغلين فى نقاش مستطيل ، وجدل مستمر ، لا يتخلله بين حين وآخر غير أعمال إرهاب محدودة النطاق .

إن قصة الثورة الروسية هى إلى حد ما قصة سد الثغرة القائمة بين المتعلمين والفلاحين ، والمزج بينهما ، فى عملية كيميائية ، لتركيب الدواء ، فلما تم المزج ، أصبحت الثورة فعلاً انفجاراً مندلعاً فى كل مكان .

إن نشأة ذلك النضال ترجع على الأقل إلى القرن الثامن عشر ، عندما أثار رجل من « القوازق » يدعى « پوجاتشيف » ثورة سلخت ستة عشر شهراً ، وكان شعارها ، أو صرخة الحرب فيها ، « الأرض والحرية »



قبل تنفيذ الحكم بالإعدام فى ديستويفسكى الروائى الروسى الخالد وثلاثة آخرين فى أحد ميادين بطرغراد ، وقد هم الرماة بإطلاق الرصاص عليهم لولا أن جاء النبأ بتخفيف الحكم إلى النفى إلى سيبيريا

وفى ذلك العهد كان القوم فى البلاط ، فى حكم كاترين العظيمة ، بين عامى ١٧٦٢ و ١٧٩٦ ، يقرءون كتب ڤولتير ، وتواليف ديدرو ، ودالامبير ، ولم يلبث يومئذ أن ظهر أول كتاب ثورى فى روسيا ، ونعنى به ذلك الكتاب الذى وضعه نبيل يدعى « إسكندر راديتشيڤ » وجعل عنوانه « رحلة من سان بطرسبورج إلى موسكو » ، وهو عنوان استوحاه من كتاب وضعه « ستيرن » وسمّاه « رحلة عاطفية » ، وقد مضى راديتشيڤ فى كتابه الجرىء يوجه النقد إلى البيرقراطيـــة والرق ، ويطالب بالمساواة بين الناس ، ولكن كاترين عرفت كيف تقتل تلك الحركة فى المهد ، فاعتقل ، وحكم عليه فى أول الأمر بالإعدام ، ثم خفف الحكم بعد ذلك إلى النفى فى سيبيريا .

وجاءت حروب نابوليون ، فكانت أول حافز حقيقى للأحرار من أهل الطبقة العليا فى روسيا ؛ فقد تأثر فريق كبير من الضباط الروس الذين تبعوا الجيش الفرنسى إلى باريس بما شهدوه فى فرنسا ، فعادوا إلى بلادهم «ببرنامج» ينادون فيه بإلغاء الرق ، وقيام جمهورية ، فكانت النتيجة نشوب ثورة « ديكابريست » عام ١٨٢٥ ، ولم تكد تنتهى حتى حكم على مائة وواحد وعشرين من

المتآمرين فيها بالموت ، أو النفى فى سيبيريا . وفى العشرين عامًا التى تلت تلك الثورة وفى عهد نيقولا الأول — كان عدد الثورات التى قام بها الفلاحون فى أوقات مختلفة قد بلغ ٥٥٦ ثورة ، وبدأت يومئذ الحركة الثورية بين المستنيرين تتخذ شكلا جديًّا ، وتمضى فى طريقها قُدُماً .

وفى فترة السنوات من سنة (١٨٥٠ — ١٨٦٠) ظهرت « النهلستية » أى « العدَمية » ، وهى كلمة ابتدعها الروائى ترجنيف ، للتعبير عن مذهب ينادى « بإعدام » كل الهيئات والسلطات القائمة ، وتقترن به فكرة تقول : إن المستقبل لن يأتى من طريق « الفن » بل من طريق « العلم » ، فلم يلبث « العلم » يومئذ أن أمسى الدواء الأوحد لكل داء ، والعلاج الأكبر لكل علة أو سقام .

وكانت تلك الأعوام أيضاً الفترة التى بذل فيها المستنيرون الجهد للاتصال بالفلاحين ، وقامت خلالها تلك الحركة التى عرفت بالحركة «الشعبية » — النارودنك » ، والتى راح دعاتها ينادون بأن الثورة يجب أن تأتى من جانب العاملين فى الأرض — أى الفلاحين — لأن لهفتهم الغريزية على الحكم الذاتى الجماعى هى وحدها التى سوف تنشئ الدولة الروسية الجديدة ، ومن هذه البوادر الأولى نشأ أحد الحزبين اليساريين العظيمين فى روسيا ، ونعنى به « حزب الثائرين الاجتماعيين » .

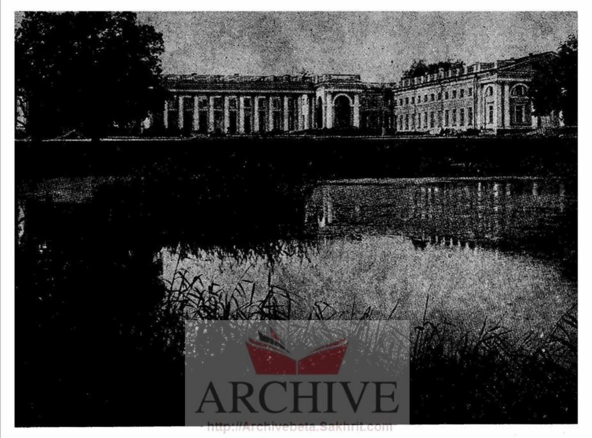
وفى تلك الأيام تمخضت الحركة عن تهيئة الوسائل الفنية للعمل من أجل الثورة ، وتنظيم الإرهاب ، والخلايا السرية ، والاتصالات الخفية ؛ فلم يلبث عام ١٨٦٠ أن شبت سلسلة من الحرائق المدمرة فى مختلف الأبنية الخشبية فى بطرغراد وغيرها من المدن ، وهى أحداث قد تكون من عمل الثائرين الدعاة إلى التدمير والتحريق ، كما قامت مصانع سرية للتدريب على صنع السلاح ، والقنابل المكتومة الصوت ، فلم يلبث الإرهابيون أن أصبحوا إرهابيين « محترفين » ، لا هم بالنبلاء ، ولا هم بضباط الحرس القيصرى ، بل طلاب علم يحيون فى دنيا المثل العليا ، وعالم البغضاء المتحمسة ، والكراهية المتفززة .

ولكن هذا كله كان يومئذ ديناً جديداً ، بلا طقوس ، ولا مراسم ، ولا كنيسة ، ولم يكن الإيمان به قد استقرّ بعد واستمكن ، ولا خطر لأحد اتخاذ إجراء موحد ، فكان كل فرد يعمل بمفرده ، فى الخفاء ، وبدلا من قيام برنامج إنشائى عام ، قام الاعتقاد فى النفوس بأن الإرهاب أمر مطلوب لذاته .

وجاء عام ١٨٨٣ ، وهو العام الذى قضى فيه كارل ماركس نحبه فى لندن ، فشهد بداية النهاية لهذا كله ؛ لأنه كان العام الذى ظهرت فيه على مسرح الثورة لأول مرة تلك الشخصية الثورية الأولى ، شخصية جورج فالانتينوفتش بليخانوف الذى احتلّ مكاناً صامتاً خافتاً فى تاريخ روسيا ، وهو أمر عجب ، وشىء غريب ، وإن لم يكن عجباً بعدئذ من البولشفيك فى عهد ستالين أن يشوِّهوا سمعته ، وينتقصوا من شأنه ، ويبتروا فضله على الثورة بترًّا ؛ فقد كادوا يصنعون ذلك مع كل بطل ، أو زعيم ، وإن ظل « بليخانوف » فى الكتب التى وضعها معاصروه شبحًا حوَّامًا غير مستقر ، وشخصية غير ثابتة اللون ؛ فهو المعترف له بأنه الرائد الأول ، والمؤسس المنشئ ، ولكن فى شئ من الإجلال الميت ، والتقدير الخلى من الحماسة .

ولكن بليخانوف الذى أصبح ذكره لا يشغل غير أسطر ضئـــال فى دوائر المعارف والموسوعات العامة ، لم يكن مؤسس الحركة الماركسية فى روسيا فحسب ، بل كان أيضاً المسيطر عليها عشرين عاماً أو تزيد ، ولم يكن لينين ولا تروتسكى ، ولا أحد غيرهما ، يحلم عندئذ بالجرأة على تحدّى مكانته وتفوُّقه وزعامته .

كان بليخانوف ابن سيد ثرى من وجوه الريف ، فى ولاية تاميوف ، إحدى الولايات الوسطى فى روسيا الأوروبية — فإن خلقاً كثيراً من الزعماء الثوريين لم



القصر الريفى الذى كان يملكه القيصر نيقولا الثانى وهو يبعد خمسة عشر ميلا من بطرغراد وكان قد انتقل إليه من مقر الشتاء عند حادث إطلاق قذائف بالذخيرة الحية عليه

ينحدروا من المدن ، وإنما جاءوا من السهول الشاسعة ، والريف المترامى البطاح — وكانت النية متجهة إلى انخراطه فى سلك الجيش ، ولكنه فى أيام الدراسة شُغل بالسياسة ، وتحوّل إلى ميدانها ، حتى استأثرت بكل تفكيره ، ومضى وهو لما يبلغ العشرين من العمر يشترك فى المظاهرات التى كانت تخترق شوارع بطرغراد مع حشود «النارودنك» طلاب الإصلاح الاجتماعى ودعاته ، ولكنه ما لبث أن انقلب عليهم لأساليبهم « الإرهابية » ونزح إلى سويسرا . وفى عام ١٨٨٣ ، ولم يكن يومئذ قد جاوز السادسة والعشرين ، أنشأ مع آخرين من « المهاجرين » فى جنيف حزباً يدعى « حزب التحرير العمالى » وهو أول حزب ماركسى فى تاريخ الثورة الروسية .

وكان بليخانوف يؤمن بأن الثورة سوف تتطور على الغرار الذى تتطور به الثورات فى أوروبا ، أى ينبغى أولا أن تصبح روسيا بلداً صناعياً ، حتى تنشأ فيها طبقة كادحة — بروليتارية — قبل أن يتسنى القضاء على الدولة القيصرية ؛ فإن العمال وحدهم هم القادرون على إحداث الثورة ، ولكن آخرين سواه كانوا يرون غير هذا الرأى ؛ فإن النارودنك مثلا ، وهم أنصار الفلاحين وظهراؤهم ، لم يكونوا مؤمنين بأن الأمر يقتضى أن يكون لروسيا جانب « رأسمالى » ونهضة صناعية قبل أن تتمكن من الثورة على القياصرة ، بل كان من رأيهم أنه فى إمكانها أن تنطلق رأساً من نظامها الإقطاعى الحاضر إلى الاشتراكية .

وهنا يبدأ المرء يشهد بوادر التنافس الموشك على

الظهور ، والاختلاف المرتقب فى وجوه الرأى : فالماركسيون ينادون بأن الثورة يجب أن تأتى من جانب العامل ، ومعاشر « النارودنك » يعتمدون فى قيامها على الفلاح .

ولكن بليخانوف ، على رأس حزبه الجديد فى جنيف ، لم يلبث أن صلب عوده ، ووجد ميدانه ، واكتسب أرضه ، وأنشأ فيما كان يكتبه ينادى بأن الإرهاب سلاح ثانوى ، وأن الهدف الأكبر هو إنشاء « هيئة اشتراكية » من الطبقة العاملة فى روسيا لتدريب المهيجين ، والتشجيع على الإضراب وتنظيم المظاهرات ، والدعوة للماركسية من طريق المنشورات السرية ونحوها ، وما عتمت أن قامت فئات صغيرة من أتباعه فى المدائن الكبيرة فى روسيا ، ودعت أنفسها « الديمقراطيين الاشتراكيين » .

وظل الروس خلال تلك الفترة كلها أشبه بسمكة صغيرة بين الأسماك الكبار فى « مقلاة » الحركة الثورية « الدولية » ، حتى لقد كان ماركس شديد الموجدة عليهم ، فكتب مرة إلى « أنجلز » يقول : « لا ثقة لى بالروس .. إن جهنم لتفتح أبوابها قبل أن يبدأ الروسى يأخذ طريقه على مهل قُدُمًا » ولكنه كان على كل حال يعتقد أنه لا يزال أمام روسيا طريق طويل تقطعه قبل أن تتحقق فيها الاشتراكية ، وأنه يرى أن الأمل أكبر فى « أمريكا » حيث الجماهير أسرع مسيراً ، وأنشط خطرا .

ولكن بليخانوف وأنصاره ظلوا يظفرون فى داخل روسيا بالمؤيدين والمظاهرين ، فلم يكد القرن العشرون يحل حتى أصبحت الماركسية المذهب الثورى الغالب عليها ، ولم يبق للديمقراطيين الاشتراكيين فيها سوى منافس واحد يعتدُّ به ، وهو حزب « النارودنك » الذى لم يلبث أن اتخذ له اسماً ثابتاً مرناناً ، وهو « الحزب الثورى الاشتراكى » .

وفى زحمة أسماء الأحزاب والشيع والنِّحَل المتعددة التى ترادفت حتما بعد تلك المرحلة ، يحسن بالمرء أن يجعل هذين الحزبين ثابتين فى ذاكرته ، لأنهما يمثلان الكتلتين الأساسيتين فى الجناح الأيسر ؛ فإن حزب الديمقراطيين الاشتراكيين هم الذين جعلوا إنجيلهم ماركس والاشتراكية « الصناعية » ، على حين راح « الثوريون الاشـــتراكيون » ينادون بأن رسالتهم هى الاستعانة بالفلاحين على إقامة اشتراكية « زراعية » .

وبدأت يومئذ شبكة سرية تنسج خيوطها فى أوروبا لكى تتسلل إلى روسيا ، وكان ناسجوها هم بليخانوف والديمقراطيون الاشتراكيون ، وكانت لهم صحيفة ، وبُرُد ، وسُعاة ، ومطابع ، فى روسيا ذاتها ، وشعبة إرهابية ، وصنائع وأعوان فى الخفاء لرعاية اللاجئين السياسيين ، وكان لهم كذلك نظام محكم دقيق لتدبير المال المطلوب للحركة .

وكان كل هم بليخانوف وأنصاره أن ينشئوا نوعاً من « التماسك » بين أجزاء هيئتهم الوانية المتراخية المشتتة ، فاقتضى تحقيق هذه الغاية عقد مؤتمر فى مكان ما خارج روسيا ، حتى يتسنى للمندوبين حرية الكلام والبحث ، دون الاستهداف لخطر الاعتقال .

وكان العمل على تنظيم هذا المؤتمر وتهيئة أسبابه والدعوة إليه ، مهمة طويلة الأمد ، ولكن لم يأت عام ١٩٠٣ حتى تمَّ تدبير الأمر ، وتقرر اختيار « بروكسل » مكانًا لعقده .

لقد كان ذلك هو ذروة الجهد الذى قضى بليخانوف فى بذله قرابة عشرين عامًا ، ومن القسوة ، حتى فى عالم الثورة القاسية ، أن تكون ساعة انتصاره وتألقه ، هى بذاتها ساعة بداية أفول نجمه .

فقد ظهر على المسرح . . . رجل جديد..

وكان ذلك الرجل هو ڤلاديمير أوليانوف ، الذى عرف يومئذ فى أوساط الثوريين المستخفين فى المكامن باسم « لينين » .

وقد اتفق الرواة لقصة هذا الرجل العجيب فى شىء

واحد ، على الأقل ، وهو أنه لم يكن مقبول الشكل ، ولا هو بالذى يروقك منظره ؛ فقد كان قصير القامة ، يميل إلى البدانة ، أحمر اللحية ، عاجله الصلع قبل أوانه ، يرتدى ثياباً رخيصة ، غير منسقة عليه ولا محكمة .

وقد وصفه « بروس لوكارت » بقوله : « إنك لتحسبه لأول وهلة « بقالا » فى الريف ، لا زعيما يتولى قيادة الناس » .

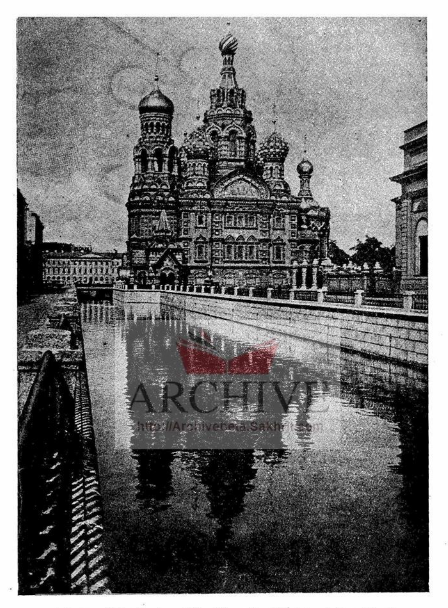
لقد كان لينين رجلاً خليًّا من الزهو ، كارهاً للمظاهر ، وقد وصفه تروتسكى كخطيب ، بأنه « فاتر » لا حماسة فيه ، وإن كان زميله سوخانوف فى حديثه عنه يقول : «إنه كان فى ريعانه وفتوته خطيباً على جانب عظيم من القوة والتأثير ؛ حتى ليتناول الفأس ، فيضرب بها النظريات المتشعبة ، والآراء المعقدة ، فيحيلها إلى أبسط العناصر وأسهلها مدخلا على الأذهان ، ثم يظل يطرقها بالمطرقة حتى تستقرَّ فى رءوس سامعيه ، ويفتن فى النهاية منهم الألباب » .

وكان لينين ، كأكثر الذين يكرسون نفوسهم لعقيدة ما ، بسيطاً كل البساطة ، متزناً كل الاتزان ، معتدلا فى كل عاداته ومنازعه ، لم تستهوه الشهوات يوماً ، ولم تغوه الخمر ، ولم يستأثر به الشراب ، وروى عنه أنه كان يحب « الشطرنج » ، والموسيقى وأحياناً يروقه الانزلاق على الجليد ، والخروج للصيد ، وألوان أخرى من هذه الرياضيات ، ولكنه ما عتم أن عدل عنها جميعاً ، لأنها — كما قال — تعوقه عن العمل .

ولم يكن لينين عبّاساً ، ولا هو بالجهم المقطب الجبين ، ويقول تروتسكى عنه : إنه كان يبدو مرحاً فى « المناسبات » نازعاً إلى التنكيت القارس ، والمزاح الثقيل ، ولكنه إذا استُغضب أو غِيظ ، نزع إلى غضب كظيم ، وحنق لا رأفة فيه .

وكان لينين من أصل روسى ألمانى ، ولد عام ١٨٧٠ فى سمبرسك — التى تدعى اليوم أوليانوفسك نسبة إلى أوليانوف اسمه — وهى مدينة صغيرة على نهر الفولجا ، وكان أبوه معلم طبيعة ورياضة وحساب ، وكانت أمه من أسرة ألمانية تجنست بالروسية ، وتدعى أسرة «بلانك» ، وكان لينين الثالث بين سبعة أولاد ، مات أحدهم فى يوم مولده ، وقضى عهد الحداثة فى الريف يرتع ويلعب ، فلم يعان يوماً ألم الفاقة ، ولا جرب فى طفولته قسوة الشظف والحرمان ؛ فقد ظل أبوه يرقى مدارج الوظائف صعدا حتى أصبح مفتش تعليم فى الأقاليم ، وأمسى يخاطبه الناس بقولهم : « يا صاحب السعادة » .

ونجح أبناء أوليانوف فى المدرسة ، ففاز أكبرهم ، وهو إسكندر ، بمدالية ذهبية ، وقفا على إثره وشيكاً « لينين » — وهو الاسم الذى اتخذه فيما بعد خلال الحركة السرية أوردناه هنا لزيادة الإيضاح — وكانت العشيرة قوماً متدينين مجدين فى العمل ، ولم يتلق الأولاد من أبويهما شيئاً من الأفكار الثورية فى حداثتهم ، وروى أن إسكندر كان يحب قراءة دستويفسكى على حين كان أخوه الصغير لينين يميل إلى قراءة ترجنيف ، ولكن لم يرد ذكر مطلقاً « لماركس » فى قصة طفولة أولئك البنين . وكان عام ١٨٨٧ العام الذى طالعتهم فيه حياة جديدة لم يكن لهم بها من قبل عهد ، فهو العام الذى ذهب فيه إسكندر إلى بطرغراد لاستكمال دراسته ، فاشترك يومئذ فى مؤامرة دبرها الطابة لقتل القيصر إسكندر الثالث وقبض عليه ، فكان ذلك الحادث محزناً ومروعاً من كل نواحيه ؛ فقد بدا إسكندر فى رحاب الجامعة ثائراً متحمساً ناقماً على القيصرية متأجج الكراهية لحكمها ، وفى المحاكمة لم ينكر ، ولا سأل الرحمة ، ولا طلب المغفرة ، ولم يكن يومئذ والذين كانوا معه ، وهم فتية ستة ، قد جاوزوا الحادية والعشرين ، ولم يتقدموا فى الحادث ليلقوا القنبلة التى أعدُّوها ؛ فقد قبض الأشراط عليهم وهم حاملوها فى شارع نيفسكى ، وهو أكبر شوارع بطرغراد ، قبل أن يبلغوا بها المكان المقصود .



كنيسة البعث التى شيدت تخليداً لذكرى القيصر إسكندر الثانى وهى على ضفة ترعة كاترين فى بطرغراد فى الموضع الذى قتل فيه

وقد يبدو من الغلوّ فى القسوة أن القيصر لم يعفُ عنهم ، لكى يعطيهم الفرصة ، فيثوبوا وينيبوا ، بل أقرَّ الحكم غير متريث ، ولا آبه . وكان الحكم يقضى بالإعدام على أوليانوف وأربعة من زملائه ، وقد نفذ الحكم فيهم .

وكان تأثيره فى نفس أخيه لينين ، وهو يومئذ فى السابعة عشرة، شديداً ؛ فقد مضى من تلك اللحظة لا ينظر إلى الوراء ، بل اندفع بعزيمة مطلقة نحو اليسار غير مترفق ، ولا متلطف ، ولا منثنٍ عن مراده ، حتى

الموت . وكانت لهذا الحادث أيضاً ناحية خاصة ؛ فقد مات والده فجأة من نزيف فى المخ خلال العام السابق ، فاضطرت أمه إلى السفر إلى بطرغراد وحدها لكى تتشفع لابنها حتى ينجو من الموت ، ولم يرض أحد من جيرانها فى « سمبرسك » الذهاب معها ، وجلست الأرملة فى قاعة المحكمة لتسمع وتبصر ابنها للمرة الأخيرة ، وحين عادت من سفرها شعرت بأنها هى وأهلها باتوا «منبوذين» يتحاماهم الناس خيفة . ولا يبعد أن تكون كراهية لينين الشديدة واحتقاره البالغ لطبقة أصحاب الأملاك ، سواء كانوا من المحافظين ، أو من الأحرار ، قد بدأت من ذلك الحين .

وانطلق منغمساً فى نشاطه الثورى خلال تلك الأيام ، وكان قد أرسل إلى جامعة « قازان » التى على ضفاف « الڤولجا » لدراسة الحقوق ، فلم تمض ثلاثة أشهر عليه فى الجامعة ، حتى اشترك فى اجتماع عقده الطلبة للاحتجاج على الحكم القائم ، فقبض عليه وطرد من المدينة ، فذهب إلى أخته « حنة » ليقيم عندها فى فى مزرعة لأمه فى « كوكوشكينو » ، ولكنه راح بعد ذلك يحاول فى مزرعة أخرى فى « سمارا » العكوف على الزرع والحرث ، غير أنه لم يجد استرواحاً إليهما فانثنى عنها منصرفاً .

وكان مكبًّا خلال تلك السنين على القراءة والاطلاع يلتهم الكتب التهاماً ، وفى عام ١٨٩٠ استجابت السلطات أخيراً لتوسلات أمه « وعرائضها » فسمح له باستئناف دراسة الحقوق ، وأذن له فى دخول جامعة بطرغراد فى هذه المرة ، فلم ين فى فترة لا تتجاوز العام أن أتمّ منهاج دراسة الحقوق ، التى يقضى فيها الطالب العادى أربع سنوات ، وبرز فى طليعة الناجحين فى الامتحان العام ، وذهب فى العام التالى للاشتغال بالقانون فى « سمارا » ، ولكنه عاد بعد غيبة عام آخر إلى بطرغراد حيث لقى « كروبسكايا » التى قدّر لها أن تكون بعدئذ زوجته ، وكانت ماركسية هى الأخرى ، ومن أشياع « بليخانوف » والديمقراطيين الاشتراكيين ، وكلاهما بارز النشاط فى أوساط العمال فى بطرغراد ، وكلاهما من أبناء الأسر النبيلة التى أناخ الدهر عليها . وكان لينين قد بلغ عندئذ الرابعة والعشرين ، وإن كان الصلع قد بدأ يغزو رأسه ، وكانت هى أكبر منه بعامين ، وفى وجهها القوى ، الواضح ، المتسم الوسيم ، شبه بوجه أمه ، وإن كان أثر الآلام والهموم والصبر على المكاره أقل على وجه الفتاة ظهوراً منه على وجه تلك الأم المعذبة .

وكان لينين والفتاة صادقى المودة ، يتفانى كل منهما فى محبة صاحبه ، وقد أخذت فى تلك الأيام صورة شمسية للينين يحيط به أصحابه وخلطاؤه ، وفيها يبدون جالسين فى غرفة التصوير ، ومن خلفهم نخيلات فى الأصص وأعمدة عالية ، وطرر على المقاعد ، وهم ماشطون شعرهم بعناية ظاهرة أقرب إلى جماعة من طلاب الجامعات منهم إلى عصبة من الثائرين ، وقد توسطهم لينين فى جلسة مترفعة كأنه الأستاذ المعلم الكبير .

ولكن صحته لم تكن مكتملة ، ولا هو بموفور العافية ، وأصيب بالتهاب رئوى عام ١٨٩٥ ، فاشتدت به اللهفة على السفر إلى الخارج ليستشفى من ناحية ، وليتصل أيضاً بالروس المبعدين الذين كان قد قرأ لهم من قبل كتبهم ومؤلفاتهم ، وأذنت له السلطات فى صيف ذلك العام أن يسافر ، فقضى أربعة أشهر يطوف بأرجاء فرنسا ، وألمانيا ، وسويسرا ، ويتنقل فى مختلف ربوعها ولاقى فى جنيڤ بليخانوف وزميلين له ، وهما باقل أكسلر ود وڤيرا زاسوليخ ، ولكن لا يبدو أن اللقاء كان موفقاً ، والظاهر أن جماعة بليخانوف كان يخامرها فى ذلك العهد الباكر بعض الشكوك فى ذلك الفتى الصلب الغريب الذى لا يعرف رفقاً ، ولا يقبل تسهلاً ولا هوادة ، وإنْ سرها ما رأت عليه من مخايل القوة والذكاء ، فارتضوه من شيعتهم ، وعاد فى أوائل شهر أكتوبر إلى روسيا ليواصل عمله فى الخفاء .

جهاده فى داخل روسيا

وهنا بدأت فترة نشاط ثورى شديد فى حياته ، داخل روسيا وصميمها ، ذلك النشاط ، المستطيل ، الذى توفر بكل قواه عليه ، حتى الأعوام الأخيرة من حياته ، فأنشأ حزباً سرياً ، دعاه حزب « النضال فى سبيل تحرير الطبقة العاملة » وراح يتنقل بين بطرغراد ، وموسكو ، والمدائن الأخرى ؛ ويكتب الرسالات ، ويعاون على تنظيم الإضراب ، حتى كان شهر ديسمبر من ذلك العام ، أى بعد ثلاثة أشهر من أوبته إلى البلاد ، فبدأ يهيئ العدة لإصدار صحيفة ثورية ، ولكن قبض عليه وزج به فى السجن .

ولم تكن السجون فى تلك الأيام شديدة القسوة على المعتقلين السياسيين أمثال لينين ، فاستطاع أن يجد سبيلا إلى مكتبة السجن ، وقراءة الكتب التى كانت تحتويها ، وجاءته كتب تترى من الخارج أيضاً ، والظاهر أنه لم يكن فى السجن ساخطاً ، ولا متبرماً ، حتى لبث فيه أربعة عشر شهراً ، بلا محاكمة ، وإنما أبلغ عندئذ أنه قد حكم عليه بالنفى ثلاث سنوات أخرى فى سيبيريا .

ولم يكن النفى فيها على عهد القياصرة شديد الوطأة أليماً ، كما أمسى من بعدهم ؛ فإنه كان للمبعد إليها المال الكفيل له بدفع نفقات سفره ، واستطاع الظفر بإذن من السلطات أمكنه أن يسافر إليها كأنه راحل إلى بلد يرتضيه ، وليس عليه من بأس فى سفره .

وسافر لينين فى شهر فبراير عام ١٨٩٧ مستقلاً القطار حيناً ، وعلى ظهور الخيل أحياناً ، فى مراحل ممتعة صوب الشرق ، فلم يصل إلى « كراسنويارسك » إلا فى آخر شهر مارس ، ولبث فيها مقيماً قرابة شهر ريثما تذوب الثلوج ، فيركب باخرة نهرية إلى شوشنسكويا ، وهى قرية غير بعيدة من حدود منغوليا ، حيث تقرر أن يقيم ، ولم يكن أهلها يتجاوزون ألفاً وخمسمائة ، وهم فى ويل شديد من جيوش البعوض إذا ألقى الصيف مراسيه ، وفى الشتاء يحصرهم الجليد فيها إلى ختامه .

وفى ذلك الموضع أقام لينين ثلاثة أعوام ، فكان يكثر من الخروج للصيد ، وإن كتبه لحافلة بالحديث عن مشاق البط والقنص ، والحاجة إلى كلب مدرب على الطراد ، واعتاد فى الصيف السبح فى أمواه نهر ينيساى وزيارة الصحاب الذين أرسلوا إلى المنفى فى القرى المجاورة ، ولكنه كان يقضى أكثر الوقت فى العمل ، فترجم كتاب « سدنى وبياتريس ويب » عن « نظام النقابات من الناحيتين النظرية والتطبيقية » ، وأتم أول كتاب ضخم من قلمه ، وهو « تطور الرأسمالية فى روسيا » كما ذهب يكتب فصولا للمجلات والصحف الاشتراكية ، ويراسل بليخانوف ، وأكسلرود وغيرهما فى الخارج .

وفى عام ١٨٩٨ قبض على كروبسكايا فى بطرغراد ، وحكم عليها بالنفى ثلاث سنوات فى سيبيريا ، فقدمت إليها فى شهر مايو ، ونزلت فى شوشنسكويا ، وكانت تلوح مريضة منهوكة القوى ، ووجدت لينين أكثر بدانة ملفوح الوجه من حر الشمس ووقدتها ، فلم يلبثا أن تزوجا فى المنفى .

ولما انتهت مدة نفيه فى شهر فبراير عام ١٩٠٠ اضطر إلى ترك كروبسكايا فى المنفى ، وكان قد بقى عليها أن تقيم فيه عاماً آخر ، وفاء للمدة المحكوم بها عليها ، وراح يحشد كل قواه فى سبيل إنشاء صحيفة ثورية جديدة وهى « إسكرة » ، وقضى الربيع ومطالع الصيف يطوف بأرجاء روسيا لهذا الغرض ، وفى شهر يوليه استطاع السفر إلى جنيف .

والظاهر أن شيئاً من الجدل قام يومئذ فى تلك المدينة ، فقد أصبح بليخانوف ، وزاسوليخ ، وأكسلرود ، فى تلك الأيام الحراس القدامى على « الماركسية » ، ولم يكن لينين وأنصاره المحدثون متفقين معهم فى كل شىء بسبيلها ،



لينين فى شبابه وعهد دراسته فى عام ١٨٩١

وكان لينين خاصة معترضا على إحداث أى تنقيح فيها ، أو إجراء تعديل فى برنامجها الأصيل ؛ وكان يريد أن تتولى أمر تنظيم الثورة وتدبير مطالبها فئة صغيرة من كبار الثوريين العارفين بمبادئها ، ويرى أن انتخابهم لا يمكن إطلاقاً أن يترك ديمقراطيًّا لمعاشر العمال ، بل ينبغى أن يكون أفرادها رجالاً نصبوا أنفسهم لهذا العمل ، وأشربت نفوسهم قوة الإيمان به ، كما هو شأن القائمين على أية عقيدة دينية ، رجالاً كرّسوا حياتهم لواجبهم ، وآمنوا به الإيمان كله ؛ فأى انحراف عنه هو والكفر والزندقة سواء . وكان هذا المنزع فيما يبدو جليًّا ضرباً من « الديكتاتورية » ، فلم يرق الزعماء القدامى ، ولم يستروحوا إليه .

ولكن شيئاً من التراضى تمّ فى النهاية بين الفريقين ، وتقرر أن تتولى إدارة تحرير الصحيفة الجديدة «إسكرة» ، هيئة مؤلفة من بليخانوف وزاسوليخ وأكسارود ، لتمثيل فريق القدامى ، ولينين وزميله القديم مارتوف واثنين آخرين لتمثيل الجماعة الجديدة .

وأعدّ لينين العدة لطبع الصحيفة فى ألمانيا حيث انتوى المقام ، ولعل سرّ اختياره العيش فيها أنه — كما يلوح لنا — أراد ألا يكون قريباً كل القرب من بليخانوف وعينـــه .

وحين عادت زوجته من المنفى وافته فى ألمانيا فعينت « أمينة » — سكرتيرة — للمشروع .

ولكن الحركة السرية فى روسيا ظلت مع ذلك فى يدى « لينين » .

وفى شهر ديسمبر صدر العدد الأول من الصحيفة الجديدة ، فلم يصل إلى روسيا إطلاقاً ؛ لأن الشرطة صادرت النسخ على الحدود ؛ ولكن لم يلبث العمال الذين يعملون فى المنظمة السرية أن برعوا فى تهريب « النسخ » إلى داخلية البلاد ، فإذا بتلك الصحيفة تصيب مكانة كبيرة بين العمال ، وتحيط بها فتنة رهيبة كسحر الساحرين .

وما لبث كتّابها والمسهمون فى تحريرها أن أصبحوا أعلاماً ، وارتفع فى الناس شأنهم ، وكان اسم لينين فى الذروة منهم جميعاً ؛ فقد أخذ من البداية يبنى حول اسمه صرحاً من الشهرة كمصدر للأفكار وقيادة الرأى ، وراح فى عظمة يستخدم ضمير الغائب فى الصحيفة فيقول مثلا : « . . وكتب لينين فى العدد الماضى يقول . . إلخ » فلم يلبث العالم الثورى أن عرف المراد بهذا الأسلوب الفنى ، وأدرك أن ذلك الكلام وحىٌ يتنزّل من « الجهات العليا » .

ثلاث دقات بالباب

وهنا بدأت تواجه المتآمرين ، وبخاصة لينين وامرأته ، حياة تشرّد وشظف وتنقّل من مكان إلى مكان ، وهى الحياة التى لازمتهما سبعة عشر عاماً على نسق واحد ، فقد ظلاّ يعيشان مشرّدين ، لائذين بغرفة فى « بنسيون » مجهول ، أو مكمن بعيد من أعين الشرطة ، ويقضيان الأيام فى غمرة جدل ، وبؤرة نقاش ، وصومعة دراسة وتفكير .

وكانت دقات ثلاث بالباب إيذاناً بأن رفيقاً من الرفاق قد جاء سراً من روسيا يحمل أنباء أوكتباً من خلايا الحزب ومكامنه ، أو قليلاً من المال .

وقد رأينا تروتسكى يحدثنا كيف قدم إلى لندن فى عام ١٩٠٢ ، فوصل إلى المدينة على مَوْهن ، واستقل مركبة ، إلى العنوان الذى كان قد أعطيه ، ودق تلك الدقات الثلاث ، فجاءت كروبسكايا إلى الباب ففتحته ، فإذا به فى حضرة لينين الذى كان يومئذ أشبه بأبطال الأساطير ، ولم يكن تروتسكى قد رآه قبل ذلك ، وإن كان قد سمع به كثيراً ، وقرأ له عدة فصول .

وأعجب لينين بهذا المتشيع الشاب ، وكان تروتسكى أصغر سناً منه بتسعة أعوام ، وكان لينين يودُّ أن يشركه فى هيئة تحرير الصحيفة لو سمح بليخانوف بانضمامه .

وألِف الصاحبان الجديدان التجول فى شوارع لندن وأحيائها ، وجعل لينين يشرح له معالمها ، ويبين له مختلف أرجائها ، قائلاً : « وهذا برلمانهم ، وهذه كنيستهم الكبرى التى تدعى وستمنستر » فلم يفهم تروتسكى إلا بعد فترة من الوقت المراد هنا من نسبة تلك المعالم لضمير الغائبين ، ولكنه أخيراً أدرك أنه لا يقصد به البريطانيين ، وإنما يقصد « الرأسماليين » .

وكان كل همه وجهده وتحفزه كالنمر المتوثب منصرفاً يومئذ إلى فكرة المؤتمر الاشتراكى الديمقراطى العتيد الذى سيعقد فى بروكسل ؛ فقد بدا له ، كما بدا لبليخانوف ، أن الجماعة مواجهة هنا الحدث الأول الذى سوف يؤثر فى مصيرها ، متقدمة إلى مفترق الطريق ، فاعتزم أن يجعل مشيئته هى المتحكمة الغالبة .

وعندما انعقد المؤتمر أخيراً فى شهر يوليو عام ١٩٠٣ كان عدد الذين حضروه ستين مندوباً ، وكان الاجتماع فى مخزن دقيق بمدينة بروكسل كسيت واجهته بقماش أحمر ، ولم يكد يبدأ المؤتمر جلساته حتى احتدم النقاش بين المؤتمرين ، واشتدت الضجة خلال الأسبوع الأول من عقده ، فاضطر البوليس البلجيكى فى شهر أغسطس إلى إرغام فريق منهم على ترك البلاد فى أربع وعشرين ساعة ، فلم يسع المؤتمر بجملته إلا أن يغادر بروكسل إلى إنجلترا ، وظل القوم فى جدل عنيف طيلة الطريق على المركب إلى الساحل البريطانى لا يكفُّون عنه ، وواصلوا الاجتماع فى لندن من ١١ من أغسطس إلى الثالث والعشرين منه .

وفى وسط تلك التيارات المتعارضة ، وذلك الجدل الملحّ ، كان النزاع كله — كما كان لينين يتوقع — حول نقطة جوهرية ، وهى : هل ينبغى أن ينظم الحزب صفوفه كجهاز ديمقراطى يستطيع كل فرد أن ينضم إليه ، أو يكون ديكتاتورية صغيرة محدودة النطاق ؟ وإن كان لينين نفسه لا يخامره الشك فى وجوب الأخذ بالوسيلة الأخيرة ، وكان هائج الخاطر مصراً على أن يجد إليها سبيلا ، ولكنه حين تبين أنْ لا أمل له فى جمع المؤتمرين إلى صفه ، والأخذ بوجهة نظره ، وأن القوم كلهم ألْبٌ عليه ، شرع يشطر الحزب شطرين ، وحاول جاهداً أن يمنع معارضيه من حضور الاجتماعات ، ومضى يختلى فى الأروقة بالمترددين ، لكى يضمهم إليه ، حتى أثار حفيظة الفئة « اليهودية » منهم ، وهى فئة كبيرة الشأن فيهم ، فانسحب أفرادها من المؤتمر وانتهز لينين عندئذ الفرصة ، فظفر بالأغلبية فى صفه بصوتين اثنين .

وكانت تلك اللحظة تاريخية حاسمة فى حياة الحزب ، ومصير روسيا ذاتها ؛ إذ راح لينين فى الحال ينادى بأنه هو وأنصاره حزب الغالبية — أى البولشفيك — وأن خصومه هم القلة — المنشفيك — وهى تفرقة فى التعبير لم تكن صحيحة تماماً فى ذلك الحين ، وظلت كذلك فيما بعد ، بل أكثر بعداً من الواقع ، عندما غلب لينين فى التصويت وأفلتت « الغالبية » العديدة من يده .

ولكن لينين تيسر له النجاح ، فى الأيام الأخيرة

(*) بولشوى تعنى الكبير .

من اجتماعات المؤتمر ، فى حمله على اتخاذ طائفة كبيرة الشأن من القرارات ، وقد وضع دستور الحزب فى صيغة تجعل محررى « إسكرة » مشرفين أيضاً على لجنة الحزب المركزية فى روسيا ذاتها ، ولم يبق من مجلس إدارة الصحيفة فى الأحياء غير بليخانوف ليمثل الحراس القدامى على ذمار الماركسية ، ولم يعد المجلس يحوى غير ثلاثة أعضاء ، وهم لينين ، ومارتوف ، وبليخانوف .

وأخيراً انقضى ذلك المؤتمر الذى استغرق إعداده عامين ونصف العام ، وارفض مضمحلاً مشتتاً منهوك القوى ، وكان المراد أن يوحد صفوف المؤتمرين .

وهكذا لم يسفر ذلك النصر المصطنع الذى وقع للينين عن شىء بعد بضعة شهور ، واشتدت وطأة خصومه عليه ، وتخلى عنه تروتسكى ، ألمع أنصاره وأشدهم ذكاء ؛ وأصبح ينزع إلى جانب « المنشفيك » — الأقلية — إن لم يكن فعلا من أنصارها المعلـَنين ، ورفض مارتوف ، صديقه الحميم ، الجلوس فى إدارة تحرير « إسكرة » فلم يلبث بليخانوف أن قويت شوكته ، وتمت قوته ، فأصر على إعادة صاحبيه أكسلرود وڤيرا زاسوليخ إلى مكانهما من مجلس الإدارة ، وبدأ أنصار لينين فى روسيا نفسها يتفرقون عنه ويتخلون .

وكان لينين الخبير بفن التراجع والانزواء ليستعيد قواه ، ثم يعاود القتال ليحسن البلاء فى كرة أخرى ، فاستقال من « إسكرة » وسائر أعماله الأخرى فى الحزب ، وانطلق مع كروبسكايا يوغل فى جبال سويسرا وهضابها .

وكان قد بلغ منه القلق كل مبلغ ، وتناهبته الهموم فى خلافه المستحكم مع « المنشفيك » ؛ حتى لم يأبه بذلك الهجوم الذى عمد اليابانيون إليه فى شمالبو ، أوائل عام ١٩٠٤ ، ولا رفع رأسه لينظر إليه أو يحفل به .

ودارت عجلة الأحداث مسرعة ، وانفرط العام وشيكاً ، وسقط بناء « بورت آرثر » فى الأول من يناير عام ١٩٠٥ وظل لينين مع ذلك مستخفاً بتلك الحرب غير مكترث ، فلم يزد على قوله بسبيل إعجابه بما فعلت اليابان : « أولئك اليابانيين التقدميين » .

ولقد وجد المـال سبيله إلى لينين ، فى ذلك الحين ؛ فقد استطاع فى ديسمبر عام ١٩٠٤ أن ينشئ صحيفة جديدة ، دعاها « ڤبريد » — أى إلى الأمام — لتكون معارضة لإسكرة ، وتولى تحريرها بنفسه ، واتبع فى إصدارها سياسة واضحة الخطوط ، وهى دحر المنشفيك واسترداد السيطرة على الحزب .

أشياع جـدد

ولقيت صحيفة « ڤبريد » ما لقيته دعايات لينين كلها من النجاح الباكر ، والتوفيق من البداية ، فما لبث أن راح يجمع من حوله فئة جديدة قوية من الأنصار ، كان من بين أفرادها أناتول لوناتشارسكى ، وهو ملحد يؤمن « بألوهية » الإنسان ، ومايروالاك الذى كان معروفاً باسم « مكسيم لتفينوف » ، وريكوف الذى أصبح بعدئذ أحد أعضاء المجلس السوڤيتى لقوميسيرى الشعب ، والفيلسوف الاقتصادى بوجدانوف .

فقد انضم أولئك الثلاثة إلى هيئة تحرير ڤبريد ، وكان لينين منهمكاً فى حملته الجديدة لشطر الحزب الديمقراطى الاشتراكى وتشتيت قواه ، حين جاءت من روسيا فجأة أنباء توشك أن تغير حياته كل التغيير ، وتبدل حياة كل امرئ سواه ، وهى أن اليابانيين أحدثوا أزمة فى بطرغراد ، وأن نار الثورة اندلعت فى البلاد .

وكان الشرطة ، والفريق القوى المكين من أهل الطبقة « البورجوازية » قد رأوا الخطر قادماً على الطريق ، فحاول كل منهم من ناحيته ، العمل على درئه ؛ وعمد فريق كبير من رجال الأعمال البارزين فى موسكو ، خلال الأشهر الأخيرة من عام ١٩٠٤ ، إلى الانضمام لطلبة الجامعات ، وجماعة المتحدثين بألسنة الأحرار والمتعلمين ، والموظفين ، وأعضاء مجالس « الزمستفو » (١)

(١) مجلس الإقليم .



زعماء الثورة القدامى — ويبدو لينين فى وسطهم وقد جلس مارتوف عن اليمين كما يبدو آخرون منهم فى عام ١٨٩٥ وقد ألفوا منهم رابطة لتحريض العمال على الثورة

فى الأقاليم ، فجعلوا يعقدون الاجتماعات لمطالبة الحكومة بالإصلاح ، فلا يتلقون منها غير رفض لا رفق فيه ، ولا سماحة تخفف من وطأته .

وكانت وزارة الداخلية من جانبها تحاول مواجهة الأزمة بأساليب أخرى ، وكانت فى عام ١٩٠١ قد أنشأت رابطة أو نقابة تشرف الحكومة عليها ، وتدعى « جمعية التعاون المتبادل لمصلحة العمال » فأخذت هذه الجماعة تشجع العمال على بسط ظلاماتهم ، وإيضاح مطالبهم بسبيل رفع أجورهم وتقليل ساعات العمل المقررة عليهم ، كما حرصت وزارة الداخلية على أن تتم الاجتماعات فى جو من الولاء للقيصر واحترام سلطانه .

وقد نجحت الفكرة فعلاً ، وجربت الاشتراكية « البوليسية » فى عدد من المناطق ، ولم تلبث أن أنشئت نقابات « رسمية » فى سائر الصناعات الكبرى .

ولكن هذا الجهاز لم يلبث فى نهاية عام ١٩٠٤ أن بدأ ينهار ، وتبين للعمال على الأيام أنهم يبحون أصواتهم ، ويقطعون أنفاسهم ، فى بسط شكاوى وظلامات مؤدبة مهذبة لا يتلقون عليها من أول الشأن أجوبة ولا ردوداً ، وأدركوا أنهم أحوج ما يكونون إلى العمل ، والاهتداء إلى زعيم ، فوجدوا كليهما فى قسيس أرثوذكسى يدعى الأب « جورج جابون » .

لقد كان جابون هذا شخصية قديمة فى الثورة الروسية ، وهو من طراز الذين أوتوا مقدرة محدودة ، وحماسة تدفعهم إلى تغيير الحياة ، إذا هم لزموا حدود قدرتهم ، وحصروا جهدهم فى عالم صغير ، ولكن الأقدار قد ألقت به فى وسط خطب عظيم لا قبل لمثله به ، ولا يدرك حقيقة مداه ، وهو من قوم فلاحين فى « أوكرانيا » ، وكان فى شبابه متأثراً بدعوة تولستوى إلى مجانبة العنف ، والأخذ بالرفق ، فى حل مشكلات العالم وقضاياه ، ودخل الكنيسة الأرثوذكسية ، ولكنه فى الواقع كان مصلحاً أكثر منه رجل دين ، ولو أنه اتخذ لنفسه

شعاراً سياسياً فى تلك الأيام لكان شعاره : « ليحى القيصر وليحقق الربُّ نظام العمل ثمانى ساعات فى اليوم » .

وكان جابون يبدو عام ١٩٠٥ شاباً فاتن الملامح فى الثانية والثلاثين ، ذا لحية سوداء محددة ، ووجه ناحل ، تلوح الطيبة على معالمه . وكان يومئذ قد أصبح معبود الجماهير ، وأمست المؤسسة التى أنشأها ، وهى اتحاد عمال المصانع الروس بمثابة حركة قومية .

ولم يكن البوليس معارضاً له ، بل لقد شجعه على إنشاء ذلك الاتحاد . والظاهر أن البوليس لم يساوره القلق أيضاً من اتصال « جابون » بمكسيم جوركى وسواه من الديمقراطيين الاشتراكيين .

لقد كان جابون الرجل الذى دفع بثورة ١٩٠٥ إلى النور :

ففى شهر يناير لجأ عمال المعادن فى بطرغراد الذين ينتمون إلى منظمة جابون إلى الإضراب أربعة أيام ، وحين رأى جابون أن هذا الإضراب لم يحدث أثراً ، قرر أن يتخذ أسلوباً أكثر بأساً ، وأبلغ مراداً ، فكتب فى ٢١ من يناير إلى القيصر رسالة يقول فيها :

« مولاى صاحب الجلالة :

« لا تصدق ما يقوله لك الوزراء ، إنهم يخدعونك فى حقيقة « الأحوال ، ويكذبون عليك ، إن الشعب بك مؤمن ، وقد أجمع « على الاحتشاد أمام قصر الشتاء فى الثانية بعد ظهر الغد ، ليرفعوا « إليك مطالبهم . جابون » .

ولم تكن هذه الرسالة « عريضة » بسيطة أخرى من تلك العرائض التى كانت ترفع إلى القيصر فيما مضى ، وقد أصبح لجابون فى مصانع بطرغراد الضخمة ، جماعات كبيرة من الأنصار والمشايعين ، وكان فى إمكانه أن ينتزع مظاهرة عامة فى الشوارع ، ويقود حشوداً حاشدة إلى القيصر ولكن هل تراه يستطيع أن يمسك بزمامها ، فلا يفلت من قبضته ؟ .

هذا هو السؤال . . .

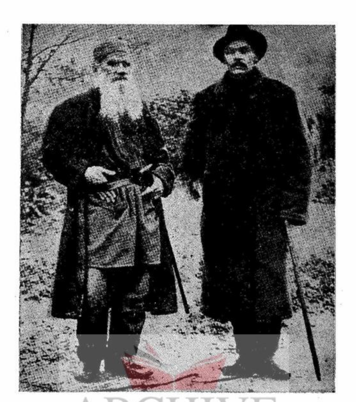
ووجد البوليس نفسه أمام محرجة ؛ فإن الرجل الذى ناصروه من قبل قد أمسى أكبر منهم شأناً ، وأمعن فى الجنوح إلى اليسار أكثر مما يجب ، حتى لقد شعر القوم فى ليلة الحادى والعشرين من يناير بأن البوادر توحى بأن شغباً خطيراً سوف يحدث فى المدينة .

وانتهى بالشرطة التفكير فى وجوب قمع المظاهرة ، بإلقاء رأسها وهو جابون — فى غيابة السجن ، ولكنهم لم يستطيعوا الاهتداء إليه ؛ فلم يبق أمامهم من حيلة إلا حشد قوات كبيرة من الشرطة والجنود فى المدينة والانتظار ريثما يأتى الغد وما هو عنه متمخض .

القيصر يغادر المدينـة

أما نيقولا ، قيصر روسيا الشاب العاجز ، فقد غادر بطرغراد ، وإذا كان قد تلقى رسالة جابون فلم ينزل إلى الرد عليها ، ولم يكن فى نفسه على أية حال أقلُّ نية فى استقبال مظاهرات من العامة والغوغاء . اصطحب أسرته ، وانتقل إلى قصره الصيفى فى زاريسكوى سيلو الذى يبعد خمسة عشر ميلا من المدينة ، ولم يعد إلى بطرغراد مطلقاً من ذلك الحين .

وفى الموعد المضروب ، وهو الثانى والعشرون من شهر يناير ، احتشد نحو مائتى من الرجال والنساء والولدان ، فى الشوارع المغطاة بالجليد ، حاملين صوراً للقيصر وأيقونات ، وعلى رأسهم الأب جابون ، وهم منطلقون فى طريقهم إلى قصر الشتاء ، هاتفين بحياة القيصر ، وقد حمل جابون فى يده عريضتهم التى يطالبون فيها بجعل مدة العمل ثمانى ساعات فى اليوم ، والحد الأدنى للأجور روبلاً واحداً — أى نصف دولار — ومنع الساعات الإضافية ، وتأليف جمعية تأسيسية ؛ وكان جابون يرجو أن يسلم بنفسه القيصر العريضة على حين يقف المتظاهرون خارج القصر فى الزمهرير وفوق ركام الجليد .



كاتبان روسيان خالدان : تولستوى . عن اليسار ومكسيم جوركى عن اليمين ، وكان لمؤلفاتهما أثر كبير فى بث روح الثورة

وكان مشهد تلك الحشود وهى ترسل الأناشيد فى الفضاء ، وتحمل الصور « والأيقونات » ، فى خمسة صفوف منفصلة ، متجهة شطر القصر ، جليلاً رائعاً بلا شك ، ولكن لعله كان أيضاً منذراً مروعاً ، ومهما يكن من الأمر ، فقد فزع له الضباط الذين عهد القيصر إليهم بمواجهة الموقف . وعندما رفض الزاحفون الوقوف ، فتح حراس القصر أفواه النيران عليهم ، مطلقيها من مسافة لا تتجاوز عشر ياردات ، أو عشرين ياردة صوب تلك الكتل البشرية المندفعة المتصايحة ، فكانت مذبحة بشعة ، تجاوز فيها عدد القتلى خمسمائة صريع ، وكان الجرحى عدة ألوف ، ولم يتذكر كل من خرج منها نجياً فيما بعد شيئاً غير منظر الدماء القانية فوق الجليد الأبيض ، وأصبح من السخف والخطل البالغ بعد اليوم أن يحسب نيقولا أو يتصور أنه لا يزال المحبوب من رعاياه الأولياء الخاضعين لمشيئته ؛ فقد أمسوا لا يذكرون شيئاً غير ذلك « الأحد الدموى » ، ومشهد الصرعى المجندلين أمام قصره .

وليس من شك فى أن القيصر ريع مما جرى ؛ فقد تلت مجزرة يوم الأحد الدامى سلسلة من حوادث الإضراب ومواكب متعددة من المظاهرات والشغب والإرهاب . وفى ١٧ من فبراير قتل خارج الكرملين الغراندوق سرجيوس أليكسندروفتش ، عم القيصر ، ومحافظ موسكو السابق ، ولم ينته ذلك العام حتى بلغ الذين قتلوا غيلة من كبار الموظفين ألفاً وخمسمائة أو يزيدون .

وتمكن الأب جابون من الإفلات من الاعتقال عقب المجزرة بالاختباء فى مسكن الكاتب الكبير مكسيم جوركى ، والتسلل بعدئذ عبر الحدود إلى فنلندة ، ثم

السفر منها إلى سويسرا ، حيث انطلق ينادى الساسة المبعدين إلى تناسى خلافهم ، وضم الصفوف ، لإحداث ثورة عاجلة فى روسيا ، ولكنه كان كمن ينبح القمر ؛ فقد ذهبت صيحته فى واد ؛ إذ كان كل من فريق بليخانوف — أو معاشر المنشفيك — وفريق لينين — وهم البلشفيك — فى شغل شاغل بإعداد مؤتمر له يناوئ به خصمه ، فلم يستجب أحد منهما لدعوته .

ولكن تروتسكى لم يكن من هذا الرأى أو ذاك ، بل راح يشهد الموقف من زاوية مختلفة ، فشرع يتهيأ للسفر إلى روسيا مبادراً غير متوان .

وليس من شك فى أن عام ١٩٠٦ يجب أن ينظر الناس إليه كعام مشهود فى تاريخ الحركة السرية الروسية ، بل هو عام تروتسكى وحده لا ينازعه أحد فيه ، حتى لينهض بارزاً فوق الآخرين جميعاً ، وهو المفكر فيه والمجاهد معاً ، ولم يكن تروتسكى إلا سليل أسرة يهودية من الزراع الموفقين ، وكانت نشأته ومراتع صباه فى سهول روسيا الواسعة الشاسعة ، ولم يكن تجاوز العشرين حين قبض عليه فى أوديسا . وقضى عامين ونصف العام قبل أن ينفى إلى سيبيريا الشرقية ، ولكنه كان الخبير بالفرار العريف بأساليبه ، ولم يثنه عن الجهاد أنه متزوج وله ابنتان ، واحتالت امرأته على تمكينه من الفرار ؛ إذ وضعت دمية كبيرة ملفقة فى فراشه ، وحين جاء الشرطة ليلقوا القبض عليه ، استطاعت إقناعهم بأنه مريض اشتدت العلة به فلا ينبغى إزعاجه ، فعرف كيف يعود إلى روسيا خفية بجواز سفر مصطنع .

وقد تخلى يومئذ عن اسمه الحقيقى ، وهو ليف دافيدوفتش برونشتاين ، ومضى بما عرف عنه من النزوع إلى السخرية والمجون ينتحل اسمًا جديداً ، وهو ليون تروتسكى ، وكان اسم أحد سجانيه فى أوديسا .

ولم يكن فى الحركة السرية الروسية رجل أكثر نشاطاً منه ولا أشد جهاداً ؛ فهو الذى نظّم الخلايا السرية ، وساهم فى صحيفة « إسكرة » وهرب من روسيا عام ١٩٠٢ فى مركبة نقل لبعض الفلاحين إلى أوروبا الغربية ، ولكنه الآن قد ترك بليخانوف ، وإكلسرود ولينين أبطاله القدامى ، وأصبح الزعيم الفعلى الثورى فى روسيا ذاتها .

ووصل تروتسكى إلى بطرغراد فى ربيع ١٩٠٥ ، فتبين له أن الموقف لم ينضج بعد حتى يمسى أزمة حازبة ، فلم يلبث الشرطة أن طاردوه ، ولكنه تمكن من اجتياز الحدود إلى فنلندة ، وكانت يومئذ ملاذ اللاجئين وموئل القصّاد من الثوريين ، وكانت لها حكومتها الذاتية ، وإن ظلت اسمياً جزءاً من الإمبراطورية الروسية ، ولم يكن القيصر يفتئت بحقوقها كثيراً أو ينتقص منها شيئاً .

وفى فنلندة ، وعلى مبعدة عشرين ميلاً فقط من بطرغراد ، كان الثوريون بمجرد اجتياز الحدود بسلام يتصلون دون مشقة بالحركة السرية فى المدينة ، ولم يلبث أن انضم إلى تروتسكى فى المخبأ باحث اقتصادى ، وكاتب ماركسى ، يدعى « بارفاس » كان قد ظهر له نشاط فى ألمانيا ، قبل منحدره إلى روسيا ، وأسهم فى الحركة السرية بنصيب كبير .

وكانت الهزيمة البحرية القاصمة التى أصيب بها الروس فى تسوشيما يوم ٢٧ من مايو أول حلقة فى سلسلة من الانفجارات وإحداث التمرد والعصيان ، فلم ينقض على تلك الهزيمة شهر واحد ، حتى تمرد بحارة البارجة « البرنس پوتمكين » Potemkine وظلوا بضعة أيام ينشرون موجة من الإرهاب فى أرجاء البحر الأسود ، وما كادت تنفد لديهم الميرة ، حتى أقلعوا إلى ساحل رومانيا ، فتمكنت السلطات من اعتقالهم ، وعندئذ توالت الثورات الوطنية فى بولندة ، وولايات البلطيق ، والقوقاز فى وقت واحد ، وجاءت الأنباء من كل مكان فى روسيا تتحدث عن أعمال السلب والنهب وإحراق المزارع التى عمد الفلاحون إليها فى كل ناحية .

وفى شهر سبتمبر ، عندما تم توقيع معاهدة الصلح المعيب مع اليابانيين ، وبدأ الجنود المتسخطون الموشكون على التمرد يعودون أدراجهم من الشرق ، بدأت الاضطرابات تشيع فى المدائن ، وكانت موسكو فى المقدمة ، حيث قام نزاع هادئ بين العمال فى دور الطباعة حول مسألة تتصل بالأجور ، وهى هل يحاسب الذين يشتغلون منهم بالقطعة على علامات الترقيم والفواصل ، أو لا يدفع لهم أجر عليها ؟ ولكن لم يلبث الإضراب الذى عمدوا إليه يومئذ ، وهو الإضراب الذى سمى « إضراب الشولة » أن أثار عطف الصناعات الأخرى فى سائر المدن ، وبادر عمال السكك الحديدية إلى الانضمام للمضربين ، فأمست العاصمة فى معزل ، وبدا كأن روسيا كانت منتظرة الإشارة لتهب هبة واحدة ، فانبرى من لم يكن أحد يرتقب منهم تمرداً — كأعضاء فرقة الباليه الإمبراطورية — يتقدمون جموعا جامعة لتنظيم المظاهرات احتجاجاً على الحكم القائم فى البلاد ، ولم تنقض عشية أو ضحاها حتى ظهرت اللافتات الثورية فى الشوارع العامة ، وخرجت الحشود للتظاهر حاملة أعلاماً حمراً رهيبة المشهد مشائم ، وانقطع سكان بطرغراد جميعاً ، أو جمهرتهم ، عن العمل ؛ فكان ذلك الحادث من أكبر أحداث الإضراب العام فى التاريخ .

وكان المنفيون فى الخارج قد بدءوا ينفضون عنهم غبار الجمود ، فبادر لينين إلى توجيه تعليمات مستفيضة إلى أشياعه فى روسيا ومريديه ، وإرشادات شتى بسبيل استخدام البنادق ، والمسدسات ، والقنابل والخناجر ، « والبونيات » النحاسية ، والهراوات ، والخرق النقيعة فى الزيت لإشعال الحريق ، والحبال المستخدمة فى التسلق والصعود ، والمحاريف الصالحة لبناء المتاريس والديناميت ، والأسلاك الشائكة ، وصغار المسامير لوقف خيل الفرسان عن المسير .

وفى وسط كل هذه الحوادث وقع حادثان خطيران :

فقد استطاع بول ملياكوف ، وهو مؤرخ ذائع الذكر ، وديمترى شيبوف رئيس مجلس الزمستقو فى موسكو أن يجمعا الأحرار البارزين فى حزب سياسى موحد الصفوف ، وهو الحزب الذى لم يلبث أن دعى « الحزب الدستورى الديمقراطى » واختصر اسمه بعد ذلك ، فأمسى يعرف عادة باسم حزب « الكاديت » ، ولم يكن أفراده اشتراكيين ، بل كانوا أشباه ثوريين ؛ إذ جعلوا يطالبون بنظام ديمقراطى نيابى على نسق البرلمان البريطانى وأرادوا أن يرغموا القيصر على منح البلاد دستوراً ، فناصروا حركة الإضراب .

ومن ذلك الحين أصبح حزب « الكاديت » أحد الأحزاب الثلاثة الكبرى فى روسيا ؛ فهم يقفون فى اليمين بجانب الديمقراطيين الاشتراكيين الماركسيين — الذين أصبحوا مقسمين إلى بلشفيك ومنشفيك — وبجانب الحزب الثورى الاشتراكى ، أو حزب الفلاحين ، وإن كان القيصر يومئذ هو خصمهم جميعاً .

وكان الحادث الآخر متصلا بتروتسكى ، فما كاد الإضراب يبدأ فى شهر أكتوبر عام ١٩٠٥ حتى عاد سراً إلى بطرغراد ، وعكف على تنظيم لجنة إضراب عامة لتكون مركزاً ومثابة للعمال ، وأنشأ مندوبو المصانع مجلساً مركزياً أى « سوفيت » ليتولى تنظيم حركة الإضراب فى بطرغراد ، ويوزع الأسلحة والمؤن ، ويدبر الخطط ، ويضع السياسة العامة ، ويصدر أوامره فى منشورات مطبوعة ، وينظم الحرس والمظاهرات ، ويعمل فى الواقع كمركز رياسة جيش فى الميدان .

ولكن هذا المجلس لم يطل به العمر أكثر من بضعة أسابيع ، وإن كان هو القالب الذى أفرغت فيه حركة الثورة الثانية عام ١٩١٧ .

وكان المنشفيك هم الذين يشرفون فى الغالب على السوفيت فى بطرغراد ، وحاول البولشفيك فى بداية الأمر مقاطعته ؛ فقد كان لينين ، سواء فى الخارج أو فى

روسيا ، لا يحب أى تنظيم لم يكن هو عليه المسيطر المشرف ، ولكن البلشفيك جاءوا فى النهاية إليه حين عرفوا من أى جانب ستهبُّ الريح .

وكانت الريح حقًا تهبُّ عاتيةً على القيصر وتؤذنه بعاصف شديد ، وبدا له أن روسيا كلها أصبحت متألبة عليه ، فاستسلم وأصدر بياناً بإيعاز الكونت « ڤيتى » وزير ماليته السابق ، يمنح فيه روسيا أول دستور فى تاريخها .

وكان هذا البيان المعروف بمانيفستو شهر أكتوبر بياناً متحفظاً حذراً يشكو « فقر الدم » ، وإن نصَّ على إنشاء برلمان منتخب ، وهو « الدوما » ولكن القيصر هو كدأبه الحاكم الأعلى ؛ فقد احتفظ نيقولا يومئذ بالإشراف المباشر على الجيش والبحرية ، والسياسة الخارجية ، ووزارة الداخلية ، ويقضى البيان بتوزيع السلطة التشريعية بين الدوما والمجلس الإمبراطورى ، وبأن يكون نصف أعضائه بالتعيين ، وللحكومة أيضاً الحق فى إصدار القوانين خلال غيبة البرلمان .

وكان ذلك بلا شك خطوة فى سبيل الديمقراطية ، ولكنها أرضت ملياكوف وحزب الكاديت ، بل فعلت أكثر من ذلك ، وهو إنهاء الإضراب ، ولم يكد البيان يذاع على الناس ، حتى سحبَ « الكاديت » تأييدهم للسوڤييت فى بطرغراد .

وأصبح نيقولا فى مركز يمكنه من العمل على مناوأة السوڤييت ، واتجه تفكير تروتسكى يومئذ إلى الدعوة لقيام ثورة مسلحة فى المدينة ، ولكنه فى النهاية عدل عنها إلى مشروع آخر عرضه عليه « بارفاس » ، وهو مطالبة العمال بالامتناع عن دفع الضرائب ، والسطو على البنوك .

وكانت تلك الخطة فعالة الأثر ؛ إذ ارتضت الحكومة تحت وطأتها إقرار مطالب أخرى على الأقل : كحرية الصحافة ، وإصدار عفو عام عن السجناء السياسيين والمبعدين .

وجاء لينين وامرأته إلى بطرغراد من الخارج مسرعين ، ولكن فاتهما القطار ؛ فقد ملت بطرغراد الاضطرابات وبرمت بها ، فلا غرو إذا فشلت الدعوة التى وجهها السوڤييت للقيام بإضراب عام . وكان تروتسكى قد ألقى القبض عليه ، ولم يلبث بارفاس وأكثر نواب السوڤييت أن زجَّ بهم فى السجون .

واستمرت « موسكو » تقاوم فترة قصيرة ، واستطاع العمال ، بفضل الأموال التى تلقوها من « صندوق » الثوريين ، وتشجيع لينين وتحريضه ــ الثبات فى النضال ، فوق الثلوج المتراكمة على أديم الشوارع ، فى المدينة ، حتى نهاية شهر ديسمبر ، ولكن الجيش أدار أفواه مدافعه نحو المضربين ، حتى أجلاهم عن متاريسهم ، وما إن حل اليوم الأخير من الشهر حتى خمدت الحركة ، وغمر المدينة سكون اختلط القلق فيه والخوف .

وكذلك كان ذلك العام عاماً صخَّاباً أخذ الناس جميعاً أخذةً رابية ، وترك الثوريين أسوأ حالاً مما كانوا من قبل ، ونجا لينين بأعجوبة ، فلاذ بفنلندة ، وكان بين جملة الذين اعتقلوا من أعضاء السوڤييت فى بطرغراد وحدها ــ وهم قرابة ثلثمائة ــ مائتان وأربعة وثمانون أطلق سراحهــم على مرّ الأيام تباعاً ، ولكن تروتسكى وبارفاس قضى عليهما بالنفى المؤبد فى أشدّ أصقاع سيبيريا زمهريراً ، وأتاها مكاناً ، وأما الأب جابون فقد انطلق إلى الخارج ليقضى بقية أيامه ، « مخبر بوليس » وهو يحسب أنه بالتجسس للشرطة محسن صنعا ؛ لأنه بذلك فى وهمه مستطيع أن يخدم قضية الثورة .

وقد لقى مصرعه فى فنلندة عام ١٩٠٦ .

وفى الحق أنه لم يكن لتلك الثورة الأولى من فضل يصح أن تدعيه ، غير ضم الصفوف حين تحزب الحوادث ، وتوحيد الجبهة حين تشتد الخطوب .

وكان تروتسكى إلى حد كبير صاحب ذلك الفضل . وهناك عامل آخر أدقُّ من ذلك وأخفى أثراً ، وهو

أن ثورة سنة ١٩٠٥ كانت تجربة أو تدريباً — أى « بروفة » — لثورة سنة ١٩١٧ .

لقد شعر أعضاء السوفييت يومئذ — أو على الأقل العنصر المنشفيكى فيهم — بأنهم ظفروا بشىء عابر من القوة ، كما أحس زعماؤهم أنهم لم يؤتوا بعدُ المقدرةَ على الاحتفاظ بتلكَ القوة وممارستها ، وأن الطريق السوىّ السليم هو السير على مهل ، وأخْذ الأمر بالأناة .

وهذا هو السر فى بقاء الثوريين منقسمين أشياعًا وطرائق على السنين القوادم .

أما نيقولا ، فقد بدا كأنه قد خرج ناجياً من ثورة سنة ١٩٠٥ فى سكون ودعة ، فلم تغير أحداثها شيئاً من أفكاره ، ولا أوهنت من إيمانه بالحكم الفردى : أو لم يفعل فى مواطن الحرج أكثر من الترخص فى بعض المطالب ؟ ولكن الحرج الآن قد زال ؛ فليس عليه من بأس أن يقبل على العام الجديد معتزماً أن يسترد ، فى أول فرصة مواتية ، ما فى وسعه أن يسترده من القوة التى اضطرّ مُحرجاً إلى التفريط فيها .

« الخاتمة فى العدد القادم »



جزائر البليار تحت السيادة العربية

بقلم الدكتور عبد الرحمن زكي

قبل الفتح

جزائر الباليار هى مجموعة من الجزر فى غربى البحر الأبيض المتوسط ، وأمام الساحل الشرقى لشبه جزيرة أيبيريا . وتطلق على الجزيرتين الرئيستين اللتين فى الشمال الشرقى وهما : جزيرة ميورقة أو مجوركة ، وجزيرة مينورقة أى الجزيرة الصغرى ، وثلاث جزر أصغر من هاتين هى : جزيرة كبريرا ومعناها جزيرة الماعز ، وجزيرة كنجيرا ومعناها جزيرة الأرانب ، وجزيرة دراجونيرا وهى فى الغرب .

وفضلا عن هذا يضم الأرخبيل مجموعة الجزر التى تسمى بتيوز أى جزر الصنوبر ، وأهمها يابسة Ibiza . وقد أطلق العرب على تلك المجموعة اسم جزائر شرق الأندلس أو الجزائر الشرقية .

وقد خضعت جزر الباليار لحكم الفينيقيين ، ويونان جزيرة رودس ، وأهل قرطاجنة ، وغزاها فى عام ١٢٢ ق.م كيكليوس متلوس بالياريكوس ، وشيد فى جزيرة ميورقة مدينتى پلما وپولنشيا ، ثم خضعت الجزر فى عام ٤٦٥ م لحكم الفاندال فى عهد جيسريش ، وظلت فى قبضتهم حتى ضمتها جيوش القائد البيزنطى بلزاريوس فى سنة ٥٣٤ م إلى الدولة الرومانية الشرقية .

الفتح العربي

ومنذ عام ٧٠٧ ، ٧٠٨ م كانت الباليار هدفاً للغارات العربية ؛ فقد سير القائد العربي موسى بن نصير بعض سفائن أسطوله لغزوها ، وغزا رجاله جزيرة ميورقة، وأسروا حاكمها [١] . وربما كانت أكبر غارة عليها فى عام ٧٩٧ ، ٧٩٨ م ، ولكن قوات شارلمان هاجمتها عام ٧٩٩ م وخلصتها مؤقتاً من السيادة العربية .

وفى عام ٨١٣ م عند عودة السفن الأندلسية من غاراتها على نيس وشفيتافيكيا وجزيرة قورشقة فاجأتها على مقربة من ميورقة السفن الفرنجية بقيادة كونت أمبورياس الذى استطاع إنقاذ خمسمائة أسير كانوا قد وقعوا فى أيدى العرب ، ثم استعد المسلمون فى عام ٨١٥م لغارة أخرى على الجزر ، وكانت فى حماية دولة الفرنج [٢] ويقال : إنه كان يشد أزرهم رجال النورمان ، لكنها لم تخضع لحكم العرب بصفة مستمرة إلابعد أن فتحها عصام الخولانى سنة ٢٩٠هـ (٩٠٣م) وضمها إلى أملاك الأمويين فى الأندلس [٣] . ومنذ ذلك الحين استقر العرب نهائياً فى جزر البليار ونصبوا حاكماً مسلماً عليها [٤] .

وقد أوضح ابن خلدون فى تاريخه المعروف ظروف استيلاء عصام على جزر الباليار ، فقال : إنه خرج حاجاً فى سفينة اتخذها لنفسه ، فعصفت بها الريح وأرسوا بجزيرة ميورقة ، وطال مقامهم هنالك ، فاختبروا من أحوالها ما أطمعهم فى فتحها ، فلما رجع بعد تأدية

(١) ابن عذارى : البيان . نشر دوزى ج ٢ ص ٣٠ .

(٢) Campaner y Fuertes : Bosquejo Historico de la Dominacion Islamica en las islas Baleares. Palma. 1881, p. 10-17.

(٣) قبل حملة عصام بعث عبد الرحمن بن الحكم أمير الأندلس تجريدة بحرية إلى ميورقة فى سنة ٨٤٧ م أخضعتها وفرضت عليها الجزية .

(٤) المرجع السابق ذكره ص ٤٠–٥٦ . Campanery Fuertes

فرضه ، أخبر الأمير عبد الله بما رأى فيها ، فبعث معه القطائع فى البحر ، ونفر الناس معه إلى الجهاد فحاصروها أياماً وفتحوها حصناً حصناً إلى أن كمل فتحها ، وكتب عصام بالفتح إلى الأمير عبد الله ، فكتب له بولايتها فوليها عشر سنين ، وبنى فيها المساجد والفنادق والحمامات ، ولما هلك قدم أهل الجزيرة عليهم ابنه عبد الله وكتب له الأمير بالولاية ، ثم زهد وترهب وركب إلى الشرق حاجاً وانقطع خبره وذلك سنة ٣٥٠ هـ (٩٦١ م) وبعث الناصر المروانى إليها الموفق من الموالى ، فأنشأ الأساطيل ، وغزا بلاد الإفرنج ، وهلك سنة ٣٥٩ هـ (٩٧٠م) أيام حكم المستنصر ، وولىَ بعده كوثر من مواليه فجرى على سنن الموفق فى جهاده ، وهلك سنة ٣٨٩ هـ (٩٩٨ م) أيام المنصور فولى عليها مقاتل من مواليه وكان كثير الغزو والجهاد . وكان المنصور وابنه المؤيد يمدانه فى جهاده ، وهلك سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢م) أزمان الفتنة [١] .

وكانت جزر الباليار عرضة لغارات سفن الدول الأوروبية والقراصنة الفرنج : فقد ذكر الرحالة العربى ابن حوقل أنه حوالى عام ٩٧٢ م قام الروم بهجمات بحرية ضد سواحل البلدان الإسلامية المطلة على غربى البحر المتوسط وأنهم استولوا على عدة سفن لهم ، كما سلبوا بضائع التجار واعتدوا عليهم [٢] .

ونلاحظ أن الرحالة المقدسى بعد ١٥ سنة كرر ما قاله ابن حوقل ، وأوضح كيف تقوم قبرص بحماية سورية ، وكريت بوقاية مصر ، كما تحمى صقلية شمالى إفريقية . وهكذا نراه ينظر إلى تلك الجزر من زاوية الأهمية العسكرية .

ولم ترض الدول المسيحية باستقرار العرب فى تلك الجزر بدليل الغارات المستمرة التى قامت بها سفن

(١) تاريخ ابن خلدون . ج ٤ ص ١٦٤ – ١٦٥ .

(٢) ابن حوقل : ترجمة لامارى فى المكتبة العربية الصقلية ج ١ ص ٢٧ .

بيزنطية تؤازرها بعض البلدان الإيطالية ، وصارت سفنها تغدو وتروح بأمان ، ولكن الصقليين والأندلسيين عرفوا وسائل مقاومتهم ، وكانوا يطاردون سفائن أعدائهم لكى تبعد عن مياههم الإقليمية وعن خطوط سير ملاحتهم .

وما كاد ينتهى القرن العاشر حتى رأينا البحر المتوسط الشرقى لم يعد بحيرة إسلامية كما كان من قبل ، على عكس القسم الغربى منه الذى ظل تحت سيطرة العرب إلى منتصف القرن الحادى عشر . . . طالما كانت صقلية وجزر الباليار فى قبضتهم ، على حين كانت سردانية فى موقف الحياد بين الجبهتين الإسلامية والمسيحية .

وهكذا احتمى شمالى إفريقية والأندلس بفضل سيادة البحر العربية . . . وهذا مافقدته مصروسورية إلى حين .

وليس معنى هذا أن كل شيء كان هادئاً فى الجبهة الإسلامية الغربية ؛ فقد بدأت الأخطار تهدد الدولة الأندلسية فى داخلها !

فى أوائل القرن الحادى عشر وفى أعقاب وفاة الخليفة المنصور اضمحلت حكومة الخلافة الأموية فى الأندلس ، وبدأت تذبل أمجاد السيادة البحرية التى قامت بفضل التنظيم البحرى الفائق الذى وضع أساسه عبد الرحمن الثالث ، ولم يستطع ملوك الطوائف وأمراؤهم الذين تقلدوا السلطة فى ظروف سادتها الكوارث والفوضى ، أن يحافظوا على نشاط القوات البحرية واستخدامها كأداة قوية لدرء الأخطار عن بلادهم . . . ولا نجد إلا القليلين من الأمراء الناجحين الذين يتسمون بالجرأة ، من بينهم أبو الجيش مجاهد ملك الطوائف فى دانية ؛ فقد سارع فى بناء أسطول وتنظيمه عام ١٠١٤ م ثم مد سلطانه عبر البحر واستولى على جزر الباليار وضمها لدانية [1] ، وسرعان ما أرسل سفن أسطوله لإثارة الرعب فى غربى البحر المتوسط .

دانية

ودانية أو دنية كما ينطقها إسبان اليوم مدينة شرقى الأندلس على البحر ، وعلى الطرف الجنوبى الشرقى من خليج بلنسية ، وكان عليها سور حصين ، وسورها من ناحية المشرق فى داخل البحر قد بنى أيام العرب بهندسة وحكمة ، ولها قصبة منيعة جدا ، وهى على عمارة متصلة وشجرات تين كثيرة وكروم . ويقول عنها الشريف الإدريسى فى نزهة المشتاق : إنها مدينة تسافر إليها السفن ، وبها أنشئ أكثرها ؛ لأنها دار إنشاء السفن ، ومنها تخرج إلى أقصى المشرق ، ومنها يخرج الأسطول للغزو .

وكانت دانية إحدى كور مقاطعة ألقنت الجنوبية التى تشكلت منها مملكة بلنسية العربية ، ويضاف إليها مقاطعتان أخريان ، وهما قشتالة وبلنسية . وقد كان لدانية شأن كبير فى زمن عبد الرحمن الأول الأموى ، وتعاظم شأنها فى أيام ملوك الطوائف بعد سقوط الخلافة سنة ١٠١٣ م ؛ فقد نجاها مجاهد العامرى مولى عبد الرحمن بن المنصور ، واستولى عليها من عام ١٠١٥ م إلى عام ١٠٣٠ م ، وكذلك على جزر الباليار ، وأراد الاستيلاء على سردانية ، ثم خلفه ابنه على إقبال الدولة ، فلكها من سنة ١٠٤٤ م إلى سنة ١٠٧٦ م ، ولم يزل فيها إلى أن انتزعها من يده المقتدر بن هود ملك سرقسطة فبقيت تابعة لسرقسطة إلى عام ١٠٨١ م . ثم إنه عندما تقاسم أولاد المقتدر بن هود مملكة أبيهم خرجت دانية مع لاردة وطرطوشة فى حصة المنذر من أولاد المقتدر فبقيت تحت طاعته إلى عام ١٠٩٠ م ، ثم وليها سليمان سيد الدولة إلى عام ١٠٩٢ م وتعاقب عليها الولاة من قبل المرابطين والموحدين كما سيأتى الكلام عنهم . وفى عام ١٢٢٨ م استرجعها الإسبان من المسلمين على يد القائد الألمانى كرّوس Carroz الذى كان قائد جيش خايم الأول ملك أراغون .

---

(١) النويرى ج ١ ، ص ١١٠ .

وقد خرج من دانية علماء وفقهاء كثيرون ربما كان من أشهرهم المفسر الكبير أبو عمرو عثمان بن سعيد الدانى .

أبو الجيش مجاهد العامرى

هذا ماكان من شأن دانية التى خرج منها البطل العربى أبو الجيش مجاهد الموفق العامرى . ومجاهد هذا هو ابن يوسف بن على من فحول الموالى العامريين ، وكان المنصور عبد العزيز بن عبد الرحمن الناصر قد رباه وعلمه مع مواليه القراءات والحديث والعربية ، فكان مجيداً فى ذلك ، وخرج من قرطبة يوم قتل المهدى سنة ٤٠٠ هـ (١٠٠٩ م) وبايع هو والموالى العامريون وكثير من جند الأندلس المرتضى . وبعد قتل المرتضى تقدم مجاهد وسار إلى طرطوشة ،فملكها ثم تركها وانتقل إلى دانية واستقل بها . ولما أتم العدة اجتاز البحر وضم جزر الباليار إلى إمارته ؛وهكذا ملك ميورقة ومينورقة ويابسة ، وكان ذلك فى عام ٤٠٥ هـ (١٠١٤ م) .

وكان مجاهد قد نصب العيطى على حكم الجزر ، فأراد الاستبداد ومنع طاعة مجاهد ، فمنعه أهل ميورقة من ذلك ، وسرعان ما أوفد مجاهد نيابة عنه عبد الله ابن أخيه فولى خمس عشرة سنة ثم مات .

وولى مجاهد على ميورقة بعد ابن أخيه مولاه الأغلب عام ٤٢٨ هـ (١٠٣٥ – ١٠٣٦ م) واستمر هذا يحكم الجزيرة[١] حتى توفى مجاهد سنة ٤٣٦ هـ (١٠٤٤ م) فولى ابنه على وتسمى إقبال الدولة .

قلنا : إن مجاهداً كان رجل جهاد فى البر والبحر ، فلما استتب له الأمر فى الباليار قام على رأس أسطول مؤلف من مائة وعشرين سفينة (عام ١٠١٥ م) لمهاجمة سردانية واحتلالها ، وقد نجحت غزوته ، وعاد منها ظافراً يحمل رجاله الغنائم[١] ولم يكتف بهذا القدر من الفوز فيمم شطر الساحل الإيطالى وهاجم لونى ووطئت أقدامه عدة أراض ساحلية فى شبه الجزيرة . وأمام هذا الخطر اتحد أهل جنوة وبيزة ضده ، وتمكنوا من الانتصار على أسطوله أمام سردانية . وفى العام التالى صمموا على طرده نهائيا من الجزيرة[٢] ، ومع ذلك ظلت سفائنه تهدد شواطئ البلدان المسيحية . وفى عام ١٠١٨ م قام بغارة عنيفة على برشلونة ، كما هاجم نربونة عام ١٠٢٠م. واستمر مجاهد محتفظاً بسطوته وبأسه حتى وفاته[٣] .

ويذكر أبو الفتوح ثابت بن محمد الجرجانى أنه كان مرافقاً لمجاهد أثناء فتح سردانية ويقول لنا عن هذا الحادث الهام ما يلى :

« كنت مع أبى الجيش مجاهد عندما غزا سردانية ، فدخل بالمراكب فى مرسى نهاه عنه أبو خروب رئيس البحريين ، وهبت ريح فجعلت تقذف مراكب المسلمين مركباً مركباً إلى الريف ، والروم وقوف لا شغل لهم إلا الأسر والقتل فى المسلمين ، فكلما سقط مركب بين أيديهم جعل مجاهد يبكى بأعلى صوته ، لا يقدر هو ولا غيره على أكثر من ذلك لارتجاج البحر وزيادة الريح ، وكان أبو خروب يقول: «قد كنت حذرته الدخول هاهنا فلم يقبل »[٤] . . . ثم عاد مجاهد إلى الباليار . . .

وقد قال حيان بن خلف عن مجاهد : إنه كان من أمراء دهره ،وأديب ملوك عصره ، لمشاركته فى علوم اللسان ونفوذه فى علوم القرآن ، عنى بذلك من صباه إلى اكتهاله ، ولم يشغله عن ذلك عظيم ما مارسه من

---

(١) كان الأغلب صاحب غزو وجهاد فى البحر ، ولما توفى مجاهد استأذن ابنه عليا فى الزيارة فأذن له وقدم على الجزيرة صهره ابن سليمان نائباً عنه .

---

(١) ابن الأثير ج ١ ص ١٩٥ و ٢٠٥ وانظر أيضاً : Dove: De Sardinia Insula. Berlin 1866. pp. 50. 63.

(٢) Dove. pp. 65-67.

(٣) Archibald Lewis : Naval Power and Trade in the Mediterranean. p. 198.

(٤) شكيب أرسلان : الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية . عام ١٩٣٩ . ج ٣ ص ٢٩٩ .

الحروب برا وبحراً حتى صار فى المعرفة نسيجَ وحدِه . وجمع من دفاتر العلوم خزائن جمة . وقد كان من الكرماء على العلماء باذلا للرغائب فى استمالة الأدباء ، وهو الذى بذل لأبى غالب اللغوى « تمام بن غالب »(١) ألف دينار ، على أنْ يزيد فى ترجمة الكتاب الذى ألفه فى اللغة قوله : « مما ألفه لأبى الجيش مجاهد » فرد الدنانير وأبى وقال : « والله لو بذلت لى الدنيا على ذلك ما فعلت ولا استجزت الكذب فإنى لم أجمعه له خاصة ، لكن لكل طالب عامة » . وقد ألف مجاهد كتاباً فى العروض يدل على قوته فيه(٢) .

جزر الباليار بعد مجاهد

وفى أخريات القرن الحادى عشر كان الموقف العسكرى فى شبه الجزيرة الأيبيرية يتطور فى مصلحة المسيحيين ، مما دفع الملاحين الإيطاليين لانتهاز الفرصة والتدخل . . . ثم تعاون المغامرون من الشمال وجنود الممالك الإسبانية المسيحية تشد أزرهم جميعاً الكنيسة . وقد وجد هؤلاء جميعاً فى الدويلات الأندلسية الإسلامية ظروفاً طيبة للغزو والسلب والنهب وكان ذلك حوالى ١٠٨٦م .

وقد تمكن ملك قشتالة فى عام ١٠٨٥م من احتلال طليطلة وتوسيع حدوده نحو الجنوب (٣) ، ثم ضيق الخناق حول إمارة إشبيلية الإسلامية ، وأرغم حاكمها على دفع الجزية ، وذلك بعد ما تغلغلت قواته فى أرضه متجهة إلى الجنوب (٤) ، وفى الوقت نفسه انتهز « السيد » تلك الفرصة ، فهاجم إمارة بلنسية ، وساعدته الظروف المواتية على العون الذى أمدته به سفن الإمارات الإيطالية التى

(١) هو أبو غالب تمام بن غالب بن عمر المعروف بابن التيانى المرسى ، توفى عام ٤٣٦ هـ ، ١٠٤٤—١٠٤٥م .

(٢) شكيب أرسلان : الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية . جـ ٣ ص ٢٩٣ — ٣٠١ .

(٣) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٢٨ .

(٤) Hitti, History of The Arabs. p. 540.

هاجمت مدن السواحل الأندلسية لتفوز بنصيبها فى الغنائم ؛ وهكذا أتيح لهم مطالبة « المرية » بغرامة كبيرة ، كما أرغموا بلنسية على دفع عشرين ألف دينار إذا أرادت النجاة من الاعتداء عليها . . . وتعرضت جزر الباليار لحملات متكررة فى أوائل القرن الثانى عشر . وكان من نتائج ضعف القوات الساحلية الإسلامية أن وجه المسيحيون انتقامهم ضد بارى (جنوبى إيطاليا) ومونتى كاربليانو وفراكسينتم(١) .

ولقد سبق الكلام عمن ولى الحكم فى جزائر الباليار بعد وفاة مجاهد سنة (١٠٤٤ م) ، ونتمم الآن حلقات السلسلة فنقول :

استقلت الباليار فى عهد المرتضى عبد الله من سنة (١٠٧٥ — ١٠٩٣ م) ، ومباشر بن سليمان من سنة (١٠٩١ — ١١١٥ م) وأبى ربيع سليمان . وفى السنة التى تولى فيها هذا الملك الأخير ، أى عام ١١١٥م ، فتح المرابطون جزر الباليار وظل يحكمها من قبلهم ابن أبى بكر إلى سنة ١١٣١ م . ثم حكمها بنو غانية من عام ١١٣١ م إلى ١٢٠٢ م ، وهم أمراء من المرابطين مستقلون ، ونذكر منهم محمد بن على بن غانية الذى حكمها من عام ١١٣١ إلى ١١٥١ م وابنه أبا إبراهيم إسحق بن محمد الذى حكمها من سنة ١١٥١ إلى ١١٨٥ م(٢) .

وتعاقب على حكم الجزر حكام من دولة الموحدين من عام ١٢٠٤ إلى ١٢٢٩ م ، وظلوا يحكمونها إلى أن فتحها نهائيا خايم (أو جيم) الأول ملك أراغون فى عام ١٢٢٨ م .

وفيما بين عامى ١٢٣٢ و١٢٨٦ م ظل الحكيم أبو عثمان سعيد بن الحكم القرشى والياً على مينورقة من قبل ملك

(١) Archibald Lewis : Naval Power and Trade in the Mediterranean. p. 233-234.

(٢) Les Benou Ghânya, derniers representants de l'empire almoravide. Alfred Bel. Paris 1903.

أراغون ، وكان يلقب بالمشارف ، وقد كانت سلطته عليها اسمية فقط ، وظلت كذلك إلى أن أجلى العرب جميعهم . . . [١]

وممن اشتهر فى ميورقة المؤرخ الحميدى[٢]. وينسب إليها أبو الحسن الميورقى الشاعر الأديب المتوفى سنة ٤٧٧ هـ (١٠٨٤ م) ببغداد[٣]. وقد توفى فيها أبو محمد ابن حمد يس الصقلى الشاعر سنة ٥٢٧ هـ (١١٣٢ م) .

وينسب إليها أيضاً يوسف بن عبد العزيز أبو الحجاج اللخمى الميورقى الفقيه المالكى الذى رحل إلى بغداد وتفقه بها مدة ، وقدم دمشق سنة ٥٠٥ هـ ، والحسن بن أحمد ابن عبد الله أبو على الغافقى الميورقى الفقيه المالكى (المعروف بابن العنصرى) ، وقد ولد بميورقة سنة ٤٤٩ هـ ، وطاف فى أنحاء العالم الإسلامى ، ثم رجع إلى بلده سنة ٤٧١ هـ (١٠٧٨ م) ، وقد حشد العلامة ياقوت الحموى عدداً ضخماً من علماء ميورقة فى معجمه المعروف ؛ ومع أن العرب كانوا قد استقروا فى الباليار مدة لا تقل عن ثلاثة قرون فإن تراثهم لا يقارن بما خلفه العرب فى صقلية .

أثر العرب فى الباليار

وإلى جانب التراث العربى الميورقى ما زالت إلى اليوم بجزيرة ميورقة عدة بلاد وقرى تحتفظ بأسمائها العربية : مثل بنى سالم أو بنى عبد السلام ، وبنى على أو بنى العالى Beniali وقصر المدينة Almudania ؛ كما توجد أسماء ميورقية ترجع إلى أصول عربية مثل Bennasar وهو ابن نصر . . . إلخ [١]

ويحتفظ القسم الأوسط من مدينة ميورقة (بالما دى ميورقة) وهى عاصمة جزر الباليار بطابع العصور الوسطى ، وفيه معظم معالم ميورقة الأثرية ولا سيما الإسلامية . وتكاد هذه المعالم تختفى اليوم تحت أثواب التجدد .

وما زالت هناك فى تلك المدينة — وكانت تعرف باسم مدينة مجاهد — بعض المعالم الأثرية التى تحدد مواقع المدينة الأندلسية وإن كنا لا نعلم تاريخ إنشائها بالدقة . وقد كان هذا الموقع يمتد من البحر شرقى الميناء شمالا حتى نهاية المدينة الحالية ، وشرقاً حتى ميدان الفتح وميدان إسبانيا وشارع بريمو ريڤيرا ، وغرباً حتى شارع الجمهورية الفضية . وقد كان للمدينة فى العصور الوسطى ستة أبواب وردت أسماؤها جميعاً فى وثيقة تقسيم ميورقة العربية اللاتينية التى تحتفظ بها دار المخطوطات بمدينة ميورقة[٢] . وهذه الأبواب هى : باب البلد فى الشرق وباب الكحل وباب البلياط وباب السراجب فى الشمال وباب برتبين فى الغرب وباب الحديد فى الجنوب الغربى مما يلى البحر . وكان يخترق المدينة الأندلسية من وسطها الشارع الكبير ، وهو الذى يحتل مكانه اليوم شارع الفاتح ، ثم الميدان الكبير ، ثم شارع سان ميجيل حتى باب البلياط فى الشمال .

ولم يبق من عقود الأبواب الأندلسية القديمة سوى عقد باب المدينة ، وهو فى وسط شارع المدينة ، ويعتبر هذا الشارع الصخرى العتيق من أقدم شوارع ميورقة[٣] .

وفى متحف الجمعية الأثرية بهذا الشارع قطع من شواهد قبور إسلامية على بعضها نقوش بالخط الكوفى باسم المتوفى أو سنة وفاته .

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ، مادة باليار .

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن فتوح الأزدى الحميدى (١٠٢٩ — ١٠٩٥ م) صاحب معجم أبجدى لعلماء الأندلس قدم له بموجز فى تاريخ جزيرة ميورقة وقد كتب الحميدى هذا المعجم فى بغداد

(٣) نحتفظ من شعر أبى الحسن البيتين الآتيين :

وسائلة لتعلم كيف حالى	فقلت لها : بحال لا تسر
وقعت إلى زمان ليس فيه	إذا فتشت عن أهليه حر

---

(١) محمد عبد الله عنان : الآثار الأندلسية الباقية فى إسبانيا والبرتغال . ص ١٠٨ .

(٢) المرجع السابق ذكره : ص ٩٩ و ١٠٥ .

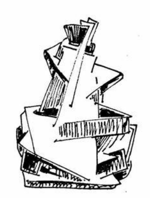
(٣) المرجع السابق ذكره : ص ١٠٢ .

جزر الباليار اليوم

ظلت الجزر مملكة مستقلة حتّى عام ١٣٤٩ م عندما اندمجت فى مملكة أراغون ، وفى عام ١٥٢١ شبت ثورة كان الفلاحون عمادها وطردت أشراف ميورقة ، وبعد أعوام هدأت الأحوال . وفى حرب الوراثة الإسبانية أعلنت الجزر انضمامها لشارل ، ولكن الكونت فيلارز تمكّن فى عام ١٧١٥ من إخضاع الجزر ، ووطئت أقدام الجيوش للإنجليزية أرض ميورقة ، غير أن قوة فرنسية استطاعت فى عام ١٧٥٦ أن تحتل بورت ماهون وتطرد الإنجليز منها . وفى عام ١٧٦٣ عاد هؤلاء إليها مرة أخرى ، واستقروا بها حتّى استولوا عليها الإسبان فى عام ١٧٨٢ ، ثم استعادها الإنجليز عام ١٧٩٨ أثناء النضال الفرنسى الإنجليزى فى أيام نابليون . وكان من شروط صلح إميان سنة (١٨٠٢) ضمها إلى إسبانيا ، وهى ما زالت فى يدها حتّى اليوم.

وتبلغ مساحة جزر الباليار نحو ١,٩٣٦ من الأميال المربعة ، ويقدر عدد سكانها بـ ٤٢٣ ألف نسمة . وهم يشبهون كثيراً شعب قطالونية وإن كانت تغلب عليهم السمات المغربية ، كما تحتفظ غالبيتهم بالعادات والتقاليد العربية . ويندر ارتكاب الجرائم بينهم . ويتحدث السكان باللغة القطالونية والإسبانية ولهجات أخرى . وتعيش جالية فرنسية بسوللر فى ميورقة .

وللباليار مكانة سياحية ممتازة ، ويقصدها السائحون من غربى أوروبا صيفاً وشتاء ، وتنتشر فيها الفنادق الطيبة والاستراحات والمطاعم ومكاتب شركات السياحة ؛ ولذلك ترتبط بإسبانيا بوساطة خطوط الطائرات المنتظمة فضلا عن خطوط الملاحة التى تمخر سفنها بين برشلونة وبلنسية وألقنت وطركونة على الساحل الإسبانى وبين جزيرة ميورقة . كما تتصل بعض جزر الأرخبيل ببعض بوساطة السفن البخارية الصغيرة .



الفلسفة هي التربية

بقلم الدكتور أحمد فؤاد الأهواني

يغلب على أوهام العامة من الناس ، بل على أوهام كثير من المشتغلين بالفلسفة ممن يسمّون بالمتفلسفة ، أن هذه الصناعة مما يختص به فريق من المفكرين يعيشون فى أبراج عاجية مع تأملاتهم ، بل ليتهم كانوا يتأملون فيستمدون الفكر من وحى النفس وسوانح القلب وخواطر العقل ، وإنما يحفظون عبارات جوفاء جاءت عبر التاريخ منذ أيام أفلاطون وأرسطو ، يرددونها كما تردد الببغاء دون فهم ، ثم يزعمون أن هذه المصطلحات هى الفلسفة .

ولعلك تعرف أن هذا اللون من الفلسفة يسمى «بالمدرسية» نسبة إلى ما كان يدرس فى المدارس فى العصر الوسيط ، ويدور فيه البحث حول شرح الألفاظ ، وشرح المتون ، وشرح كتب الأولين ؛ ولذلك ماتت الفلسفة على أيدى المدرسيين ، وورثناها اليوم عنهم جثة هامدة .

فماذا كانت الفلسفة زمان حياتها وازدهارها على أيدى قادتها الذين أنشئوها ورفعوا لواءها ، وهم : سقراط وأفلاطون وأرسطو ؟

كانت متصلة بالحياة ، فاكتسبت من هذه الصلة حياتها .

والحياة التى نعنيها ، والتى تختص الفلسفة بالبحث فيها أول كل شىء ، هى الحياة الإنسانية ، وهى الحياة الاجتماعية ، فكان مدار البحث حول الإنسان ، كيف ينبغى أن يسلك فى هذه الحياة ليكون رجلا فاضلا ؟ وكيف يسلك فى الدولة حتى تكون المدينة فاضلة ؟

فالغاية القصوى للفلسفة هى الخير الذى لا يستقيم إلا على قواعد من العدل والحق والجمال .

وقد نظر الفلاسفة من قديم الزمان فى أمر المجتمع الذى يعيشون فيه ، فرأوا أنه مزيج من الخير والشر ، وخليط من الحسن والقبح ، ورأوا بعض الناس يفعل اللائق ، وبعضهم يفعل الأليق ، وبعضهم يسلك سبيل الصلاح ، وبعضهم يسلك سبيل الأصلح ، وبعضهم يبغى الحسن ، وبعضهم يبغى الأحسن .

ومن هنا دار البحث حول الحسن والأحسن والصالح والأصلح ، والفاضل والأفضل ، واللائق والأليق . ولا جرم أن الأصلح أفضل من الصالح ، والأفضل أصلح من الفاضل ، والأحسن أرقى من الحسن ؛ فنصح الفلاسفة باتباع الأحسن والأفضل والأصلح ، ذلك الذى إذا اجتمع فى المدينة كانت هى المدينة الفاضلة ، أو المجتمع المثالى ، أو « الطوبيا » فى اصطلاح بعض الفلاسفة .

ولكن كيف السبيل إلى تغيير المجتمع المعاصر إلى مجتمع مثالى أرقى وأفضل ؟ أيكون ذلك بالنصح والإرشاد وكتابة الكتب التى يقرؤها الناس ، والوعظ من فوق المنابر ؟ وهل يجدى ذلك مع قوم رسخت فى أنفسهم العادات ، ونزلت منهم التقاليد منزلة الطبائع ؟

لقد أنعم أفلاطون النظر فى هذه المسألة ، فرأى أن الكتابة وحدها لا تجدى ، بل الرأى عنده أن الفلسفة لا تُكتب ، وإنما السبيل إلى تغيير المجتمع هو « تربية الشباب » طبقاً لنظام مرسوم يتفق مع الميول النفسانية بحسب ما تصورها ؛ ولذلك كانت « جمهورية » أفلاطون بحثاً يدور حول التربية ، وكيف نعلم الصبيان ،

فنبدأ باللغة والأدب حتى يبلغ الصبيان مبلغ الشباب ، ثم نعلمهم الموسيقى والرياضة البدنية ، ثم بعد ذلك نأخذهم بالعلوم المختلفة وبخاصة الحساب والهندسة ، حتى إذا بلغوا الثلاثين من العمر شرعوا فى تعلم الفلسفة ؛ وعندئذ يتسنى لهم أن يصبحوا حكام المدينة .

وقد ورث أفلاطون هذه النظرية التى توحد بين الفلسفة والتربية من معلمه سقراط الذى كان يعلم الشباب فى الأروقة والملاعب والبساتين ، يريد بذلك أن يجلو أنفسهم ، وأن يعلمهم حرية الفكر ، والنظر فى الشرائع والقوانين والعادات والتقاليد .

وأثمرت تعاليم سقراط ، وأفلاطون ، وأرسطو ؛ واستطاعوا بما بثوه من تعاليم وفلسفات أن ينقلوا الحضارة خطوة جبارة إلى الأمام . وتغير المجتمع ، وأصبح يقوم على دعائم من العلوم التى ابتدعوها ونظموها ، وعلى الفلسفة التى توجت هذه العلوم .

* * *

وورث العرب علوم اليونان وفلسفتهم ، وأثرت فى حضارتهم ، ولكن العرب كانت لهم إلى جانب ذلك فلسفة أخرى نبعت من الإسلام ، واعتمدت على القرآن والسنة ؛ ولذلك كانت التربية الإسلامية ثمرة هذه الفلسفة التى تجمع بين الدين والعلم ، فيتعلم الصبيان القرآن وما يتصل به من علوم كالنحو واللغة والأدب ، ثم يتعلمون شيئاً من الحساب الضرورى فى المعاملات ، وإذا اتصل تعليم الصبى حتى يذهب إلى المدارس تعلم علوماً أخرى أرقى كالهندسة والفلك والطب والعلوم الفقهية والشرعية وغير ذلك . ولا يمكن أن تفهم الحضارة الإسلامية ، وكيف ازدهرت إلا على أساس هذه التربية ، ولا يمكن فهم التربية الإسلامية إلا بفهم الفلسفة التى كانت توجهها .

* * *

ونحن اليوم فى عهد الثورة قد صنعنا فلسفة حديثة ، أبرزها الرئيس « جمال عبد الناصر » فى كتابه « فلسفة الثورة » ، وصوَّر فيه هذه الفلسفة أنها تغيير فى القيم بين القديم والحديث ، وأنها محاولة لتصفية التقاليد من الشوائب ، والاحتفاظ بما فيها من محاسن ، واتجاه نحو الحضارة الحديثة لنأخذ منها ما يلائم طبيعتنا .

إنها فلسفة « تقدمية » لا تقف عند جمود التقاليد ، وتسعى إلى مسايرة العالم المعاصر بما فيه من تقدم هائل ، بل انقلاب سريع ، فى الفنون والصناعات والعلوم .

وهذا هو الأصل الذى اعتمدت عليه حكومة الثورة فى المناداة بالتصنيع ، والأخذ بنظام اشتراكى ، والقضاء على الإقطاع ، وغير ذلك من إجراءات خطيرة غيرت من نظام الدولة ، ولا يزال التغيير يأخذ مجراه .

* * *

وإذا كانت هذه الفلسفة الجديدة التقدمية ، قد لقيت نجاحاً ، واستجاب لها الشعب ، فذلك لأنها اصطحبت بنظام فى التربية يصوغ نفوس النشء والشباب بحيث يتقبلون هذه الفلسفة الجديدة .

فلا غرابة أن تكون الفلسفة هى التربية ؛ إذ لو فصلت الفلسفة عن التربية ، وانعزلت عنها ، ولم تصطنعها النفوس ، وتتقبلها وتتطبع بها ، لظلت الفلسفة حبراً على ورق ، وألفاظاً جوفاء ، مثل تلك الفلسفات التى تعيش فى أذهان أصحابها ، والتى ورثوها عن القدماء ، وأصبحت عديمة القيمة لا تصلح إلا أن توضع فى المتاحف ، ويحتفظ بها فى دور الكتب !

ومن بين هذه الفلسفات التى ورثها الشرق مع ما ورث من حضارة قديمة ما يسمى بالتصوف والطرق الصوفية التى كانت تلائم زماناً غير هذا الزمان حين كان التصوف صفاء ، حتى إذا انقلب « دروشة » أصبح مصدر فساد للأمة العربية ، ومعطلاً لها فى تقدمها العلمى الحديث . والعجب أن يؤمن بهذه « الدروشة » جماعة من المفكرين ،

ولكن لا عجب إذا علمنا أنهم يتخذون من هذا السلوك صناعة ، ويعتمدون عليه فى كسب المعاش ، وهذا شيء لا يتفق مع روح فلسفة الثورة التى تنادى بالعمل، وتعتمد على الإنتاج .

* * *

لا خير إذن فى الأجيال القديمة التى نشأت على فلسفات تقليدية لا تتفق مع روح العصر ، ولا تلائم عصر العلم والذرّة .

والخير فى « تربية » جيل جديد ، تبدأ من مرحلة الطفولة ، وتبث فى النفوس روح الكفاح وتصوغها على الإيمان بالعلم والبحث والعمل والإنتاج ، مع تتويج هذه التربية بمُثُلٍ عليا جديدة فى الخير والذوق .

ومن آيات نجاح الفلسفة الجديدة ، هذه الفلسفة التى نسميها بالتقدمية ، أنها آتت ثمارها فى تربية النشء الحديث على فنّين يعدّان عنوان حضارة الأمم ، هما الموسيقى والرسم ؛ ويعدُّ الإقبال على الموسيقى الجديدة ، وعلى تذوّق الرسوم التعبيرية الحديثة ، خير دليل على نجاح هذه التربية القائمة على أساس الفلسفة الجديدة .



ابن خلدون

رائد علم السياسة الحديث

بقلم روزنتال

ولد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون فى تونس فى غرة رمضان عام ٧٣٢ هـ (٢٧ من مايو سنة ١٣٣٢ م) وتوفى بالقاهرة فى ٢٥ من رمضان سنة ٨٠٨ (١٩ من مارس سنة ١٤٠٦) وقد درس المنطق والفلسفة والفقه والتاريخ ، وشغل مناصب رفيعة فى بلاط السلطان « أبو عنان المرينى » صاحب تلمسان عام ٧٥٥ هـ حتى وشى به حساده عند السلطان بتهمة التآمر عليه ، فزج به فى السجن ، وظل فى سجنه حتى توفى السلطان فأفرج عنه . وفى سنة ٧٦٤ سافر إلى الأندلس فأكرمه سلطان غرناطة وانتدبه سفيراً عنه ثم عاد بعد ذلك إلى وطنه . وفى سنة ٧٨٤ خرج قاصداً مكة للحج حتى إذا وصل إلى الإسكندرية توقف بها ثم انتقل منها إلى القاهرة ، واشتغل بالتدريس فى الأزهر حتى ولاه السلطان برقوق سنة ٧٨٦ قضاء المالكية ثم سافر إلى الحجاز سنة ٧٨٩ وعاد فى السنة التالية إلى مصر وظل مقيما بها حتى مات .

استولى المغولى « تيمورلنك » على دمشق ، وجلس المغولى المنتصر فى خيمته ينصت إلى ابن خلدون الذى هبط سور دمشق للمثول بين يديه . وهكذا يجتمع رجل الحكم وفيلسوف الحكم وجهاً لوجه ، فماذا لعمرك كان الحديث بين الرجلين ؟ أعن مصير الحرب ؟ أم عن المنتصرين فيها والمنهزمين ؟ أم عن الحكام والمحكومين ؟

كل ذلك جائز ولكن الذى نعلمه أنهما تباحثا فى السلطة والقوة اللتين انحدرتا من البابليين إلى الفرس فالإغريق ثم العرب والأتراك . وسأل تيمورلنك ضيفه عن الخلافة العباسية ، وشرح ابن خلدون نشأة الحكم الدينى المثالى فى الإسلام الذى أنشأ دولة عظيمة مترامية الأطراف .

مكيافيللى وبسمارك :

لقد ذاعت شهرة مكياڤيللى Machiavelli * وبخاصة بين علماء الأخلاق فى هذه البلاد بسبب رأيه فى نظام الدولة ، حتى لقد جعله هذا الرأى ينحنى لضرورات السياسة ، ويستعمل أساليب العنف والخيانة والنكث بالعهد ، بل يبرر القتل كذلك . ولكنه كان فى الوقت ذاته مصلحاً من المنادين بالسياسة الواقعية كبسمارك . وكما سعى هذا فى سبيل توحيد ألمانيا سعى مكياڤيللى فى توحيد إيطاليا .

ولم يكن مكياڤيللى عالم سياسة فحسب ، إذ لم يكن متفرغاً لها التفرغ الكافى ولم تكن آراؤه فى الواقع خالية من منازع الهوى ، فقد كان مسيحياً يؤمن بإله يولى السياسة أعمق الاهتمام ، وكان من مدينة فلورنسة ، التى نشطت فيها المنازعات الداخلية ، والمنافسة الخارجية ، والدسائس ،وكان يعلم أن هناك طريقين للاختصام :

* نقولا مكياڤيللى من أهل فلورنسة ، ولد سنة ١٤٦٩ وتوفى سنة ١٥٢٧ ، وقد تقلب فى عدة مناصب سياسية فى جمهورية فلورنسة فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر ، ووضع فلسفة فى السياسة عرفت باسمه وضمنها كتابه « الأمير » الذى اشتهر به، وقد ألفه للأمير لورنزو دى مديتشى الكبير ، وبين فيه أنواع السلطة وطرق الوصول إليها ، ووضع القواعد السياسية والأخلاقية لتأييد تلك السلطة ، وعنده أن الغاية تبرر الوسيلة .

الأولى طريق القانون ، والأخرى طريق القوة ، والطريق الأولى تناسب الإنسان ، أما الأخرى فتناسب الوحوش . . ومن الضرورى أن يعرف الأمير كيف ينتفع بالوحش والإنسان على السواء .

* * *

وفى القرن الرابع عشر قدّم ابن خلدون تجربة فى السياسة أكثر اتساماً بالطابع العلمى ، وأقل تأثراً بالهوى. وقد اكتسب ابن خلدون خبرته فى المدن المستقلة فى شمالى إفريقية وإسبانيا. ولم يكن الأمن على النفس موفوراً فى تلك المدن ، ولكنها كانت تتميز بثقافة قديمة وسط جمود دينى .

والحق أن تلك المدن كانت تمثل تدهور فكرة ونظام عظيمين . وكان عقل المفكر المتأثر بالتقاليد المستقرة حرًّا طليقاً فى دراسة أحوال البيئة فى ذلك العهد الذى كان يعيش فيه دون أى تعصب مذهبى .

وابن خلدون — وهو من سلالة الأنصار — حينما يكتب عن العرب الذين ينتسب إليهم ويعتزّ بهم ، يكتب عن ضعفهم بحيدة تامة ودون أن يلومهم ، بل يكتفى بتقرير الحقائق وإثبات الملاحظة . وهو يعرف ماضى حضارته المجيد ، ويعلم أن الخلافة كانت تمثل الحكومة المثلى ، ولكنه يدرك أن عهدها قد ولى وهو لا يريدها أن تعود . ويعرف أن القيم المطلقة للإيمان والأخلاق التى كانت تمثلها لا تزال باقية ، وهو لا يناقشها بل يقبلها كما هى ، ويستند إليها فى حريته فى البحث وقوّته على إصدار الأحكام ، فيستعرض على أساسها الأحوال المعاصرة ، ويشترك فى لعبة السياسة الكثيرة المزالق ، وفى المنازعات بين الأسر الحاكمة ، وفى المنافسة فى سبيل الفوز بالسلطان حتى يصل عقله الحصيف المتحرر من الاتجاهات العاطفية إلى كشف عظيم : فقد أوصلته دراساته إلى سر النظرة التاريخية الموضوعية .

وهكذا ، وبعد لأْى ، تولد المنهج التجريبى فى عقل وُلد وسط تقاليد عظيمة تأصلت جذورها فيه .

وقد استطاع بالرغم من وجوده فى فترة تاريخية ضحلة أن ينظر إلى محيطه نظرة موضوعية جعلت بحوثه تنتهى إلى نتائج تصلح للتطبيق على الحضارة الإنسانية بأسرها . والنظرة الموضوعية التاريخية تسنُّ القوانين وتحلّل ، ولكنها تكره أن تصدر أحكاماً قيمية ، وتضع آراءً أو خططاً وتصميمات لعصر ألْفِىٍّ سعيد .

* * *

وقبل نشر كتاب « الأمير » لمكيافيللى بمائة وثلاثين عاماً وصل ابن خلدون إلى القاهرة قادماً من إفريقية الشمالية ومعه مؤلفه الذى لم يكن قد أتمّه بعد عن تاريخ الحضارة الإسلامية ومقدمته ، ودعى للتدريس فى الجامعة الأزهرية ، وكان يومئذ قد بلغ الخمسين ، إذ وُلد فى تونس عام ١٣٣٢ م ، وتلقى فى جامعتها قدراً وافياً من علم الفقه والمذاهب الفلسفية ، وحين ناهز العشرين بدأ حياته العملية الطويلة المتشعبة . وظلّ عشرة أعوام يشهد الدسائس بين أفراد الأسرة المرينية الذين كانوا يتنافسون على السلطان . وزُجَّ به فى السجن عامين ، وخرج يحاول تجربة حظه عند سلطان غرناطة الذى أرسله فى بعثة إلى بطرس ملك إشبيلية . ومن غرناطة ارتحل إلى « بجاية » حيث تولى منصب الوزارة . وعند ما قتل سيده ، قاد المحاربين البربر ، أو الجنود المرتزقة الذين قاتلوا فى صفوف عدد كبير من الأسر الإسلامية التى حكمت شمالى إفريقية .

وهنا لاحظ ابن خلدون القوى المحركة للسلطة السياسية وأنعم التفكير فيها ، وتعلم فن الحرب ، وأدرك أهمية ميزانية الجيوش ، واكتشف الفرق الأساسى بين الحياة البدوية والحياة المستقرة ، وبين حياة الريف والمدنية .

وفى عام ١٣٨٣ م نزح إلى القاهرة وقد عقد العزم على أن يمضى حياته فى الدرس والكتابة والتعليم ، وتوفى فى القاهرة عام ١٤٠٦ م .

وكان كل ذلك تدريباً عمليًّا يعتمد على العقيدة

الإسلامية ، والفلسفة الإسلامية ، والتشريع الإسلامى ، ويستند إلى أسسها . فقد حاولت الفلسفة الإسلامية الربط بين الخلافة المثالية وبين جمهورية أفلاطون المثالية ، وكان الفقهاء المسلمون مضطرين إلى تطبيق أحكام الشريعة على المجتمع المعاصر . وابن خلدون لا يعارض تراثه ؛ فقد كان قاضياً صارماً ينظر إلى واجبه نظرة حازمة ، وعنده أن الدولة الإسلامية هى أفضل دولة ما بقيت هى الدولة الوحيدة التى تيسر للإنسان السعادة فى هذه الدنيا وفى العالم الآخر ، وهى بهذا تقدم إلينا المقياس الذى تُقاس به الدول القائمة بالفعل ، ولكنه لا يدعو مع ذلك إلى العودة إلى هذا المجتمع المثالى ، شأنه فى ذلك شأن معاصره المسيحى مارسيليو البادوى* .

والمجتمع الإنسانى ضرورة . هكذا قال أرسطو ، ولكن ابن خلدون لا يردد قول أرسطو ؛ فإن رأيه قائم على تجربته . والاجتماع من أجل التعاون المشترك والحماية لا قيمة له إذا لم يقترن بالسيطرة والسلطان . فالناس يدمر بعضهم بعضاً إذا لم تكبح جماحهم سلطة يعترفون بها ، والحكم هو الذى يحقق هذه السلطة .

وقد يقال إن هذا الرأى هو عين ما جاء فى كتاب الفيلسوف هوبز** وهو كتاب « التنين Leviathan » ولكن الحقيقة غير ذلك ، فإن هوبز يطبق تطبيقاً واعياً مبادئ الفلسفة التحليلية على الحكومة المدنية ؛ أما ابن خلدون فيفحص المجتمع كما يراه مباشرة ؛ فهو لا يستخدم آلية التعاقد بين الحاكم والمحكوم لأنه ليس دارساً أكاديمياً . وإن تحويل الرغبة فى القوة إلى قوة فعلية يقتضى من الرجل القوى الظفر بتأييد رجال أوتوا مثل عقليته . وقد تعلم ابن خلدون من قبائل العرب وانضوائها تحت لواء الامبراطورية الإسلامية أن هذا التأييد لا يقوم إلا على أساس روابط الدم والأسرة ؛ لأن هذه الروابط تخلق إحساساً بالتماسك والمسئولية المشتركة ، والعمل الموحد . وإذا أضيف هذا التماسك إلى إرادة فلا يلبث أن يصبح القوة المشكلة للدول وللأسر الحاكمة ، وسرعان ما يسمو فوق العقيدة القبَلية والسلالة المشتركة ويستبدل بهما الطموح المشترك للمحافظة على القوة والنفوذ وتوسيع دائرتهما . وهذه القوة الجماعية الفعالة يسميها ابن خلدون « العصبية » . واستقرار أى نظام سياسى إنما يعتمد على قوة هذه العصبية . والعصبية تعتمد على تقوية الروابط الطبيعية بفكرة مثالية مشتركة كالدين .

وصفه للسيطرة :

إن لهذا التشخيص معنى مزدوجاً ، فهو من ناحية حقيقى كما دل التاريخ ؛ لأن هذا التوحيد بين النظام والعقيدة وبين المجتمع القبَلى والفكرة المثالية ، هو فى الواقع التفسير السياسى الأصيل للقوة . وفى وسع المؤرخ الحديث أن يسوق لهذه الحقيقة أمثلة عدة ، فى حين أنه لا يستطيع أن يجد مثلا واحداً يوضح نظريات التعاقد التى يقول بها النظريون الأحرار . . . ولكنها من ناحية أخرى تصدق على تاريخ الإسلام ، فقد بدأ النبى محمد بأواصر القرابة وحولها إلى أخوة الإيمان .

ويعتقد ابن خلدون أن السماح بشىء من الخلاف الفكرى سوف ينتج استقراراً سياسياً أعظم ، وخاصة إذا تغلغل الإسلام إلى الروابط العائلية وزادها قوة .

ويدحض ابن خلدون آراء الفلاسفة المسلمين

---

* مارسيليو البادوى Marsiglio of Padua : عالم من علماء الإيطاليين وفقيه من الفقهاء ، ولد على الأرجح فى بادوا فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى وتوفى بعد عام ١٣٢٨ ؛ وأصبح رئيساً لجامعة باريس سنة ١٣١٢ . وفى سنة ١٣٢٥ أو ١٣٢٦ ، خدم لويس الرابع أمير بافاريا فى صراعه مع البابوية ، فلما احتل هذا الأمير رومة سنة ١٣٢٨ منح مارسيليو لقب أسقف رومة . وقد أنكر مارسيليو فى مؤلفاته ، وخاصة فى كتابه « المدافع عن السلام » Defensor Pacis ، دعاوى البابوات فى السلطة الزمنية فحكم عليه بالحرمان من رعاية الكنيسة سنة ١٣٢٧ .

** توماس هوبز Thomas Hobbes الفيلسوف الإنجليزى الذى كان من أشد الناس حماسة فى تأييد الفلسفة الآلية الجديدة التى كان يذيعها كبلر وكوبرنيك وجاليليو وغيرهم . ومن مؤلفاته كتابه « التنين Leviathan » ، وقد ولد عام ١٥٨٨ وتوفى عام ١٦٧٩ .

القائلين بضرورة النبوّة ، فيشير إلى إمكان وجود حياة إنسانية منظمة دون نبوّة ، أو بعبارة أخرى نجده لا يكتفى بالاستشهاد بحقائق التاريخ عند التعليل العقلى ، بل يؤكد أيضاً كفاية السلطة الزمنية (باعتبارها نظاماً متميزاً عن السلطة الروحية) ، تلك السلطة المستمدة من قوة الحاكم أو من عصبية أنصاره ، وأنه إذا كان من الجلىّ أن الحكومة القائمة على أساس الشرائع السماوية أسمى من تلك القائمة على القوانين الإنسانية فإن ذلك مسألة أخرى ؛ فجوهر المسألة أن التنظيم السياسى أمر ضرورى ، وأن هذا التنظيم يعتمد أساساً على السيطرة ، وهذا بلا شك تحوُّل سريع من حكومة القرون الوسطى التى تجمع السلطة الروحية والزمنية إلى نظام واحد من نُظم الدول الحديثة ، وهو رأىٌ عصرى بلا نزاع .

وقد رأينا ابن خلدون يقبل التمييز المتعارف بين الخلافة والملكية ، ولكنه لا يعنى بالتغيير باعتباره تدهوراً فى قوة الدين . ولا يعنى بأن الحكم الإسلامى الخالص أيام الخلفاء الراشدين قد انحرف ، وتحول إلى أداة فى يد الملوك ، إنما يدرس ابن خلدون الدولة كما هى ، وإنْ أسف لهذه النتيجة كمسلم . إنه يرى فى هذا التحول أمراً طبيعياً لا مَعْدَى عنه ، يراه كمؤرخ يدرس تطور الدول وتعاقبها ، فالأمر لا يتعدى هنا الانتقال من البداوة إلى الحضر ؛ فحضارة الإنسان تنشأ عن التجمع السياسى . وكما أن وجود المدن ضرورة لاستتباب حكم الملك ، فإن حياة الحضر لا غنى عنها لنموّ الحضارة وازدهار الثقافة .

وقد وجد ابن خلدون بهذا الكشف المفتاح الذى أعانه على فهم سر السياسة وأهميتها بالنسبة للحضارة ، وهو لا يُصْدِر أحكاماً أخلاقية ، بل يقرر الواقع : وهو أن البداوة التى يعتمد فيها الإنسان على نفسه وعلى رجولته تخلى السبيل لحياة الحضر الآمنة المطمئنة التى تطلق بدورها قُوى ونزعات جديدة ، وتحلُّ طاعة السلطان مكان الفتوة . وآية ذلك أن للإنسان مطامح أسمى من مجرد إشباع احتياجاته المادية وغرائزه ، ولا تنمو الحضارة إلا فى كنف حكومة قوية متمدينة ، فتزدهر الفنون والصناعات والتجارة كضرورة لإشباع الحاسة الفنية فى الإنسان كما تتنبه قوة إدراكه ، وحماسة تطلعه ، عند ما يتمرس بدراسة مختلف العلوم . ومن المحتّم كذلك أن الإنسان لا يكاد يتجاوز مرحلة الحصول على ضروريات الحياة ، حتّى يؤدى به توافر أسباب الراحة والدعة إلى الترف والإغراق فى الملذات وفقدان الوازع الأخلاقى ؛ فالانحلال الأخلاقى يسير عادة مع الانحلال السياسى جنباً إلى جنب .

ارتقاء الحضارة وتدهورها :

وقد وعى ابن خلدون هذه الحقائق وأدركها ببحثه فى نشأة الدولة والمجتمع وانحلالهما وهو يتقبل كل ذلك كشىء طبيعى ، ويقرر الحقائق فى غير تحبيذ لها أو استنكار ، وإن عرف أن الأمور كانت فى صدر الإسلام مختلفة تمام الاختلاف . والدولة والحضارة خاضعتان للنمو والذبول ، معرضتان للاكتمال والنضج ، والانحطاط والتدهور كالجسد الإنسانى سواء بسواء. وهذه العملية الطبيعية ليست خبط عشواء وإنما تحدث طبقاً لمؤثرات العلة والمعلول ، وتتم هذه الحركة الدورية على خمس مراحل فى غضون حكم أربعة أجيال من الأسرة الحاكمة ، فأما المرحلة الأولى فتتمثل فى المشاركة فى الحكم ، وهى مرحلة تسبق قيام « الدولة » بمعناها الصحيح ، وهذه الدولة ترتبط بحياة الحضر تحت حكم فردى استبدادى يتولاه حاكم يُخضع عصبية مؤيديه لرغبته فى الاستئثار بالقوة والسلطان المطلق ، ثم يكوِّن الأسرة الحاكمة التى تبلغ ذروة حكمها فى الجيل التالى ، ثم لا يأتى الجيل الرابع حتّى نشهد انحلالها وسقوطها ؛ أما الجيل الثالث فيشهد ذلك التحول المحتوم من حياة الرخاء والدعة إلى حياة الترف والانحلال الخلقى . وقد أمست بساطة الرواد الأوائل وبسالتهم نسياً منسياً ، ووقعت الدولة غنيمة للجنود المرتزقة . وحياة الترف والانغماس فى الملذات باهظة

التكاليف ، وبذلك يختل الميزان الاقتصادى بزيادة المصروفات على الدخل من الضرائب ، فيلجأ الحاكم غالباً إلى الاشتراك فى أعمال التجارة والصناعة ، ثم ينزع إلى احتكارها لنفسه ، على حساب رعاياه . والضرائب الباهظة تحط من الأرباح ، فتلقى بالصانع والتاجر إلى وهدة البطالة ، ثم يعجز الحاكم عن دفع رواتب جيشه فتقع دولته فريسة سائغة للثورات الداخلية أو الهجمات الخارجية ، وتستولى أسرة جديدة على مقاليد الحكم لتلقى بدورها المصير ذاته .

ومن الغريب أن « ابن رشد » وصل إلى هذه النتائج وإنما مع فارق واحد، وهو أنه علل انهيار أسرتين حاكمتين : المرابطين والموحدين بضعف الحمية الدينية وما ترتب عليه من ضعف سلطان الشريعة . وما كان ابن رشد يذهب إليه من وجه التماثل بين هذا الانهيار وبين مذهب أفلاطون بسبيل الانتقال من أحسن الدساتير إلى أسوئها ، وصفه ابن خلدون بأنه الانحلال الطبيعى فى الأسرة الحاكمة نتيجة لضعف العصبية .

لقد كان ابن خلدون — بقدر علمى — أول مفكر فى العصور الوسطى توصل إلى إدراك المداخلة بين أجهزة الدولة المختلفة وأوجه نشاطها .

فقد فطن مثلا إلى خطر الاحتكارات ، وفهم أن الضرائب الباهظة تخنق الإنتاج . ولكن ما هو أهم من ذلك أنه أدرك التأثير المباشر للاقتصاد فى مدى استقرار الدولة وأمنها ،وكانت مصلحة الدولة أهمّ ما يشغل باله . والعدل عنده ليس إلزاماً أخلاقياً بقدر ما هو سياسة حكيمة . والرذيلة بين الحكام أمثولة سيئة للرعية فهى هدامة للدولة. ولم يكن ابن خلدون منكراً لعلم الأخلاق . وإن كان لم يستنكر العبث بمبادئ الأخلاق ، فإنه لم يكن يقرُّ الإجرام السياسى .

ومع حيدته — كعالم سياسى — كان صادق الإسلام يؤمن بأن الشريعة الإسلامية تقوم — بل قامت فعلاً — بتقرير العلاقات الاجتماعية ؛ فهى تنصّ على الضرائب الكافية للإنفاق على حكومة صالحة ، بشرط ألا تغلو إلى الحدّ الذى يعرقل الجهود ، ويقضى على الحوافز . والشريعة الإسلامية تؤمّن الملكية الخاصة كحق لا يمكن المساس به . وابن خلدون يقرر أن الحاكم المسلم إذا استولى على أملاك رعاياه أو أجبرهم على بيعها ، بإقامة الاحتكارات ، كان مخالفاً للشريعة الإسلامية . ومما له دلالة هامة أنه يضيف معلقاً على ذلك بأن هؤلاء الحكام لا يهددون مصالح أسرتهم فحسب، ولكنهم يعرّضون رخاء الدولة وأمنها للخطر كذلك .

الدولة القائمة على أساس من الحصافة :

وليس عجيباً منه أن يذكر الشريعة الإسلامية ؛ فالدولة القوية فى عصره كانت مزيجاً من الخلافة الأصلية القائمة على شرع الله ، ومن الدولة المشيدة على الغزو والسيطرة بما تفرضه من تشريعات سياسية، ولكن العجيب منه أن يعد هذه الدولة قائمة على أساس من الحصافة على الرغم من قانونها المزدوج ، ورجاحة الشريعة ؛لأن العصبية — كسائر القوى الطبيعية — لا تلبث أن تتلاشى إذا لم تعززها الحمية الدينية وتطورها فتجعلها أقوى من أن تقاوم . وما دام الدين هو الرباط بين الحكام والمحكومين بما يؤكده من أهداف الإنسان السامية ، فلا تزال الدولة تنعم بالرخاء والقوة .

ولكن الدعوة الدينية ، من ناحية أخرى ، لا تأثير لها إذا لم تقترن بالقوة المادية، وهى حقيقة تنطبق أيضاً على الدولة الإسلامية الصميمة ذاتها ؛ لأن واجبات الخليفة الروحية والزمنية يكمل بعضها بعضاً داخل الوحدة الدينية . والدين قوة سياسية صالحة إذا استقر أثره فى قلب الإنسان وظلّ متحكماً فى أفعاله وتصرفاته ؛ أما إذا تزعزعت العقيدة واحتلت مكانها مجموعة من القواعد يطلب من الناس أن يحفظوها ويخضعوا لها، فقد ضعفت الدولة لا محالة ، ووهن كيانها ، وهانت إنسانية الناس وانحط شأنها ؛ لأن الدولة القوية يساندها اقتصاد سليم

هى التى تستطيع وحدها تشجيع الاهتمام بالفنون والعلوم . وممارسة العلوم والفنون هى السبيل الوحيد للسمو بالإنسان . وما يكاد يطغى الرخاء والترف حتى تتردى مطامح الإنسان وأهدافه السامية ، كما يهون شأن العلم والعلماء .

وعلى هذا النحو يقيم ابن خلدون فاصلاً واضحاً بين الحضارة والمدنية وبين الثقافة الروحية ، ويؤكد الترابط الوثيق بينهما .

* * *

ومع كل هذا لم يحقق ابن خلدون انسجاماً تاماً بين إيمانه وبين آرائه السياسية ، ولكن من ذا الذى وُفق إلى أمر كهذا ؟

لم يوفق مكيافيللى بلا شك ، وإن كان كل من الرجلين يعرف ما للدين من قوة وطنية وسلطان سياسى . ويوقن ابن خلدون ومكيافيللى أن مخافة الله هى التى تنشئ المواطن الصالح والجندى الباسل .

لقد رأينا مكيافيللى يعتقد أن ما يحفظ الدولة هو « الدين والقوانين والجيش » . وجاء ابن خلدون فأضاف إلى هذه العوامل الثلاثة عاملاً رابعاً هو الاقتصاد السليم المتوازن والخزانة العامرة ، ولكن السيطرة هى أول العوامل جميعاً وأكبرها شأناً ، كما جاء على لسان مكيافيللى فى مقدمة مسرحية مارلو المسماة « يهودى مالطة » :

« البطش أساس الملك » .

عن محاضرة فى البرنامج الثالث للإذاعة البريطانية
مجلة The Listener
ترجمة سعدية غنيم



حرية الفن

بقلم الأستاذ حامد سعيد

« مهداة إلى وزارة الثقافة »

إن نظرة إلى حياة الفن المصرى أو الإغريقى أو الأوروبى أو الصينى من البداية إلى النهاية لكفيلة أن تبين لنا كيف أن الفكرة الفنية لأىّ فن من هذه الفنون تتشكل بمرور الزمن فى صور متتابعة لم يكن للاحق منها أن يحدث قبل سابق ، أو لسابق أن يتأخر عن لاحق ؛ ويحدث هذا نفسه فى الفكرة الفنية عند الفنان الفرد إذا سار نموه سيراً طبيعياً سليما .

ونحن نسمى هذا الاتساق المنطقى منطق الزمن فى العمل الفنى ، وهو فى رأينا أمر حيوى جدير بالاحترام ، كما نعتقد أن عدم المساس به أو معارضته وإدخال الاضطراب عليه من الأمور الضرورية لسلامة نموّ الفكرة الفنية واطراد حياتها حياة قوية صحيحة . وعندما لا يتحقق هذا الاتساق المنطقى نرى الفنان يتنقل من شكل فى الإنتاج إلى شكل آخر دون أن يكون بينهما ذلك الرباط العضوى الحيوى ، فيكون العمل تبعاً لذلك مفتعلاً مصطنعاً ، لا ينعم بحياة قائمة به متولدة فيه ، ولا يرتكز إلى أصل أصيل فى نفس الفنان ، أو يدور فى حلقة مفرغة يلف فيها لفاً معاداً مكرراً لا خلاص منه .

الزمن هو فرصة النمو والتطور والتجديد فى الفن ، ولا قيمة لما يقال من أن هذا عصر السرعة ؛ لأن الإنتاج السريع سريع الزوال ، والفن العميق يخدم سلسلة طويلة من الأجيال .

يقول « جيته » : « إن الطبيعة عندما تهدف إلى عمل من الأعمال إنما تصل إليه بشىء من التسلسل والتدريج ؛ فهى لم تصل إلى الحصان إلا بعد أن صنعت وأنتجت تلك المجموعة من الحيوانات التى سبقت الحصان فى الوجود والتى هى بمثابة السلم انتقلت الطبيعة على درجاته درجة درجة إلى أن وصلت ، وأنتجت الحصان » .

ومن هذا نرى الفرد معتمداً فى وجوده على الكل ، كما أن الكل موجود للفرد ، وأن الفرد يمثل المجموعة ، وأن الطبيعة مهما اختلفت مظاهرها وتعددت فهى وحدة ، وأن كل الأشياء تعتبر بمثابة قاعدة للشىء الجديد ، وأن الجديد لا بد أن ينسجم هو والكل فى السياق العام .

يساوى النموّ فى خلق الطبيعة النموّ فى الخلق الفنى الرصين ، والفكرة الفنية الأصيلة لا يمكن أن تنشأ ما لم يكن لها سند من ماضى الفنان فى أعماله ، وكل عمل مدين بوجوده للكل ، وكل أعمال الفنان فى مجموعها تتصل وتغذى ذلك العمل . هذا إذا كان الفنان الذى نتكلم عنه فناناً أصيلاً يعمل عملا صادقاً أميناً بوحى من نفسه ؛ أما إذا كان فناناً هزيلاً مقلداً فهو فى أعماله لا يتبع هذا السياق الذى أشار إليه جيته فى حال الطبيعة وأعمالها ؛ فمثل هذا الفنان مهدوم الكيان ؛ لأنه معدوم السياق .

ويقول جيته أيضاً : « إن كل كائن حىّ لا يتكون من وحدة بسيطة ، بل من كثرة ؛ حتى إنه إذا بدا للعيان كفرد فهو فى الواقع مجموعة كائنات حية متحدة الأصل لكل منها كيان خاص ، وإنه كلما كان الكائن الحىّ فى مرحلة بدائية كانت مفردات أجزائه متشابهة ، وشابهت هذه المفردات ذلك الكائن فى

مجموعه ، وكلما كان الكائن الحيّ قد بلغ درجة من الرقى أتم بدت بعض أجزائه مختلفة عن بعض ، وبينما نرى الأجزاء فى الحال الأولى تشبه الكل نجدها فى هذه الحال مخالفة للكل ، كما نجد أنه كلما شابهت بعض الأجزاء بعضاً كانت مستقلة أو قابلا بعضها الاستقلال عن بعض ؛ إذ أن التعاون بين الأجزاء هو صفة الكائن الذى وصل فى ارتقائه إلى درجة عظيمة من النمو والتكوين ».

ونحن نعرف من ملاحظاتنا لنموّ رسوم الأطفال هذه الحقائق أو ما يعادلها ، ونعرف الحقائق نفسها عند تتبعنا لنموّ الأنماط والمدارس الفنية والأعمال الفنية لأفراد الفنانين .

إن منطق الخلق والتكوين فى الفن والطبيعة متشابه لأنه من معين واحد .

ويقول جيته أيضاً : «إن دراسة أسرار التوالد والمقارنة بين الذكر والأنثى توضح لنا الفكرة الهامة القائلة بأن الطبيعة قادرة فى تحويرها للأعضاء المتحدة الأصل أن تنتج أعضاء تبدو فى شكلها ووظيفتها كما لو كان بعضها مضاداً لبعض ؛ ولهذه الظاهرة نظائر متعددة فى الحياة الفنية » .

وإذا أردنا أن نزداد فهماً لمشكلة النمو فى الطبيعة كما يدرسها جيته ذكرنا قوله : « إن دراسة هياكل بعض الكائنات البحرية تبين لنا بوضوح كيف أن الطبيعة فى تصميمها بناء هذه الحيوانات كانت فعلا تتحسس طريقها نحو فكرة أعلى ، وهى فكرة الحيوانات البرية ، إذ أن الواقع يبين كيف يحدث هذا نفسه فى الخلق الفنى حيث تفسر أعمال الفنان المستقبلة أعماله الحاضرة أكثر وأوضح من أى تفسير آخر يأتى به ناقد أو باحث يعرض له بالتحليل ؛ لأن الفنان الذى يصدر فى أعماله عن وحى أصيل إنما يعمل هو والطبيعة سواء بسواء ، كما لو كانت الطبيعة ذاتها هى التى تخلق مرة أخرى عن طريق الفنان كائنات جديدة هى هذه الأعمال » .

* * *

الحرية من الكلمات الحائرة فى هذا العصر :

تعنى الحرية عند الشيوعيين أن تكون شيوعياً ، وعند الغربيين أن تنضوى تحت لوائهم ، وعند أدعياء التجديد فى الفن أن تكون من أتباع ما يذهبون إليه .

كان الفن فى العصور القديمة جزءاً متكاملا مع الحياة ، ويعيب بعض الفنانين على الفن المصرى القديم أنه لم (يتحرر) ولم يكن فناً للفن .

تأخذ الغيرة على الفن والحرية بعض الناس إذا ما تناول الفن العلم أو الدين أو الشعر أو الطبيعة أو الاجتماع ؛ إذ لا بد أن يقف الفن فى زعمهم (حراً) بعيداً عن كل شىء ، فنا للفن طليقاً من كل قيد .

وتأخذ الحماسة طائفة أخرى ، فيعيبون على الفن أن يكون فى برجه العاجى منعزلاً عما يعتبرونه الحياة على حين ترسف الإنسانية فى أغلال الذل والعبودية . هى الحرية مرة أخرى تفور فى نفوس القوم ، فتصرخ بالفن أن يكون فى خدمة المجتمع المسكين .

ويقوم بعض المفكرين بالرد على هؤلاء وهؤلاء ، يرفضون أن تقوم على الفن الوصاية ، أو تفرض عليه الفروض ، يناقشون ويجادلون ، ويقرعون الحجة بالحجة والدليل بالدليل .

وفى اعتقادنا أن هذا كله مضيعة للوقت ؛ لأن الأصل هو العمل لا الجدل ، والحياة الصحيحة وحدة تألفت فيها جميع نواحى نشاط الإنسان ، لا غنى فيها عن نشاط أصيل دون نشاط أصيل ، أو جانب دون جانب آخر ، إلا أن نظرتنا الجزئية إلى الحياة تموّه الواقع ، وتعقّد البسيط ، وتلوى المستقيم ، فتنشأ المسائل ، وتتكاثر المشكلات .

ولو أن نموّ المشتغلين بالفن والأدب وسائر نواحى النشاط الإنسانى هو النموّ الطبيعى السليم ، ولو أن نظرتنا إلى الحياة هى النظرة الواسعة المتكاملة العاقلة ، ما نشأت هذه

المشكلات وما ضاع كل هذا المجهود، ولرحّبنا بالتعدد فى مفاهيم الفن مشترطين الأصالة والنمو .

ولكن العاقل يضلّ عقله عند مناقشة الأحمق ، ويقتل الجدل الثقافة ، والثقافة هى النموّ النفسى . والحرية فى الفن هى الأصالة والنمو بحسب مقتضيات قوانين الحياة ، ولكن أنّى لهؤلاء فرصة النمو الصحيح ؟ ومن أين تتهيأ لهم السلامة العقلية ، وتتوافر الصحة النفسية ، والقدر يدفع بهم أطفالا فى أيدى مشرفين لم تتهيأ لهم فرصة النضج ، ومرشدين هم أنفسهم فى حاجة إلى الإرشاد ، وعصر مسلوب الإيمان يعبد فيه السلطان والمال والحلبة والصيت ؟ أنّى لهم فرصة النمو الصحيح إلا أن يشاء الله ، والله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ؟

إن الأساس الصحيح لاحترام الحرية هو احترام الحياة .



بغداد وآثارها الإسلامية

بقلم الأستاذ حسن عبد الوهاب

بغداد (مدينة السلام) اسمٌ حبيبٌ إلى القلوب، إذا ذُكرت تمثلت أمام سامعيه حضارة الإسلام فى أزهى عصورها؛ ولا عجب فهى مدينة العلم كما هى مدينة الفن؛ فقد وصفت بأنها أمُّ الدنيا وسيدة البلاد.

ويصفها اليعقوبى المؤرخ الجغرافى — وقد افتتح مؤلفه «البلدان» بالعراق — بأنها «وسط الدنيا وسرَّة الأرض» وذكر بغداد لأنها وسط العراق والمدينة العظمى التى ليس لها نظير فى مشارق الأرض ومغاربها سعةً وعمارة وكثرة مياه وصحة وهواء، يجرى فى حافتيها النهران العظيمان دجلة والفرات، فتأتيها التجارات والمؤن برًّا وبحراً بأيسر السعى؛ حتى تكامل بها كل متجر يحمل من المشرق والمغرب؛ فإنه يحمل إليها بضائع الهند والسند والصين والتبَّت والترك والديلم والحبشة وسائر البلدان؛ حتى يكون بها من تجارات البلدان أكثر مما فيها».

ولم تكن بغداد مدينة فى أيام الأكاسرة والأعاجم، بل كانت قرية صغيرة لم يكن بها إلا دير على موضع مصبّ الصراة إلى دجلة المعروف بقرن الصراة، وهو الدير الذى يسمى: «الدير العتيق».

ولما رغب الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور فى إنشاء مدينته الجديدة عاين بغداد، ووقع اختياره عليها، وكان من مرغباته فيها أنها جزيرة بين دجلة والفرات، دجلة شرقها والفرات غربها، يرد إليها كل ما يأتى فى دجلة من واسط والبصرة والأُبُلَّة والأهواز وفارس وعُمان واليمامة والبحرين وما يتصل بذلك، وكذلك يرد إليها فى دجلة كل ما يحمل من الموصل وديار ربيعة وأذربيجان وأرمينية، وما يحمل فى الفرات من ديار مضر والرَّقة والشام والثغور ومصر والمغرب.

وما إن وقع اختياره عليها حتى أحضر مهندسى المساحة ومهندسى العمارة والبنائين وعهد إليهم بتخطيطها وبناء قصره ومسجده ومرافق الدولة. وبعد أن أعد المشروع طلب مشاهدته، فخططت المدينة بالرماد، وتنقل فى أنحائها، واستعرض مشتملاتها، ثم أمر أن تبنى طبقاً لذلك الرسم، وذلك فى سنة ١٤٥ هـ، ٧٦٢ م، وجعلها مدورة، ووضع أول لبِنة بيده وقال: «بسم الله والحمد لله، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين»، ثم قال: «ابنوا على بركة الله».

وقد أشرف على هندستها وتخطيطها عبد الله بن محرز والحجاج بن يوسف وعمران بن الوضّاح وشهاب بن كثير.

وكان من تعليمات «المنصور» أن يوسعوا فى الحوانيت ليكون فى كل ربض (خطة) سوق جامعة، وأن يجعل فى كل (ربض) من السكك النافذة وغير النافذة ما تعتدل به المنازل، وأن يسمُّوا كل درب باسم القائد النازل فيه أو الرجل النبيه الذى ينزله أو أهل البلد الذى يسكنونه، وأمرهم أن يجعلوا عرض الشوارع خمسين ذراعاً والدرب ست عشرة ذراعاً، وأن ينشئوا فى جميع الأخطاط والأسواق والدروب من المساجد والحمامات ما يُكتفى به.

وسمِّيت بغداد بالزوراء أيضاً، لأن أبوابها الداخلية مزورة عن الأبواب الخارجية «وهو نوع من التحصين»،

ثم بنى المنصور قصراً على دجلة مما يلى باب خراسان وسماه الخلد تشبيهاً بجنة الخلد لما حواه من العجائب .

ثم اهتمّ المنصور بتثبيت دعائم دولته ، وتكملة بناء بغداد والعمل على اتساعها ، وكان يهتم بالتنجيم ، وهو أول خليفة قرّب المنجمين ، وعمل بأحكام النجوم ، فترجمت له كتب فى الكواكب وأحكامها وكتب الهندسة ، وكذلك ترجمت له كتب الطّب من اليونانية ، ترجمها له الطبيب جورجيس بن بختيشوع .

* * *

وقد اتسعت بغداد فى ظل الخلافة العباسية وأنشئت بها المساجد والقصور والرُّبُط ، وازدهرت فيها العلوم والفنون ؛ فقد كان بها العدد العديد من العلماء والحكماء والأدباء والشعراء الذين وفدوا إليها من كل فجٍّ سعياً للعلم وطلباً للصِّلات من خلفاء بنى العباس وآل برمك . وكانت زاهية زاهرة بمجالس العلم وأندية الأدب ؛ فقد أنشأ الخليفة المأمون بن هارون الرشيد دار الحكمة ، وألحق بها خزانة كتب قيمة جمع فيها كتب الطب وغيرها فى مختلف العلوم .

ثم أخذ الخلفاء فى تشييد القصور ، واقتدى بهم وزراؤهم ، فأقاموا قصوراً عرفت بأسماء منشئيها كقصور الرشيد والأمين ، وقصور البرامكة فى الشماسية ، وقصر ابن الخصيب وقصر أم حبيب بالجانب الشرقى من بغداد ، وغير ذلك . وأخذت رغبتهم فى بناء القصور تنمو كلما تقدموا فى المدنية وأغرقوا فى الترف .

وكانت تلك القصور على جانب عظيم من فخامة البناء والزخرف البرّاق والفرُش الثمينة والجواهر النادرة ، ولعل فى وصف هذه الحفلة ما يجلو لنا صورة عما وصلت إليه هذه الدولة من أقصى مراتب الحضارة : ذلك أنه فى خلافة المقتدر بالله جعفر (سنة ٣٠٥ هـ ، ٩١٧ م) قدم رسول ملك الروم يطلب المهادنة والفداء ، فأقيمت له الحفلات ، وزينت بغداد ، واستعرض الجيش بملابسه الرسمية وأسلحته ، وكان عدده ١٦٠ ألفاً ما بين فارس وراجل ، هذا عدا الحرس الخاص والحجّاب والخدم والخواص بملابسهم الرسمية .

ولما وصل إلى قصر الخليفة شاهد ما هاله من فخامة الستور المتخذة من الديباج المذهب والبسط وحدائق الحيوانات ، ثم أخرج إلى دار الشجرة ، وكانت شجرة فى وسط بركة فيها ماء صاف ، والشجرة ثمانية عشرة غصناً بكل غصن منها فروع كثيرة عليها الطيور والعصافير من كل نوع مذهبة ومفضضة ، وأكثر أغصان الشجرة فضية ، وبعضها من ذهب ، وهى تتمايل ، ولها ورق مختلف الألوان ، وكل طائر من هذه الطيور يغرد .

ثم أدخل إلى قصر الفردوس وكان فيه من الفرُش والآلات ما لا يحصى ، ويطول شرح ما شاهده الرسول من العجائب إلى أن وصل إلى المقتدر وهو جالس على سرير أبنوس قد فرش بالديبقى المطرز ، وعن يمين السرير تسعة عقود معلقة ، وعن يسرته تسعة أخرى من أفخم الجواهر يعلو ضوءها على ضوء النهار . فلما وصل الرسول إلى الخليفة وقف عنده ، وعلىّ بن محمد بن الفرات قائم بين يديه ، والترجمان واقف يخاطب ابن الفرات ، وابن الفرات يخاطب الخليفة . ثم انصرف وطاف بأنحاء الدار ، ثم استعرض الفيلة مزينة والزرافة والسباع والخيول مزيّنة بالديباج والوشى .

ولندع بذخ البرامكة وأعطياتهم فهى لا حصر لها ؛ لنتكلم عن أفراح زواج المأمون بالسيدة خديجة المعروفة ببوران بنت الحسن بن سهل ؛ فقد كانت تلك الحفلة فى سنة ٢٠٩ هـ ، ٨٢٤ م ، وظلت مضرب الأمثال ؛ إذ عُنى بها الحسن بن سهل عناية تجاوزت حدّ التجميل والكثرة . ولما دخل المأمون بالعروس نثرت عليها جدّتها ألف لؤلؤة من أنفس ما يكون ، كذلك نثر والدها على القوّاد وغيرهم بنادق مسك فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوار ، فكانت البندقة إذا وقعت فى يد الرجل فتحها ،

فيجد فيها على قدر حظه وسعده ، فيمضى إلى الوكيل ، فيقول له : ضيعة فى كذا أو جارية اسمها كذا ؛ ثم نثر على سائر الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك ، وفرش للمأمون حصيراً منسوجاً من الذهب نثر عليه ألف لؤلؤة من كبار اللؤلؤ فلما رآه المأمون قال : قاتل الله أبا نواس كأنه شاهد مجلسنا هذا حيث يقول :

كأنَّ صغرى وكبرى من فقاقعها
حصباء درّ على أرض من الذهب

ويحدثنا المقريزى أنه وُجد فى خزانة الطرائف بالقصور الفاطمية حصيرة من ذهب وزنها ١٨ رطلاً ذكر أنها الحصيرة التى جُليت عليها بوران .

* * *

هذا قطرة من غيث من حضارة بغداد وأيامها الزاهرة ، وهى التى ترتسم فى الأذهان ، وتلازم الزائر لهذا القطر الشقيق ، ولكن عند زيارته لبغداد يتبدد هذا الحلم الجميل ، ويجد نفسه فى مدينة تتجدد ، عفى على آثارها وحضارتها الزمن . ويعجبنى قول الصديق مصطفى جواد مؤرخ العراق فى ذلك :

«حدثنا التاريخ حتى أسهب عن عظمة بنى العباس وقصورهم ودورهم وجوامعهم ومدارسهم وربطهم ودور ضيافتهم وأسوارهم وأنهارهم ، ولكن الزمان لم يبق إلا على قليل من تلك الآثار ، فليس للرصافة أثر ولا لقصر المهدى، وجامعه وقصور البرامكة من باقية ، فأين ذهبت محلة الكرخ ومدينة المنصور المستديرة وقصر الخلد وقصر الذهب وجامع المدينة والتربة الزرقاء؟ أمست يباباً خراباً . وأين قصر الفردوس ودار التماثيل وقصر التاج وقصر المأمون؟ لقد عفت ، فلا تعرف إلا أخبارها ، إنها فى ضمير التاريخ مثل بها على مسرح الأرض ، ثم نسخها الزمن» .

* * *

زرت بغداد وبالرغم من علمى بحال آثارها الإسلامية وما طرأ عليها من محو وتجديد ، فإن هذا الشعور كان يلازمنى حتى جُست خلالها ، وتفقدت أطلالها ، فتلاشت أحلامى ، وأسفت على فقدان هذا التراث الذى لم يبق لنا منه إلا ذكرياته ننعم ونفتخر بها .

بغداد اليوم يشقها شارع الرشيد محازياً لنهر دجلة ، وهو أهمّ شوارعها ، وسوقها التجارية . ومن شوارعها الهامة شارع « أبو نواس » ، وبه مجموعة من المقاهى على شاطئ دجلة ومطاعم السمك (المسقوف) على حافة النهر . على أن أحياءها الجديدة فى ضواحيها البعيدة تشعر بالحياة وتقدم العمران ، كأحياء الكرادة والوزيرية وبغداد الجديدة .

وقد انتشرت فى أحياء بغداد القديمة وعلى حافتى دجلة المنارات والقباب بألوانها الخضر والفيروزية ؛ فقد كسيت بالقاشانى الملوّن بأشكال زخرفية وكتابات كوفية متأثرة بالعمارة الفارسية ، وهى قباب ومنارات لا ترجع إلى العصر العباسى ، بل ترجع إلى القرون المتأخرة كالثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين .

وكما عُرف كل قطر بما يجلب منه من طرائف وسلع ، عرف العراق بأهم عمائره التى أصبحت من أبرز خصائصه دلالة عليه .

ومن خصائص العراق المنارات الملوية ذات السلم الخارجى وزخارف الجص فى قصور سامرّا (سُرَّ مَنْ رأى) وقصر الأخيضر فى البادية والعتبات الشريفة الكاظمية فى بغداد والإمام العسكرى بسرّ من رأى والإمام الحسين بكربلاء والإمام على بالنجف ، وزخارف الآجر (الطابوق) فى مساجد بغداد ومدارسها : فى المدرسة المستنصرية وفى القصر العباسى ومسجد مرجان ، والمنارة الحدباء بالموصل . والقباب المخروطية المعروفة بالميل فى بغداد من أظهر مميزاتها .

على أن المخلفات المعمارية الباقية توحى بما كان للعمائر المندرسة من روعة وتفاصيل معمارية كان لها السبق على عمائرنا بمصر وكان لهـا تأثير عليها . وترى هذا فى الزخارف الجصّية والخشبية للجامع الطولونى ؛ فقد نقل إليه مهندسه العراقى أساليب الزخارف والعمارة من مدينة سامرّا ، كما تأثرت منارته ذات السلم الخارجى إلى حد كبير بمنارة سامرّا

وكذلك فقد سبق العراق مصر فى تطعيم الرخام بألوانه بين زخرفة وكتابة ؛ فقد انتشر فى منشئات الموصل منذ القرن الثالث عشر الميلادى على حين ظهر بمصر فى القرن الرابع عشر فى نماذج قليلة ، وفى الوقت الذى ازدهرت فيه صناعة الجص فى مصر ؛ فإنها عوضت بازدهار منفرد فى زخارف الآجر الذى انفردت به العراق منذ العصر البابلى .

وقد ازدهرت صناعة النحاس المكفت بالذهب والفضة فى الموصل وخاصة فى عصر الدولة الأتابكية ، وانتشر صناعه فى الأقطار الإسلامية ، كما انتشرت طرفه فى متاحف العالم موقعة بأسماء صانعيها النوابغ ، أذكر منهم أحمد بن بارة الموصلى صانع صندوق الربعة الشريفة المكفت باسم الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٣هـ (١٣٢٣م) وهو مودع بمكتبة الأزهر ، ومنهم إبراهيم ابن مولود فى أول القرن الثالث عشر ، و إسماعيل بن ورد الموصلى تلميذ إبراهيم بن مولود الموصلى سنة ٦١٦ هـ (١٢١٩م)، ومن إنتاجه علبة فى متحف أثينا ، وقاسم ابن على تلميذ إبراهيم بن مولود الموصلى سنة ٦٢٤هـ (١٢٢٦ م) ومن إنتاجه إناء فى متحف نيويورك مصنوع لشهاب الدين كاتب الملك العزيز ، وأحمد بن عمر الذكى الموصلى ، ومن آثاره إناء فى باريس سنة ٦٢٠ هـ ، (١٢٢٣ م)، وإناء فى متحف متروبوليتان سنة ٦٢٣ هـ (١٢٢٦ م)، وإبريق للملك العادل « أبو بكر» الأيوبى فى متحف اللوفر بين سنتى ١٣٢٨ ، ١٢٤٠ م .

وعبد الكريم بن الرى الموصلى ، ومن إنتاجه إناء مؤرخ بسنة ٦٢٧هـ، (١٢٢٩ م) فى متحف الآستانة .

وشجاع بن منعة الموصلى بالموصل ، ومن إنتاجه إناء مؤرخ بسنة ٦٢٩هـ (١٢٣١م) فى المتحف البريطانى .

ومحمد بن فتوح الموصلى تلميذ شجاع الموصلى ومن صناعته شمعدان بمصر بمتحف الفن الإسلامى .

وداود بن سلامة الموصلى ، ومن صناعته شمعدان عليه نقوش موصلية سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) فى متحف الفنون الزخرفية بباريس ، وإناء للأمير بدر الدين بن بن البيسارى سنة ٦٥٠ هـ (١٢٥٢ م) .

ومحمد بن هتلة الموصلى ، وله خريطة فلكية سنة ٦٣٩ هـ (١٢٤١ م) فى المتحف البريطانى .

ومحمد بن عبصون ، ومن آثاره إبريق للسلطان لؤلؤ بين سنتى ١٢٣٣ ١٢٥٩م فى المجموعة الوطنية « ميونيخ » .

وعلى بن حمود الموصلى ، ومن آثاره إناء سنة ٦٧٥ هـ (١٢٧٦ م) فى المتحف الوطنى فى فلورنسا ، وإناء مؤرخ سنة ٦٧٣ هـ للأمير أتمش فى متحف كلستان بطهران ، وإبريق فى التاريخ نفسه وفى المتحف نفسه .

وحسين بن محمد الموصلى فى دمشق ، ومن آثاره إناء للملك ناصر يوسف الأيوبى سنة ٦٥٧ هـ (١٢٥٨ م) فى متحف اللوفر .

وعلى بن حسين بن محمد الموصلى فى القاهرة ، ومن آثاره إناء منقوش عليه اسم السلطان مظفر يوسف اليمانى سنة ٦٧٤ هـ (١٢٧٥م) فى متحف الفنون الزخرفية بباريس ، وشمعدان مؤرخ سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٢ م) فى متحف الفن الإسلامى .

وعلى بن حسين بن سورهاك الموصلى فى القاهرة ، ومن آثاره شمعدان مؤرخ سنة ٦٨٤ هـ (١٢٨٥ م) فى المجموعة المصرية .

ومحمد بن حسين الموصلى ، فى القاهرة ، ومن آثاره شمعدان مؤرخ سنة ٦٦٨ هـ (١٢٦٩ م) .

وحسين بن أحمد بن حسين الموصلى ، ومن آثاره لوحة للسلطان مؤيد الدين اليمانى فى متحف متروبوليتان بين سنتى ١٢٩٧ ، ١٣٣١ م .

ومحمد بن هلال الموصلى بالموصل : كرة أرضية مؤرخة سنة ٦٨٤ هـ (١٢٨٥ م) فى المتحف البريطانى .

وعلى بن عمر بن إبراهيم الموصلى ، ومن إنتاجه شمعدان مؤرخ سنة ٧١٧ هـ (١٣١٧) م فى متحف أثينا .

وعلى بن عبد الله العلوى الموصلى له إناء وإبريق فى المتحف الوطنى ببرلين .

وقرأت على الباب النحاسى لقبّة بدر الدين لؤلؤ بالموصل اسم صانعه عمر بن الحصرولى آل محمد الملكى البدرى سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) .

مساجد بغداد ومدارسها

كانت بغداد حافلة بأكبر مجموعة من المساجد والمدارس التى ساهمت فى ثقافة العراق ، ومنها تخرّج صفوة من العلماء والأدباء والشعراء والمؤرخين والرحّالة ، وكان لهم القدح المعلى فى ميادين العلم فى مختلف العصور . وهى الآن تسعد بنخبة من علية العلماء والمؤرخين والآثاريين أمدّ الله فى حياتهم النافعة .

غير أن عوادى الزمن والمحن التى مرّت ببغداد قضت على أسوارها وعلى جميع آثارها اللهم إلا النزر اليسير ، فأعيد بناؤها أو تجديدها فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين .

جامع الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان

من بين الآثار التى جدّدت على مرّ العصور واحتفظت بشهرتها بالنسبة لمن دفن فيها جامع الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان ؛ فإنه لما مات سنة ١٥٠ هـ ، (٧٦٧ م) دفن فى مقبرة الخيزران ، وكانت بمثابة مقبرة للعظماء دفن فيها محمد بن إسحق الطبرى وغيره . وقد عُنى بها شرف الملك أبو سعد محمد بن منصور الخوارزمى ، فأنشأ على مقبرة الإمام الأعظم قبة ، وبنى بجوارها مدرسة كبيرة للحنفية ، وذلك فى سنة ٤٥٩ هـ (١٠٦٦ م) ، ثم توالت عليه العناية بالإصلاح والتجديد إلى أن جدد إنشاءه السلطان سليمان القانونى سنة ٩٤١ هـ (١٥٣٤ م) .

ثم اعتدى عليه ، فجدده السلطان مراد الرابع سنة ١٠٤٨ هـ ، ١٦٣٨ م . وفى سنة ١٠٩٢ هـ ، ١٦٨١ م بنى عمر باشا القبة العظيمة والمنارة الجميلة بأمر السلطان أبى الفتح محمد العثمانى .

وفى سنة ١٢١٧ هـ (١٨٠٢م) ذهّب منارة التربة الوزير سليمان باشا الكبير والى بغداد ، وكان الذى تولى تذهيبها مرزا ربيع وهو معمار فارسى .

ثم جدد المرقد وما حوله دون القبة والمنارة سنة ١٢٨٨ هـ (١٨٧١ م) .

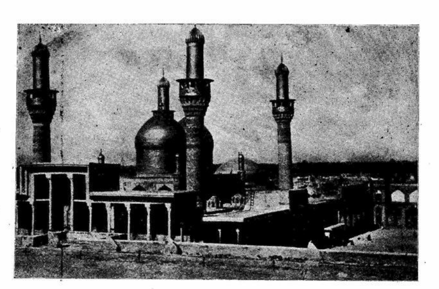
وكان للإمام أحمد بن حنبل فى بغداد مسجد ومشهد يزار ، ولما طغى نهر دجلة فى سنة ١٩١٣ جرف المسجد والمشهد وما حولهما فاندثر القبر .

جامع الكاظمية (مشهد الإمام موسى الكاظم)

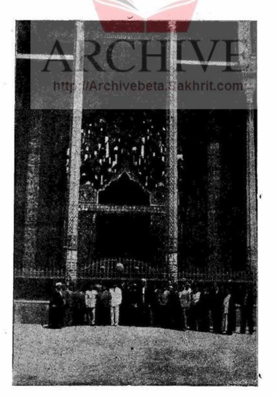
هذا الجامع من أشهر مساجد بغداد عنى به الشيعة أكبر عناية ، فزخرفوه بأبدع النقوش ، وفيه قبر الإمام موسى الكاظم والإمام محمد الجواد ، وعليهما قبة عظيمة غشّى سطحها بالذهب ، وترى الشيعة يطوفون حولها طواف الحجيج بالكعبة ، ولهم مواسم للزيارة يجتمع منهم هناك الألوف المؤلفة ، ويحضرون لها من بلاد شاسعة .

كانت هذه المقبرة تسمى مقابر قريش ، فلما توفى موسى الكاظم دُفن خارج القبة «قبة» جعفر بن أبى جعفر المنصور ، وذلك لخمس بقين من رجب سنة ثلاث وثمانين ومائة من الهجرة ، ثم وسّع المحل بموت الأمين محمد بن هارون الرشيد وأمه زبيدة بنت جعفر ، وبُنىَ على قبرى الإمامين موسى الكاظم ومحمد الجواد مشهد علقت فيه قناديل الذهب والفضة والستور الحريرية .

ولما استولى الشاه إسماعيل الصفوى على العراق سنة ٩١٤ هـ (١٥٠٨ م) أعاد بناء المشهد والقبة سنة ٩٢٦ هـ (١٥١٥م) ، على وضع جميل غشّى جدرانه بالذهب الخالص داخلا وخارجاً ، وكذلك عنى به السلطان سليمان القانونى ، فأتمّ عمارة إسماعيل الصفوى ، وأنشأ حول المشهد جامعاً .



مشهد الإمام موسى الكاظم فى الكاظمية ببغداد



مدخل مشهد الإمام موسى الكاظم بمقرنصاته البلورية و عمده الخشبية الرشيقة

ثم استأذن من الحكومة العثمانية فرهاد مرزا أحد كبار الفرس أن يجدد سور الجامع والمشهد، وأن ينشئ بعض العمارات، فأذنت له؛ فبنى السور كله بالقاشانى الملوّن، وفرشت الساحة بالمرمر، وكتب لوحة تذكارية نصها: «بسم الله الرحمن الرحيم، قد وقع الفراغ من هذا الصحن بأمر من قصد بعمله وجه المنّان وبلوغ غرفات الجنان الجناب المستطاب الأشرف الأمجد معتمد الدولة فرهاد مرزا أدامه الله تعالى وأعزّ إجلاله وإقباله بجاه محمد وآله الطاهرين سنة ثمان وتسعين بعد المائتين والألف من الهجرة النبوية المقدسة على صاحبها آلاف التحية والثناء».

وقد اتصل بالجامع والصحن، جامع الإمام أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم صاحب أبي حنيفة، وعليه قبة كبيرة. وكان أبو يوسف على جانب عظيم من التقوى، ولى قضاء القضاة فى بغداد على عهد هارون الرشيد، وتوفى سنة ١٨٢ هـ (٧٩٨ م).

ومشهد الكاظمية من أعظم مشاهد آل البيت فى بغداد ومن أنفسها، وقبتاه ومناراته المذهبة هى أول ما يظهر من بغداد للوافدين عليها من الشمال أو من الغرب. والمشهد غنى بشتّى أنواع الزخرف، فقد أزّرت جدرانه وأسواره وعقوده بالقاشانى الفارسى المتعدد الألوان، وحليّت عقوده ومقرنصاته بالبلّور والمرايا البرّاقة، كما غشيت أبوابه بالفضة، وطعمت توابيته بالسن، وغشيت التوابيت بالفضة، وهو مثال لما عليه العتبات الشريفة بالعراق.

جامع عبد القادر الجيلى «الجيلانى»

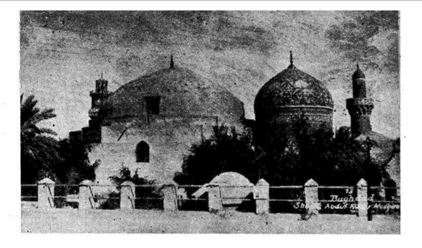
هذا المسجد فى محلة باب الشيخ المنسوبة إليه والمعروفة فى التاريخ بمحلة باب الأزج، وهى اليوم فى شرقى الرصافة من بغداد. كان فى الأصل مدرسة أنشأها للحنابلة أبو سعيد المبارك الفقيه الحنبلى المتوفى سنة ٥١٣ هـ، (١١١٩ م) ثم جددها ووسّعها الشيخ عبد القادر المذكور المتوفى سنة ٥٦١ هـ (١١٦٥ م)، وهو مدفون فيها. وكانت تعلو قبره قبة من النوع المعروف بالميل على مثال قبة السهروردى وتعرف عند العراقيين بالمؤللة، وقد هدمها السلطان سليمان، وبنى قبة شاهقة سنة ٩٤١ هـ (١٥٣٤م). وفى سنة ٩٩٥هـ (١٥٨٦م) أنشأ سليمان باشا مسجداً بجوار القبة لم يتمه، فأتمه والى بغداد على باشا، ثم أضيفت له زيادات فى سنة ١٠٨٤ هـ (١٦٧٣ م). وقبة هذا المشهد من القباب الكبيرة، وكذلك منارته الضخمة مكتوب عليها: إنها بنيت سنة ٩٤١ هـ (١٥٤٣ م) وهذا الجامع من أعلام بغداد مقصود بالزيارة.

* * *

هذه هى المشاهد المشهورة فى بغداد والمقصودة بالزيارة، وما عداها من مساجد منتشرة فى المدينة وعلى جانبى دجلة، جُدد غالبها: مثل جامع الإحسائى أو تكية الخالدية المطلة على دجلة، فإنه أنشئ سنة ١٢٣١ هـ (١٨١٥ م) ثم جدد فى سنة ١٣٢٠ هـ، (١٩٠٢م)، وجامع الأصفية المطلّ على دجلة كان من المساجد القديمة ثم تجدد.

وجامع الحيدرخانة من المساجد الكبيرة يبدو بقبابه ومنارته المكسوة بالقاشانى؛ فإن عمارته ترجع إلى سنة ١٢٤٢هـ (١٨٢٦ م) ومنشئه داود باشا والى بغداد، وجامع الخاصكى، وكان من المساجد القديمة نقل محرابه النادر إلى متحف الآثار العراقى، وجُدد الجامع فى سنة ١٣٠٩هـ (١٨٩١ م)، وجامع العادلية الكبير وقد أنشأته عادلة خاتون بنت أحمد باشا سنة ١١٦٨ هـ، ١٧٥٤ م، وجامع العادلية الأصغر وقد أنشأته السيدة المذكورة؛ فإنه تجدد سنة ١٣١٨ هـ (١٩٠٠م)؛ وجامع الميدان وقد أنشأه أحمد باشا كتخدا فى سنة ١٢١١ هـ، (١٧٩٦ م).

وهكذا أكثر مساجد بغداد مجدّدة، وقد اتفق

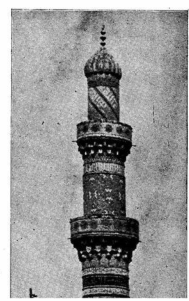


مسجد عبد القادر الجيلانى

منارة حديثة بجوار الجسر العتيق – مكسوة بالقاشانى وهى مثال لمنارات بغداد فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين



منارة جديدة أنشأتها وزارة الأوقاف لجامع الآصفية وهى نوع من المنارات المكسوة بالقاشانى المنتشرة فى بغداد



غالبها طرزاً ، وخاصة القبة والمنارة وكسوتهما بالقاشاني ، كما يبدو في الصور المأخوذة كنماذج منها .

وبالرغم من تجديد مساجد بغداد ، أبقى الدهر على بقايا أثرية هامة تتمثل فيها طُرز العراق المعمارية وفنونها الزخرفية ممثلة في الآثار الآتية :

منارة مسجد سوق الغزل

تعرف هذه المنارة بمنارة القصر الذي أسسه الخليفة المكتفي بالله العباسي من سنة ٢٨٩ — ٢٩٥ ﻫ (٩٠١ — ٩٠٧ م)، وقد أعيد بناؤها في سنة ٦٧٨ ﻫ (١٢٧٩ م) وقامت دائرة الآثار بدعم قاعدتها والتحفظ على بعض زخارفها في الآجُر، وهي منارة أسطوانية حُلِّي بدنها بزخارف متعرجة بالآجُر تنتهي بحزام به بقايا كتابة تعلوه مقرنصات دورتها ، وتنتهي بخودة منقوشة ، لا شك في أنها حلَّت محل خودة مضلعة ، وهي مثال لمنارات بغداد الجديدة ، وأرى أنها لا تستحق الإطناب الذي أضفاه عليها الزملاء آثاريو العراق .

ولهذه المنارة سلم مزدوج لا يرى الصاعد فيه النازل ، وهي ميزة وُجدت في بعض مآذن بغداد والموصل سبقتها فيها مئذنة مسجد قرطبة ، ووجدت في ثلاثة مآذن بمساجد القاهرة : قوصون بالقرافة الشرقية ، وأزبك اليوسفي ، والغوري بالأزهر .

وقد أقيم على جزء من أرض المسجد القديم مسجد حديث عرف بجامع سوق الغزل بتواشيح عقد مدخله زخارف في الآجر محدودة بأشرطة من القاشاني .

قبة السيدة زمرد خاتون المعروفة بالسيدة زبيدة

نوع ظريف من القباب المخروطة التي امتازت بها بغداد ، وتعرف بالمؤللة وبالميل ، أمرت بإنشائها السيدة زمرّد خاتون زوجة الخليفة المستضيء بالله قبل سنة ٥٥٩ ﻫ (١٢٠٢ م)، وقد امتازت بغداد بهذا النوع من القباب وكان شائعاً فيها ، وليس بصحيح نسبتها إلى السيدة زبيدة ؛ لأنها مدفونة بمقابر قريش « الكاظمية الحالية » .

قبة الشيخ عمر السهروردي

قبة مخروطة شاهقة على طراز قبة زمرد خاتون ، وتعرف بالميل ويسميها العامة المفتول ، وهي أعلى من قبة زمرد خاتون ، دفن فيها الشيخ شهاب الدين أبو حفص عمر السهروردي العالم الصوفي المشهور المتوفى سنة ٦٣٢ ﻫ (١٢٢٥ م)، وعلى القبة لوحة تاريخية نصها :

" « بسم الله الرحمن ، ألا إن أولياء الله لا خوفٌ عليهم ولاهم يحزنون» ، جدد هذه العمارة المباركة لضريح الشيخ القدوة الرباني قطب الأولياء العارفين شهاب الدين عمر بن محمد في سنة خمس وثلاثين وسبعمائة " .

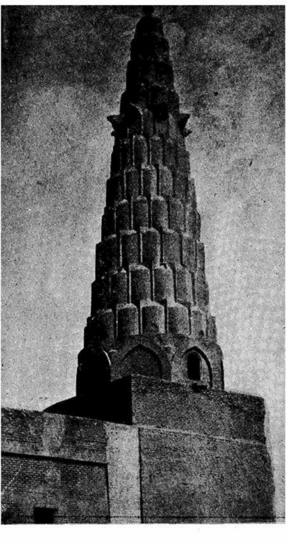
وهي قبةٌ قاعدتها مربعة تعلوها طاقات مخلَّق بها عُمُد رشيقة ، فطراز مكتوب بالبوية ثم مقرنص من ثلاث حطات ، ويغطي القبة الداخلية الشربوش الخارجي .

ويعلو باب القبة زخارف جميلة بالآجُر محوطة بأفاريز في القاشاني لا تظهر للرائي إلا من السطح ، فقد حجبها سقف المسجد الملحق بها المجدد سنة ١٢٥٠ ﻫ (١٨٣٤م) كما أنشئت منارته والباب الخارجي سنة ١٣٥٤ﻫ.

المدرسة المستنصرية

تقوم بقايا تلك المدرسة على الضفة الشرقية لدجلة ، وهي منسوبة إلى الخليفة المستنصر بالله العباسي الأول ، فقد أنشأها سنة ٦٣١ ﻫ (١٢٢٣ م) ، وجعلها وقفاً على دراسة المذاهب الأربعة ، وكان بها ٢٤٠ تلميذاً : سبعون شافعيون ، وسبعون حنفيون ، وخمسون مالكيون ، وخمسون حنبليون ؛ كما خصصت بها دروس للطب .

وكان لها ساعة مائية أقيمت في إيوان بُنيَ أمامها سنة ٦٣٣ ﻫ (١٢٢٥ م) بنيت تحته صُفَّة كان يجلس فيها الطبيب لدراسة الطب ومداواة المرضى ، وبنيت في



قبة الشيخ عمر السهروردى

قبة السيدة زمرد خاتون

جدار هذه الصفّة دائرة صُوِّرت فيها صورة الفلك ، وجُعل فيها طاقات لطاف لها أبواب لطيفة ، وفى الدائرة بازيان من ذهب واقفان فى طاستين من ذهب ، ووراءهما بندقتان من شَبَه[1] لا يدركهما الناظر . فعند مضىّ كل ساعة ينفتح فما البازيين وتقع منهما البندقتان ، وكلما سقطت بندقة انفتح باب من أبواب تلك الطاقات ، والباب من ذهب فيصير داخله مفضضاً ، وإذا وقعت البندقتان فى الطاستين ذهبتا إلى مواضعهما . ثم تطلع شموس من ذهب فى سماء لازوردية فى ذلك الفلك مع طلوع الشمس الحقيقية ، وتدور مع دورانها وتغيب مع غروبها . فإذا جاء الليل فهناك أقمار طالعة من ضوء خلفها كلما تكاملت ساعة تكامل ذلك الضوء فى دائرة القمر ، ثم يبتدئ فى الدائرة الأخرى إلى انقضاء الليل وطلوع الشمس .

بقيت المدرسة عامرة إلى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) ، ثم تطورت بها الأحوال إلى أن جعلت جمركاً فأصابها من التخريب والتغيير ما أفقدها الكثير من تفاصيلها حتى عنيت بها مديرية الآثار ، فأصلحتها وأعادت إليها كثيراً من بهجتها ، وما زالت تعمل فى إصلاحها ، ولديها مجموعة هامة من زخارفها فى الطابوق محتفظة بها حتى تردّها إلى مواضعها ، فتعيد إليها رونقها وبهاءها .

وما زالت المدرسة محتفظة بقسم كبير من كتاباتها القديمة فى الطابوق بواجهتها ، كما هى محتفظة ببعض إيواناتها والخلاوى حول الصحن وما يعلوها من زخارف ، واحتفظت كذلك بالحجرات على جانب الممر الشرقى ، وهى حجراتٌ ما بين صغيرة وكبيرة ، حلّيت عقودها بزخارف الطابوق .

[1] الشبه (بفتح الشين والباء وبكسر الشين وسكون الباء) : النحاس الأصفر

المدرسة المرجانية

هذه المدرسة بشارع الرشيد ، أنشأها أمين الدين مرجان بن عبد الله بن عبد الرحمن حاكم بغداد سنة ٧٥٨ هـ (١٣٥٨ م) ، وكتب على جدرانها وقفية الأعيان التى وقفها عليها بخط جميل على أرضية مزخرفة من الطابوق ، كتبها الخطاط المشهور أحمد شاه النقاش التبريزى . وعند توسعة شارع الرشيد هدم قسم منها ، وما زالت تحتفظ بتفاصيل هامة من كتاباتها وزخارفها وزخارف العمود الحلزونى فى واجهتها على الشارع .

الخانات والقصور

خان مرجان

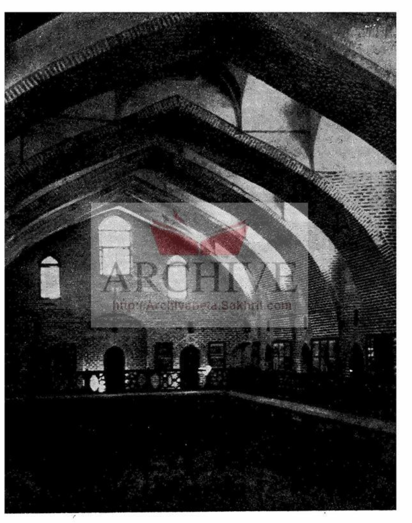
أنشأه أمين الدين مرجان بن عبد الله منشئ المدرسة سنة ٧٦٠ هـ (١٣٥٩ م) ، ووقفه على المدرسة وعلى دار الشفاء بباب الغربة . وسطر على مدخله كتابة فى الآجر تضمنت تاريخ الإنشاء والأعيان التى وقفها ، وانتهت الكتابة باسم الخطاط أحمد شاه النقاش . وهو من النوع المعروف بالتيم أى خان التجار فى اصطلاح الخراسانيين .

ويعرف الخان أيضاً بخان الأرتمة بمعنى (الخان المسقوف) ، ويتألف من طبقتين : الأولى منهما تشتمل على اثنتين وعشرين غرفة ، والأخرى على ثلاث وعشرين غرفة ، وتفتح أبواب الطبقة الأرضية على بهو كبير مستطيل . ويتوصل إلى الطبقة الأخرى بممر يعبر أمام حجراته الصغيرة المعقودة بارتفاع ستة أمتار ، تعلو ذلك عقود كبيرة تحمل عقداً كبيراً ينفذ الضوء من خلال العقود الحاملة له ، وهو من أروع الخانات الباقية فى بغداد ، عنيت به دائرة الآثار ، فاستولت عليه من الأوقاف وأصلحته فى سنة ١٩٣٦ م ، وخصصته متحفاً للآثار العربية .

وأهم ما حواه هذا المتحف كتابات على الطابوق من المدرسة المستنصرية ، وزخارف جميلة متنوعة من من أنقاض حفريات مدينة سامرا ، وفيها قطع تشتمل

داخل المدرسة المستنصرية وفي طرف الصورة منارة الآصفية

زخارف الطابوق (الآجر) المنقوش في المدرسة المستنصرية



خان مرجان – وفيه تتمثل عظمة البناء وفخامته

على صور بشرية وحيوانات وطيور وكتابات كوفية وزخارف من العصر العباسي وأوان فخارية وزجاجية من حفريات سامرا، ومجموعة من المسكوكات الإسلامية، وتابوت خشبي باسم الخليفة العباسي الناصر لدين الله سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧ م)، عليه زخارف وكتابات كوفية أمر بعمله لمشهد موسى الكاظم ، هذا عدا الأبواب الخشبية والمنابر المنقولة من الموصل وغيرها .

وما زال هذا المتحف ينتظر الكثير من المعروضات ستظهر قيمتها عندما ينتهي بناء المتحف الجديد ، ويجمع شتات المعروضات الإسلامية في قسم بجانب الآثار العراقية القديمة والسومرية والبابلية وغيرها مما يزخر بها المتحف العراقي .

دار المسنّاة (القصر العباسي)

من أروع القصور الباقية في بغداد ، بل هو القصر الوحيد الباقي المحتفظ ببعض تفاصيله . ويعتز الأستاذ المؤرخ مصطفى جواد بأنه أول من حقق أن منشئه أبو العباس أحمد الناصر لدين الله من سنة ٥٧٥ — ٦٢٢ هـ ، (١١٧٩ — ١٢٢٥ م)، ولذلك نراه يتغزل فيه إذ يقول :

« لم يبق من الدار إلا إيوانها وبعض حجراتها ومخادعها . ولئن دخلت هذا الإيوان لتجدنّ روح البناء وفتنة النظر ومدعاة العجب . إن كان الفن البنائي الإسلامي غاية فهي في هذا القصر ، وإن كانت الأرواح تفرغ في الفن فلقد أفرغ بنّاؤه روحه فيه : زخرفة عجيبة، وتزويق جميل . ولو أمكن أن يكون العلو سفلا لألفيت الإيوان وأعالي الأبواب وسقوف الحجرات رياضاً وحدائق مختلفة : أزهارها، متباينة ألوانها، فكأنها آمال الشباب وزينة العرائس ونزهة المتنزه ، ورسوم الأشواق وألوان السعادة » .

وهو على حق في مغالاته ؛ فقد اتسمت بقايا القصر بجمال التناسب، ودقة الزخارف وانسجامها ، وجمال مقرنصات الممرات حول الصحن وزخارف العقود والعمُد المكتنفة لها وتواشيح العقود كبيرة كانت أم صغيرة وما يعلوها ؛ فقد جلّلت بزخارف الآجر بأشكال هندسية ملئت بحشوات منقوشة نقشاً دقيقا .

في حجرات هذا القصر أقيم متحف حوى أهمّ التفاصيل الزخرفية من صناعة الطابوق (الآجر) المنقوش والمكتوب، ومنها لوحة مجمعة على هيئة محراب ، وأخرى مكتوب فيها بخط جميل قوله تعالى: « إنما المؤمنون الذين إذ ذُكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون » وذلك بمهارة فائقة على أرضية مزخرفة من الطابوق ، كما حوى نماذج زخرفية من الجص المنقوش منقولة من الجامع الكبير بالموصل صناعة القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) .

كما حوى أيضاً نماذج هامة من الرخام المطعم بالرخام أو بالجص ، ومحاريب وأبواباً رخامية ذات طاقات محلاّة بزخارف، منقولة من بغداد والموصل، وهي على غاية من الأهمية .

ولمديرية الآثار العامة مجهود مشكور في العناية بهذا القصر وإصلاحه وإعداده متحفاً .

المراجع :

تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، — طبع السعادة بالقاهرة .

مناقب بغداد لابن الجوزي— طبع دار السلام ببغداد .

معجم البلدان لياقوت — طبع مصر .

الحوادث الجامعة لابن الفوطي — طبع المكتبة العربية ببغداد .

تاريخ مساجد بغداد وآثارها — للسيد محمود شكري، الألوسي وتهذيب الأستاذ محمد بهجة الأثري، — طبع دار السلام ببغداد .

آثار بني العباس في العراق للأستاذ مصطفى جواد — مجلة الهلال نوفمبر ١٩٣٣

القصر العباسي — من نشريات مديرية الآثار القديمة بالعراق ١٩٣٥ .

موجز تاريخ البلدان العراقية للسيد عبد الرزاق الحسني — مطبعة النجاح ببغداد .

دليل تاريخي على مواطن الآثار في العراق — نشرته مديرية الآثار القديمة بمناسبة مهرجان ابن سينا سنة ١٩٣٥ .

أيام بغداد لأمين سعيد — طبع الحلبي بالقاهرة .

أعداد مجلة سومر . وتصدرها مديرية الآثار القديمة العامة ببغداد .

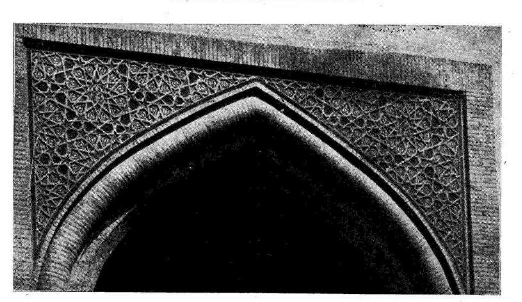
تاريخ الموصل للمطران سليمان الصايغ — طبع لبنان .

كتاب رسوم دار الخلافة — للصابي (خط)

كتاب البلدان لليعقوبي — طبع بريل بليدن ١٨٩١

متحف الآثار العربية في خان مرجان — نشريات مديرية الآثار القديمة بالعراق ١٩٣٨ .

داخل القصر العباسي (دار المسناة)



زخارف الطابوق بتواشيح عقد الإيوان بالقصر العباسي

التعبير الشعرى
بين السوقية والرمزية

بقلم الدكتور محمد مندور

ليست المعركة الدائرة اليوم حول الشعر العربى المعاصر مقصورة على مضمون ذلك الشعر ، وتجاذبه بين الذاتية والموضوعية ، أو بين الرومانسية والواقعية ، واقتتال مذاهب الفكر والفن والسياسة على هذا المضمون ، ولا على صورة القصيدة الشعرية وهندسة بنائها فحسب ، بل تمتدُّ أيضاً إلى التعبير اللغوى ؛ ولعل هذا الاختلاف حول ذلك التعبير من أقدم المسائل التى احتدمت حولها معارك الشعراء والنقاد فى العصر الحديث .

فمنذ أواخر القرن الماضى اتخذت أول دعوة إلى التجديد الشعرى أساساً لها بعث ما كانوا يسمونه الديباجة العربية القديمة ، أى التعبير الشعرى الذى يستند إلى طرائق التعبير التى عرفت فى عصور ازدهار الشعر العربى أيام الجاهليين والأمويين والعباسيين قبل أن يطغى عليه البديع الذى كان العباسيون ، وبخاصة عبد الله بن المعتز فى كتابه الذى يحمل هذا العنوان « البديع » ، يقصدون منه الجديد ، أى طريقة التعبير الجديدة التى تميزت بالمحسّنات اللفظية كالجناس والطباق والمقابلة وما إليها .

وبعد ذلك ظهر علم ذو مبادئ وأصول تدرس هذه الخصائص الجديدة ، وتتوسع فى تقسيماتها التى بلغ بها مفصِّلُ هذا العلم « أبو هلال العسكرى » الخمسة والثلاثين وجهاً فى كتابه المشهور « سرّ الصناعتين » ، أى صناعة الشعر وصناعة النثر .

ثم طغى هذا المذهب ، واستفحل فى عصور الظلام والانحطاط والتفاهة حتى استحال الشعر والنثر معاً إلى مجرَّد زخارف لفظية تكاد تخلو من كل فكر أو إحساس صادقين ، حتى إذا كان القرن التاسع عشر ، وأنشأت مصر مطبعة بولاق التى طبعت أصول الأدب القديمة ودواوين الشعراء السابقين على الانحطاط البديعى ، أى الانحطاط الجديد ؛ وبذلك قربت هذه الأصول والدواوين من أيدى الأدباء والشعراء ، رأينا النهضة الشعرية المعاصرة تقوم على أساس بعثها منهج التعبير الشعرى القديم بفضل البارودى وشوقى وحافظ .

ولكن هذه النهضة القائمة على بعث الديباجة القديمة لم تُقنع عدداً من الشعراء والأدباء والنقاد الذين تذوقوا الآداب الغربية ، وتعمقوا فهم فلسفة الأدب والشعر ووظائفهما فى الحياة وضرورة تعبيرهما عن مضامين جديدة تظهر فيها شخصية الأديب أو الشاعر ولون مزاجهما الخاص وطريقة انفعالهما بالحياة الخاصة والعامة وبالمجتمع وبمشاهد الطبيعة ، وتغذيتهما كل هذه الأحاسيس والانفعالات بثقافة إنسانية واسعة ، ومن هنا ظهرت فى أوائل هذا القرن دعوة للتجديد الشعرى ذات ثلاث شعب :

شعبة قادها الشاعر الكبير خليل مطران الذى جدَّد فى موضوعات الشعر ومضامينه وصورة القصيدة العربية مع احتفاظه بفصاحة الديباجة الشعرية التى بعثها الشعراء التقليديون : البارودى ، وشوقى ، وحافظ .

وشعبة قادتها الجماعة التى يصحُّ أن نسميها جماعة الديوان ، وهم المازنى والعقاد وعبد الرحمن شكرى الذين هاجموا الأدباء والشعراء التقليديين هجوماً عنيفاً ، ودعوا

إلى المضمون الذى يظهر فيه الوجدان الخاص للشاعر أو الأديب .

ثم الشعبة الثالثة ، وهى شعبة أدباء المهاجر الأمريكية وشعرائها، وهى شعبة نعلم مما كتبه الأستاذ ميخائيل نعيمة فى كتابه « الغربال » ومن المقدمة التى كتبها الأستاذ العقاد لهذا الكتاب أن دعوتها التجديدية قد اتفقت مع دعوة جماعة الديوان اتفاقاً كبيراً دعا كل جماعة منهما إلى أن تحيى الأخرى ، وتشدّ على يدها ، وذلك فيما عدا مسألة واحدة حرص الأستاذ العقاد فى مقدمته السالفة الذكر على أن يسجل مخالفة الجماعة المصرية للجماعة المهجرية ، وهى مسألة التعبير اللغوى ومدى إمكان التجديد فيه أو المحافظة على التقاليد اللغوية القديمة فقال :

« أما كلمتى أنا ففى خلاف صغير بينى وبين المؤلف لا أعرضه للمناقشة إلا لأن الاتفاق بيننا فى غير هذا الموضع عظيم . وزبدة هذا الخلاف أن المؤلف يحسب العناية باللفظ فضولا ، ويرى أن الكاتب أو الشاعر فى حلٍّ من الخطأ ما دام الغرض الذى يرمى إليه مفهوماً ، واللفظ الذى يؤدى به معناه مفيداً ، ويعنّ له أن التطور يقضى بإطلاق التصرف للأدباء فى اشتقاق المفردات وارتجالها . وقد تكون هذه الآراء صحيحة فى نظر فريق من الزملاء الفضلاء ، ولكنها فى نظرى تحتاج إلى تنقيح وتعديل ، ويؤخذ فيها بمذهب وسط بين التحريم والتحليل : فرأيى أن الكتابة الأدبية فن ، والفن لا يكتفى فيه بالإفادة ، ولا يغنى فيه مجرد الإفهام ؛ وعندى أن الأديب فى حلٍّ من الخطأ فى بعض الأحيان ، ولكن على شرط أن يكون الخطأ خيراً وأجمل وأوفى من الصواب ؛ وأن مجاراة التطور فريضة وفضيلة ، ولكن يجب أن نذكر أن اللغة لم تخلق اليوم ، فنخلق قواعدها وأصولها فى طريقنا ؛ وأن التطور يكون فى اللغات التى ليس لها ماض وقواعد وأصول ؛ ومتى وجدت القواعد والأصول فلماذا نهملها أو نخالفها إلا بضرورة قاسرة لا مناص منها ؟ » .

وبهذه العبارات أثار أو سجّل الأستاذ العقاد خصومة لغوية اتخذت منذ أوائل هذا القرن حتى اليوم عدة أشكال :

فأنصار التعبير التقليدى أخذوا يتهمون دعاة التجديد من أدباء الجيل السابق وشعرائه بالتفرنج فى التعبير حيناً والسوقية فيه حيناً آخر . وقد عبر الشاعر التقليدى « على الجارم » عن المآخذ اللغوية التى يأخذها التقليديون على المجددين فى مقطوعة شعرية شهيرة ساقها فى رثائه للشاعرين الكبيرين شوقى وحافظ حيث يقول فى معرض الحديث عن شوقى :

سكت العندليبُ فى وحشة الدو ... ح وغنّت نواعق الغربان
فسمعنا من النشوز أفانيـ ... ـن يرُعن صادح الأفنـان
أسمعـونا برغمنا فصبرنا ... ثم ثرنا غيظاً على الآذان
جلبوا للقريض ثوباً من الغر ... ب ولم يجلبوا سوى الأكفان
ثم قالوا مجددون فأهـلاً ... بصناديد أخـريات الزمان !
لا تثوروا على تراث امرئ القيـ ... ـس وصونوا ديباجـة الذبيانى
واتركوا هذه المعاول بالله (م) ... فإنى أخشى عـلى البنيان
واحفظوا اللفظ والأساليب والذو ... ق وهاتوا ما شئتمو من معانى
ما لسان القريض من عربىٍّ ... كلسان القريض من طمطُمان
إنما الشعر قطعة منك ليست ... من دماء اللاتين واليـونان
كل فن له مكان وأهـل ... إنْ غدا العلم ما له من مكان

إن رأيتم أخوَّة العود « للتَّجزْ
بَنْد » فابكوا سلالة العيدان
لا يهزُّ النخيل إلا حنان الناى(م)
فى صمت ليلة من حنان
وجهـة الشرق غيرها وجهة الغر
ب فأنَّى وكيف يلتقيان ؟

* * *

وبالرغم عن انتصار دعوة التجديد انتصاراً مستمرًّا متلاحقاً فإن دعوة التقليد المتزمتة لايزال لها بعض الأنصار وعلى رأسهم الشاعر عزيز أباظة الذى جدد هذه الخصومة فى السنوات الأخيرة ، وحمل باسم اللغة حملة شديدة على الشعر المهجرى ، وقد عبر عن مآخذه اللغوية على ذلك الشعر تعبيراً قضت المناسبة أن يكون رفيقاً ، ولكنه مع ذلك واضح القسمات حين قال وهو يقدم كتاب « الشعر العربى فى المهجر » للأستاذ محمد عبد الغنى حسن :

«ولشعراء المهجر صناعة بيانية ربما ازورَّت قليلا عن الذوق العربى السليم ، وأسلوبهم فى الشعر — إلا نفراً فيهم — لاشية فيه من البلاغة وحسن السبك ؛ ويعللون ذلك بأن لغة الشعر يجب أن تنسلخ عن لغة الخطابة ، وأن التأمل فى الحقائق الكونية تعجز الألفاظ الموشَّاة عن تأديته أصدق أداء. ورأينا أن الشعر الخالد لاتكفى المعانى وحدها لخلوده ، وإنما لا بد من مصاحبة القيم التعبيرية له حتى يظفر بالبقاء ، ويكتب له الخلود » .

* * *

ولو أننا حاولنا أن نحدد هدف الهجوم فى هذه المقتطفات الثلاثة السابقة لوجدناه هدفاً متغيراً ، بل لوجدنا أن المهاجم قد أصبح أحياناً هدفاً للهجوم : فالأستاذ العقاد يأخذ ، فى رفق وبروح مجاملة واعتدال واضحة غير مألوفة منه ، على أدباء المهجر تهاونهم فى التقاليد اللغوية ، وإن لم ينكر كل محاولة للتجديد فى التعبير ، وذلك فى حين يدلنا التاريخ على أن الأستاذ العقاد وزملاءه من دعاة التجديد المصريين الذين سميناهم جماعة الديوان قد كانوا الهدف المباشر لهجوم الشاعر على الجارم ؛ فهم الذين يتهمهم بأنهم يريدون أن يجلبوا أو قد جلبوا فعلا للشعر ثوباً من الغرب ، وأنهم يريدون أن يحلُّوا الجاز بند محل الناى الذى يترنم بين أشجار النخيل أو محل العود الذى يشجى مجالس الأنس الشرقية العربية ، وذلك على حين يريد الأستاذ عزيز أباظة أن يترفق ، فيقول فى أول فقرة : « إن لشعراء المهجر صناعة ربما ازورَّت قليلا عن الذوق العربى السليم ». ولكن عنف تعصُّبه للتعبير التقليدى لا يلبث أن يغلبه على أمره فيقول : «وأسلوبهم فى الشعر — إلا نفراً منهم — لا شِيَة فيه من البلاغة وحسن السبك » .

السوقية والبلاغة

والآن وقد وضعنا المشكلة وضعاً تاريخيًّا حددناه بمقتطفات دقيقة من أطراف تلك الخصومة نستطيع أن ننظر فى المشكلة ذاتها ، ونوضح بعض جوانبها وموقف علوم اللغة وفلسفتها وأصول الفن وفلسفته منها .

ونستطيع أن نحلل هذه المشكلة المركَّبة إلى عناصرها الأولية فنقول : إنها تشمل الخصومة العتيدة بين اللغة الفصحى واللغة العامية ، واعتبار كل تجديد فى فن اللغة خروجاً على الفصحى وكفراً لغويًّا أولا ، كما تشمل قواعد اللغة العربية الداخلة فى علمى النحو والمعانى أى علم تركيب الجمل Syntaxe .

وأول حقيقة علمية تعتبر الآن من بديهيات علوم اللغة عند الغربيين أى عند العالم المتحضر كله ، ومع ذلك لا تزال مجهولة أو شبه مجهولة ، فى عالمنا العربى كله ، هى أن اللغة العامية ليست فساداً طرأ على اللغة الفصحى أو مرضاً أصابها فأحالها إلى كائن ؛ فاللغة العامية تعتبر تطوراً طبيعيًّا للغة الفصحى ، وقد تم هذا التطور نتيجة لقوانين صوتية علمية ، يرجع بعضها إلى طبيعة الأصوات اللغوية ، ويرجع بعضها الآخر إلى طبيعة الأجهزة الصوتية

عند الإنسان من حنجرة وأحبال صوتية وتجاويف ومخارج تحدد كل منها الأوضاع التي يتخذها اللسان من مواضع الحلق المختلفة والأسنان والشفاه وطرق تحركها . ومن الغريب أن العرب والهنود القدماء كانوا أسبق الناس إلى دراسة هذه القوانين اللغوية والعضوية وتحليلها وتسجيلها، وأن هذه الدراسات قد ازدهرت عند المسلمين القدماء أكبر ازدهار نتيجة لارتباطها بالقرآن وطرائق قراءته والتنويع فيها ؛ حتى اعتُبروا واضعى أسس علم الأصوات من ناحيتيه اللغوية والتشريحية ، ولكن العرب فيما يبدو قد أغلقوا على عقولهم باب الاجتهاد منذ قرون ، ولم يشاءوا أن يفتحوه حتى اليوم .

وما يقال عن أصوات اللغة يقال عن قواعد نحوها : فقواعد النحو — فى اللغة الفصحى — لم تخترع ولم تفرض عليها ، وإنما استنبطت من اطراد الاستعمال على وتيرة واحدة عند من كانوا يتحدثون بتلك اللغة قبل أن تستنبط قواعدها ، وكذلك الأمر فى اللهجات العامية الحديثة ؛ فإن لها قواعدها النحوية المطردة كقواعد الفصحى سواء بسواء ، وقد استنبط المستشرقون هذه القواعد ، وسجّلوها فى الأجروميات التى وضعوها لمن يريد أن يتعلم هذه اللهجات من الأجانب .

وإذن فاللغة العامية ليست فساداً أو مرضاً طرأ على الفصحى بحيث ندعو إلى نبذها نبذاً مطلقاً والبعد عنها كما نبعد عن الأمراض أو بؤر الفساد . ومن المؤكد أن الكثير من متن اللغة العامية أو شبه العامية أى من مفردات اللغة ، إنما هو مأخوذ من متن اللغة الفصحى وإن طرأ عليه بعض التغييرات الصوتية بحيث يمكن القول : إن أديباً كبيراً كإبراهيم عبد القادر المازنى قد كانت حاسته اللغوية بالغة الرهافة والدقة عند ما كان يبحث فى اللغة العامية عن كثير من الألفاظ التى كان يظنها بعض الكتّاب عامية لسهولتها وكثرة دورانها على ألسنة العامة ليعيدها إلى متن الفصحى ، فتروقنا وتشجينا وتؤثر فينا أبلغ الأثر بحكم الشحنة العاطفية ، أو العصير الشعبى ، أو ظلال المعانى التى اكتسبتها بطول اختلاطها بحياة الشعب وجريانها فى مجالات إحساسه وتفكيره . ولم ينفرد الأستاذ المازنى — لحسن الحظ — بهذا الاتجاه اللغوى الموفق ، بل شاركه فيه الكثيرون من كتّابنا ذوى الأصالة مثل الأستاذ عبد العزيز البشرى ، وغيره من أصحاب الأقلام الصنّاع .

واللغة بعد ذلك ليست متحجرة المتن ، ولا يجوز أن تكون كذلك وإلا ماتت وأصبحت عاجزة عن الوفاء بحاجات أهلها ، وهى لا تحتاج إلى زيادة وتجديد مستمرّين فى مصطلحات العلم والثقافة الدائمة التجدد والنمو فحسب ، بل تحتاج إليهما أيضاً فى المجالات الإنسانية فكرية كانت أو عاطفية بحكم اتساع أفق الحياة المستمر وتطوُّر القيم الإنسانية والروحية الذى لا ينى ؛ بحيث يصبح من الجهل واللغو أن نتهم بالعجمة والطمطمانية والفرنجة كل نموّ أو تجديد فى متن اللغة وطرائق تعبيرها ؛ وكل دعوة إلى الجمود فى اللغة إنما هى دعوة إلى الجمود فى الحياة ، أى إلى الموت .

* * *

وأما عن السوقية أى الابتذال فى اللغة فإنها دعوة عتيقة جاهلة تقوم على فهم بالٍ لم يعد يقول به أحد من فلاسفة اللغة وعلمائها فى العالم المتحضر ، وهى تلك الدعوة التى كانت تفصل قديماً بين اللفظ والمعنى ، وتتحدث عن فصاحة الألفاظ وبلاغتها من ناحية وسمو المعانى أو سوقيتها من ناحية أخرى ؛ فهذا الفهم العتيق البالى لم يعد له وجود اليوم ؛ فاللفظ ليس إلا رمزاً نثير به صورة ذهنية عند الغير هى التى كانوا يسمّونها بالمعنى بحيث لا يمكن الفصل بين اللفظ والمعنى . وإننى لأذكر أنى سألت أحد كبار أساتذتنا فى السربون عند أول عهدى بالدراسة فى تلك الجامعة العتيدة عن مشكلة اللفظ والمعنى ولأيهما الأفضلية فى الأدب ، فأجابنى قائلا : إنك يا بنىّ بسؤالك هذا كمن يسأل عن شفرتى المقص وأيهما هى التى تقطع ! وعدت ألحّ فى السؤال فأجابنى الأستاذ

قائلا : إن العلاقة بين اللفظ والمعنى كالعلاقة بين الجسم والروح فى الإنسان بحيث إذا انفصل أحدهما عن الآخر لم يعد للإنسان وجود ، والإنسان فى تشبيهنا هذا هو التعبير اللغوى .

وعلى أساس تصحيح فهمنا الخاطئ لمشكلة اللفظ والمعنى نستطيع أن ندرك فى يسر ووضوح أنه ليست هناك ألفاظ سوقية أو مبتذلة ، وإنما هناك معان سوقية أو مبتذلة ترمز لها الألفاظ ، وأظننى قد طبقت هذه الحقيقة وضربت الأمثلة والشواهد فى السلسلة الأولى المنشورة من محاضراتى فى معهد الدراسات العربية العليا عن « الشعر المصرى بعد شوقى » .

* * *

وأما عن قواعد اللغة والخطأ فيها أى الخروج عليها ، فمن الواضح بعد كل ما أوضحناه سابقاً أنه إتلاف لأداة التعبير فى ذاتها : وذلك لأن هذه القواعد ليست قيوداً تعسفية كما يزعم بعض الجهلاء ولا أغلالاً اخترعها النحويون الجهلاء ، وإنما هى كما قلنا أصول مضطردة استنبطها علماء اللغة من الاستعمال ، وهى ليست قيوداً بل وسائل للتعبير ، شأنها شأن متن اللغة سواء بسواء ، بل لعلها تفوقه فى مهمة التعبير من حيث إنها هى التى تعبر عن العلاقات الفكرية المختلفة : فضمُّ الفاعل مثلا هو الذى يفيد علاقته بالحدث ، وبدونه لا ندرك تلك العلاقة ولا نحددها ؛ ومن هنا يظهر تخريف من يدّعون أن فى حذف الإعراب تبسيطاً للغة ؛ لأنه فى الواقع إفقار شديد لها ، وإضعاف ، بل شلٌّ عن أداء أخطر مهمة فى التعبير ، وهى تحديد العلاقات . وما لم يستقر الاستعمال على وسائل أخر لتحديد هذه العلاقات كترتيب جامد للألفاظ أو غيره فإن مثل هذه الدعوة تعتبر كما قلنا جهلاً فاضحاً بحقيقة اللغة ووظائفها .

* * *

وتأتى فى النهاية مشكلات علمى البيان والمعانى العربيين ، ونحن نترك مشكلات البيان لنصنى مشكلات علم المعانى ، أى علم تركيب الجملة المفردة والجمل المركّبة Syntaxe فنقول : إن هــذا العلم هو الذى تظهر بفضله أصالة الأساليب المختلفة بالإضافة إلى الخصائص البيانية ، وفى رأينا أن عبد القاهر الجرجانى قد فطن إلى أسرار هذا العلم الخطير ، وأوضح مفارقتها الدقيقة فى كتابيه « دلائل الإعجاز » و « أسرار البلاغة » على أروع نحو وأدقه بحيث احتفظ كتاباه حتى اليوم بقيمتهما بالرغم عما أحرزت علوم اللغة من تقدم كبير فى العالم المتحضر . ومن المؤكد أن الجرجانى لم يغلق باب الاجتهاد والتجديد فى فن تركيب الجمل والتعبيرات ، ولا حاول أن يضع لها قواعد جامدة ؛ لأن هذا العلم لا يستند إلى قوانين مضطردة كالقوانين النحوية التى استنبطها النحاة من استعمال اللغة ؛ ولذلك لا تزال خصائص علم المعانى المجال الأول الذى تتميز فيه أصالة الكتاب والشعراء ، ولا يمكن أن يوصد فيها باب التجديد . والحكم على كل تجديد إنما يرجع إلى نجاح الكاتب أو فشله فى تحقيق الهدف الذى رمى إليه من ذلك التجديد .

التعبير الشعرى والرمزية

على أن الخصومة ، حول التعبير الشعرى ، لم تقف عند المعركة المائعة التى استعرضنا اتجاهاتها فى الجزء السابق من المقال ، بل تعدته إلى ميدان أكثر دقة وخصباً بظهور جماعة أپولو الشعرية ، وهى الجماعة التى يمكن أن يقال إنها قد جددت التعبير الشعرى فى الأدب العربى المعاصر تجديداً واسعاً خصباً باستخدام ما يسميه الغربيون بالتعبير الرمزى ؛ وهنا أيضاً نرى الشعراء التقليديين يلاحقون هذه الخطوة الجديدة الواسعة بالهجوم العنيف والتسفيه السافر ، ويجاريهم فى هذا الهجوم بعض المتذوقين للأدب غير المتخصصين :

فمنذ عهد قريب كتب الشاعر عزيز أباظة مقدمة

لديوان « أصداء الحرية » للأستاذ عبد الله شمس الدين امتدح فيها الصياغة التقليدية لتلك الأصداء ، وانتقد فى عنف التعبيرات الجديدة فى شعرنا المعاصر مثل ، « الأنين المشنوق » و « الحزن الراقص » و « الصمت المقمر » و « الشمس المعربدة » و« اللانهائية الخرساء ». ومنذ أيام طالعت مقدمة أخرى كتبها الأستاذ فتحى رضوان لديوان « شعبى المنتصر » للأستاذ عبده بدوى ، وفى هذه المقدمة رأيت الأستاذ « فتحى رضوان » ينتقد تعبيرات بدوى الجديدة مثل : « النشيد الأبيض » ، و « النسمة الشقراء » ، و« الدروب المتلعثمة »، و« الضوء المنفعل » .

فما الرأى فى هذا النقد ؟ وهل هذا التجديد خروج عن وظيفة اللغة وسلامتها ؟ وهل من الواجب محاربة مثل هذا التجديد أو تشجيعه ؟ الواقع أننا بإزاء قضية فكرية وأدبية ضخمة لا يجوز أن نفصل فيها بهذه السهولة المسرفة ، ولا أن نتركها للأهواء أو الأبواق التى لا ضابط لها ؛ فالقضية ترجع إلى مذهب فكرى وأدبى له أصوله ومقاييسه ، وهو المذهب الرمزى الذى ظهر بأوروبا كمذهب منذ النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، وأخذ يظهر فى عالمنا العربى المعاصر منذ النصف الأول من هذا القرن ، حتى أصبح إحدى الخصائص التى تميز بها شعر تلك الجماعة الخصبة التى تعرف فى تاريخ أدبنا المعاصر باسم جماعة « أبولو » .

والرمزية كمذهب فكرى تستند إلى حقيقة نفسية هامة تقول بأن النفس البشرية كثيراً ما تعتورها حالات فكرية أو عاطفية لا يسهل التعبير عنها بالأسلوب التقريرى العادى ، بل إن تحليل هذه الحالات إلى عناصرها الأولية لا يمكن أن يعين الغير على إدراك حقيقتها ؛ وذلك لأنها حالات مركبة يتولد منها ذلك المركب ؛ وإذن فلا سبيل إلى التعبير عنها تعبيراً واضحاً على النحو الذى كانت تزعمه الكلاسيكية ، عند ما تقول : إن كل ما يدرك بوضوح يمكن التعبير عنه بوضوح ؛ وإذن فلا سبيل أمام الكاتب لنقل هذه الحالات النفسية إلى الغير إلا عن طريق الإيحاء بالرمز . ولما كانت أداة الأدب هى اللغة فإنه لا مفر من استخدام اللغة كرموز ، أى كوسيلة للإيحاء بحالات نفسية معينة ، وذلك باعتبار أن النفس البشرية وحدة متكاملة ، وأن لها عدة نوافذ تختلف باختلاف حواسنا المختلفة ، ولكنها تتجمع كلها داخل النفس البشرية بحيث نستطيع أن نوحى بأثر نفسى معين يدخل فى مجال أحد الحواس عن طريق استخدام لفظ نستمده من مجال حسى آخر : ونضرب لذلك مثلا قريب المنال غير موغل فى الرمزية ، ولكنه مع ذلك داخل بلا ريب فى مجالها وهو قول شاعرنا التقليدى المرحوم الأستاذ على الجارم نفسه :

أسوان تعرفه إذا اختلط الدجى
بالنبرة السوداء فى أناته

فالنبرة صوت ، والصوت لا يوصف بالبياض أو السواد ؛ لأن هذه الصفات خاصة بمجال البصر لا السمع ؛ ومع ذلك وصف الشاعر النبرة بالسواد ، لا ليعبر عن حقيقتها كما يدركها السمع ، بل ليوحى بوقعها فى النفس على سبيل الرمز ، وهو وقع شبيه بوقع اللون الأسود فيها .

وإذن فالرمزية من الناحية اللغوية تدخل فى مجال ما سماه أجدادنا العرب بـ « المجاز » ، أى نقل اللفظ من مجال إلى آخر ، ولكنها لا تستند فى هذا النقل إلى طابع التشابه الخارجى بين المنقول منه والمنقول إليه على نحو ما يقول العرب عند تحليلهم للتشبيهات والاستعارات وأنواع المجاز المختلفة ، بل تستند إلى تشابه فى داخل النفس ، أو على الأصح إلى وحدة الأثر داخل تلك النفس ؛ فالرمزية إذن ضرب جديد من المجاز ؛ وعلى هذا الأساس يستطيع المحافظون من رجال الأدب واللغة عندنا أن يطمئنوا إلى أن الرمزية ليست مروقاً لغوياً ، بل إنها تستند إلى أصل ثابت فى لغتنا وفى لغات العالم

كافة، بل إلى الأصل الذى أثْرت بفضله جميع اللغات، واكتسبت وسائل جديدة للتعبير ، بدل الاكتفاء بالوسائل القديمة البالية .

وإذن فالالتجاء إلى التعبير الرمزى ليس بدعة ولا نزوة ولا « فنزحة » ؛ لأنه التجاء سليم من حيث المبدأ ومستند إلى أساس فلسفى وأساس لغوى سليم ؛ ولكنه من الواضح أنه إذا كان سليما من ناحية المبدأ فإنه قد يفسد عند التطبيق ، كما أنه قد يتفاوت فى درجة الجودة على نحو ما تتفاوت المجازات القديمة المعروفة فى درجة بلاغتها ؛ فالرمز لا يجوز أن يصبح لغزاً ، كما أنه لا بد أن تقاس جودته بوجه الأثر النفسى الذى تستند إليه عملية النقل من مجال حسى إلى آخر : فإذا قال الشاعر عبده بدوى فى قصيدته « أرضنا » فى وصفه لغدران مصر :

موجـــة الماس على غدرانها
تتغنى بالنشيـــد الأبيض

لم يكن هناك محل لأن يعيب الأستاذ فتحى رضوان عبارة « النشيد الأبيض » ؛ لأن الشاعر يقصد بهذا التعبير حركة الزبد فوق الغدير ولا ضير عليه ، بل له الثناء والإعجاب لتوفيقه فى أن يصف هذا الزبد بأنه نشيد أبيض ، وذلك ما دمنا نحس بوحدة الأثر النفسى التى تنجم من النشيد الحر المنطلق المرح ولون الزبد الهفهاف .

والواقع أن « شعراء أبولو » من أمثال — على محمود طه وإبراهيم ناجى وحسن كامل الصيرفى ومحمد عبدالمعطى الهمشرى — قد أغنوا لغتنا الحديثة بطائفة كبيرة من هذه التعبيرات أو المجازات الرمزية الجميلة الموفقة مثل : « العطر القمرى » و « النغم الوضىء » و « اللحن المفضض و « السكون المشمس » فى قصيدة « النارنجة الذابلة » الخالدة الجمال للشاعر الشاب الهمشرى .

قصيدة عالمية

قلت فيما سبق : إن الرمزية قد ظهرت بأوروبا كمذهب أدبى فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر . وهأنذا أضع تحت بصر القراء ، أو على الأصح تحت إحساسهم قصيدة عالمية لرائد الشعر الرمزى فى فرنسا ، وهو الشاعر « ستيڤان مالارميه » أستاذ الشاعر المعاصر الكبير « بول ڤاليرى » . وقصيدة « مالارميه » بعنوان « البعث » ، وفيها يصف إحساسه أو على الأصح يحاول أن يوحى بالحال النفسية التى سيطرت عليه عند قدوم الربيع فى أعقاب الشتاء فيقول :

لقد طرد الربيع الشاحب فى حزن
الشتاء — فصل الفن الهادئ — الشتاء الضاحى
ومن جسمى الذى يسيطر عليه الدم القاتم
يتمطى العجز فى تثاؤب طويل

* * *

إن شفقاً أبيض يبرد جمجمتى
التى تعصبها حلقة من حديد وكأنها قبر قديم
وأهيم حزناً خلف حلم غامض جميل
خلال الحقول التى يزدهر فيها عصير لانهاية له .

* * *

ثم أخرُّ منهوك العصب بعطر الأشجار
وأحفر برأسى قبراً لحلمى :
وأعضُّ الأرض الساخنة التى تنبت النرجس

* * *

أغوص منتظراً أن ينهض عنى الملل
ومع ذلك فزرقة السماء تبتسم فوق سياج الشجر المستيقظ
حيث ترفرف العصافير كالزهر فى ضوء الشمس

فهذه قصيدة موغلة فى الرمزية ، ومع ذلك لا أظن الرموز تصل فيها إلى حد الألغاز بالنسبة للقارئ الحساس

المدرك ، كما أننى لا أظن أحداً يستطيع أن يصفها بالكفر اللغوى :

فالشاعر يقارن فيها بين الربيع الشاحب فى حزن بحكم ما يبعثه فى النفس أحياناً كثيرة من همود واسترخاء بالشتاء ، الفصل الذى يضحى فيه الفنان إلى أشعة الشمس حيث الهدوء المواتى للإبداع الفنى ؛ وذلك على حين يثير الربيع الدم الحار القاتم فى الجسم ، فيتمطى به العجز فى تثاؤب طويل ؛ وإذا بالفنان يحس كأن شفقاً أبيض يبرد تحت جمجمته ، وكأن هذه الجمجمة قد استحالت إلى قبر قديم ، وكأن حلقة من حديد تعصبها ، فلا يحس الفنان إلا بأحلام غامضة جميلة يهيم خلفها حزيناً دون أن يستطيع الإمساك بها فى قوة خالقة تستطيع أن تحملها على أن تسكن إلى الصورة الفنية المتجسمة الخالدة حتى ليكاد ييئس من عجزه ، ويخر منهوك العصب بعطر الأشجار ليحفر برأسه قبراً لحلمه ، ويعض الأرض الساخنة التى تنبت النرجس ، ومع ذلك فإن هذا الملل المضنى والعجز الواضح يحوطه الربيع بزرقة السماء وبسمة الشجر المستيقظ فوق السياج ورفرفة العصافير كالزهر فى ضوء الشمس .

وما أظن شاعراً قد استطاع أن يوحى عن طريق الرمز بأقوى من هذه الصورة للحال النفسية المركَّبة التى سيطرت على الشاعر عند كتابة هذه القصيدة الخالدة ، وإن يكن من الواضح أن الشاعر فى هذه القصيدة قد استخدم اللغة لا كرموز فحسب ، بل كأزرار كهربية أدارها لكى يضىء نفوسنا ، فنلمح من جوانبها ، أو نتصور ، حالاً نفسية مركّبة، كتلك التى أراد أن يرمز لها ، أى يوحى بها .



الإنسان والمحيطات

مصير البشرية مرهون بمستقبل الأوقيانوس

بقلم ن . ب . مارشال

تبين نظرة واحدة إلى خريطة الكرة الأرضية أن البحار تشغل سبعة أعشار سطحها ، كما ظهر من العلم الذى اجتمع لنا أن الحياة بدأت على الماء ، ولعلنا لا نعدو الصواب إذا دعونا كوكبنا هذا « الأوقيانوس » بدلا من أن ندعوه « الأرض » .

ومنذ قرابة ثلاثة أجيال بدأ الناس يبحثون فى طبيعة «الأوقيانوس» بوجه عام من الناحيتين الطبيعية والبيولوجية ، ومن هنا يصح لنا أن نقول : إن « علم البحار » أو « الأوقيانوغرافيا » لم توضع قواعده إلا فى العام السبعين من القرن الماضى ، ولكن هذا العلم أصبح متسع النطاق اليوم على قصر هذه الفترة ؛ حتى لتحتاج المؤلفات والدراسات المتصلة به إلى مكتبة لحفظها وتبويبها ، وإن كان المجال لا يزال فسيحاً لدراسة أخرى ، وكشف جديد ؛ فإن هناك مناطق شاسعة واسعة من البحار ، فى جنوبى المحيط الهادى مثلا ، والمحيط الهندى أيضاً تحتاج إلى ارتياد دقيق ، واستكشاف مترامى المدى ، ولا معدى فى تلك المناطق المترامية وسواها من القيام بعمل وصفى كثير ؛ لأن هذه الدراسات المرتقبة على الأيام والنظريات والأفكار التى قد تؤدى إليها ، لن تكون ذات أهمية « أكاديمية » فحسب ، بل إن مستقبل البشرية ورخاءها مرتهنان بما ستكشف عنه من أسرار الحياة فى المحيط .

ولا يخفى أن إنتاج الغذاء الكافى لحياة البشر أمر يشغل البال ، ويثير أشد القلق ، وأن الخاطر يضطرب ويشفق أبلغ الإشفاق حين يدرك أن ثلث سكان العالم فقط هم الذين يصيبون قدراً كافياً من الغذاء فى وقتنا هذا ، على الرغم من تصورنا أن الإنتاج فيه طيب إلى حد لا بأس به .

ويبلغ تعداد سكان العالم اليوم ٢٥٠٠ مليون نسمة ، والمنظور أن يبلغ أربعة أضعاف هذا الرقم خلال مائة العام القادمة إذا استطعنا — على حد قول اللورد راسل — أن نتفق على البقاء ، واستغنينا عن الحرب المدمرة . ومن الجلى أن ازدياد عدد السكان بهذه السرعة يقتضى أن نعرف أكبر قدر ممكن من العلم بمدى مصادر الغذاء فى البحار .

ويؤخذ من الدراسات والبحوث التى أجريت منذ نهاية الحرب الماضية أن البحر ينتج خلال فترة معينة من الزمن قدر ما تنتجه الأرض من الكائنات الحية ، وأن هناك بعض أجزاء من المحيط أوفر إنتاجاً من بعضها الآخر ، وأن بحار أوروبا والمناطق القطبية المتجمدة ، والمياه القريبة من شواطئ كاليفورنيا ، وبيرو ، والجنوب الغربى بإفريقية خاصة ، أغنى من سواها بالحياة البحرية ؛ حتى ليصح لنا أن نقول : إنها الأجزاء « المحروثة » من الأوقيانوس .

ولكن هذه « الاستعارة » الزراعية تحتاج إلى شىء من التفسير والإيضاح ؛ ولذا نقول : إن النباتات الميكروسكوبية التى تتألف منها « المراعى » البحرية فى إمكانها أن تجد القدر الكافى من الضوء لمساعدتها على إنتاج غذائها ، فى الطبقة العليا فقط من سطح البحر ، ولكنها لا تنتج ، ولا تخرج شيئاً إلا إذا توافر لها قدر

واف من الأملاح الغذائية كالفوسفات والنترات ، وهذه الأملاح تتجمع بطبيعتها تحت الطبقة العليا التي تحوى هذه النباتات ، وتساعد على نموها ؛ ومن هذا نستخلص أن كل عملية من شأنها أن ترفع المياه العميقة الغنية بالعناصر الغذائية إلى سطح البحر سوف تؤدى على مر الزمن إلى إبعاد المياه الجارية على السطح من الأرض ، والاستعاضة عنها بأخرى أعمق منها تحته ، فنجلب بذلك مورداً جديداً من الأملاح الغذائية ؛ فلا غلوّ إذن فى استخدامنا التعبير عن هذه العملية « بالحرث » كاستعارة من عالم الزراعة ؛ لأن الرياح فعلا هى التى « تحرث » الأوقيانوس ، وتخرج من تحت سطحه مياها أكثر خصباً .

وعلى الرغم من توافر بعض المعلومات بسبيل وفرة « الخصوبة الطبيعية والبيولوجية » فى تلك المناطق التى أسلفنا ذكرها ، لا يزال الأمر يقتضى منا فهماً عاماً شاملا لدى الإنتاج الأوقيانوسى ، ويبدو لنا أن الجنوب الغربى من المحيط الهندى هو بخاصة أصلح منطقة للبحث المطلوب .

إن المشكلة التى لم نهتد حتى الآن إلى فهمها هى أن السفن التجارية التى كانت فى صيف العام الماضى وخريفه تجتاز المنطقة المترامية بين خليج عدن والطرف الجنوبى من الهند ، جعلت تلتقى فى طريقها وأسماكٌ ميتة تشغل عدة أميال مربعة من مياه البحر ، ولم تكن هذه المنطقة قد تحولت عندئذ إلى رقاع منعزلة وبقاع متناثرة ، بل تبين فعلا أن أسماكاً تزن ملايين من الأطنان قد قتلت فى تلك الأنحاء ، فما السبب ؟ .

ليس من شك فى أن هذه المنطقة غنية بالموارد الغذائية ، وربما كان قتل هذه الأسماك بسبب تكاثر أنواع معينة من النباتات الميكروسكوبية الخبيثة وسرعة توالدها ، وربما ساعد على نموّ هذه الأنواع وسواها طفْو مياه أخرى من أعماق البحر غنية بالأملاح الغذائية ، أو بما كان ممات هذه الأسماك عملية مباشرة لادخل لشيء فيها ، ولكن هذا كله رَجمٌ بالغيب ، وضرب فى أودية الحدس ، وقد آن لنا أن نزداد علماً بهذه الظاهرة وأسرارها وعواملها الطبيعية والبيولوجية وسواها من المناطق والبقاع فى عالم البحار ودنيا الأوقيانوس .

وفضلا عن هذا النمو السريع فى عدد سكان الأرض من البشر ، نرى الطاقة الإنتاجية فى العالم تتضاعف مرة فى كل جيل ، ويبدو لنا أن قدراً أوفر من هذة الطاقة سوف يأتى فى المستقبل من تفتيت الذرّة أو « النواة » . وهذا من شأنه أن ينتج فائضاً من المنتجات الإشعاعية لا حاجة بنا إليه ، وقد اقترح العلماء أن نتخلص من هذا الفائض غير المجدى بإلقائه فى قاع البحار العميقة الغور ، ولكن هل هذا هو الحل السليم المستقيم ؟ كلا ؛ فى الإمكان حفظ هذا الفائض فى « فناطيس » أو « مواعين » لن تبقى إلى الأبد ، وقد يكون أجلها أقل من نصف أجَل « الإيزوتوبات » الخطرة التى تشبه « السترونيوم ٩٠ » ، أى أن عزل ذلك الفائض الذى يحدثه الإشعاع الذرى لا يبقى إلا إلى أجل محدود .

وإذا كان ثمة قدر متراكم على مر الزمن من هذا الفائض فى شكل محلول ، فى بقاع البحر العميقة ، فلا معدى للمشتغلين بعلم البحر من الاهتداء إلى مدى حركة الأمواه فيها ، ومعدل سرعة انتشار هذا الفائض فى أرجائها ، وإلى متى تبقى قبل أن تظهر المنتجات المشتقة من الإشعاع الذرى فى الطبقات العليا من الأوقيانوس .

إن كل ما نعرفه فى الوقت الحاضر أن حركة الماء فى بعض أجزاء من البحر قد تستغرق نحو مائة سنة ، ولكن الأمر يقتضى الاستزادة من العلم ؛ حتى يتسنى الوصول إلى تقديرات أثبت من ذلك ، وأقرب إلى الحقيقة .

وقد يكون صحيحاً — القول عامة بأن حركات البحر

سوف تؤدى إلى انتشار أى فائض من فعل الإشعاع أو تناقصه ، ولكن هناك فى الوقت ذاته مواد إشعاعية معينة كمادة « السترونيوم ٩٠ » تنزع إلى « التركز » ، والبقاء بفعل « العضوية » الحية ، ولا يخفى أن الحيوانات البحرية تتجول فى المحيط ، وأن عدداً كبيراً من الأسماك التى تعيش فى المياه العميقة ، كالنوع المعروف « بالحبّار » ، والأسماك « القشرية » يقوم بهجرة واسعة النطاق فى كل يوم ، وانتقال منتظم إلى الطبقات العليا ، أو الطبقات القريبة من السطح ، كلما مالت الشمس إلى المغيب ، ثم يعود إلى الأعماق قبيل مطلعها ، كما ألفت الأنواع الأخرى من الحيوانات البحرية فى دور النشوء « اليرقانى » الصعود إلى الطبقات العليا فى مواسم السفاد والتوالد .

وأكثر هذه التحركات يجرى فى ثلاثة آلاف القدم العليا من ماء البحر ؛ فإذا تم للفائض الإشعاعى الصعود من القاع إلى هذا المستوى ، بادرت العوامل البيولوجية إلى الظهور فى الجزء السطحى من الماء ، والاندماج فى غذاء الأسماك التى من نوع « التونة » الذى يترامى مدى تحركاته وتتسع رقعة هجرته . وليست حدود المحيط حاجزاً يعوق سمك « التونة » من الهجرة والتنقل ؛ فإن بعض أنواع « السالمون » قد تعود من المناطق العميقة فى البحر الملح ، للنمو والتوالد فى المياه العذبة ، وعندما يستعد الثعبان البحرى فى المياه العذبة فى الأنهار الأوروبية للتوالد يصبح سمكاً من أسماك البحر ، فيجتاز الأطلسى إلى مناطق تناسله فى بحر « السرجاس » على حين يستغرق « الدود » — أو ثعبان السمك الذى لا يزال فى طور الزريعة — نحو ثلاثة أعوام فى قطع المسافة بين الموضع الذى يبدأ الهجرة منه إلى مياه الأنهار فى غربى أوروبا ، حيث يعرف عندئذ « بالثعابين » ، وكل هذه الأنواع من السمك ستحمل معها أية مادة إشعاعية تكون قد تراكمت ، وتجمعت لديها .

ومع مراعاة هذه الاعتبارات الطبيعية والبيولوجية يصح لنا أن نسأل : ما مقدار الفضلات الإشعاعية الزائدة على الحاجة التى يمكن تخزينها بأمان فى أعماق البحر دون المساس بغذائنا ؟

وهو سؤال لا نستطيع الجواب عنه بدقة فى الوقت الحاضر ، ولا ريب فى أن المعلومات التى قد تيسر ذلك لنا تقتضى جهداً بالغاً ، ولكن هذا الجهد لا يمكن أن يعجز الأمم التى تملك السفن المخصصة للبحوث البحرية التى فى هذا النطاق .

* * *

ولا يزال للمحيط وجه آخر على جانب من الأهمية لنا ، وهو تأثيره فى « المناخ » ، وقد تهيأ لنا بعض العلم فى هذه الناحية ، ولكنه ليس بالقدر الكافى ؛ فنحن لا نستطيع التكهن بالتغييرات المنتظرة فى « المناخ » ، وحسبنا أن نورد هنا مثلا واحداً ، وهو أن نتائج دراستنا لحرارة الجو فى العالم منذ عام ١٩٠٠ تدل على أن معدل درجة حرارة الجو ظل فى ازدياد مستمر من ذلك التاريخ بمعدل درجة واحدة تقريباً بمقياس سنتيجراد فى كل مائة سنة ، فهل تستمر هذه الزيادة ؟ وإنه ليبدو غريباً لأول وهلة أن الدفء فى المستقبل قد يكون ذا أثر ظاهر فى مدى النشاط البشرى ، وبخاصة فيما يتعلق بالتطور الصناعى ، ونحن اليوم فى سبيل الظفر بالطاقة الإضافية المطلوبة للصناعة ، نستهلك أنواع الوقود الحجرى ، والفحم والزيت وننتج مقادير ضخمة من « ثانى أوكسيد الكربون » . وقد أنتجنا منذ بداية الانقلاب الصناعى فى تاريخنا قدراً من هذا الغاز يعادل نحو ١٢ فى المائة من الكميات المتوافرة الآن فى الجو .

* * *

وقبل أن ننتقل إلى البحث فى طاقة المحيط ومبلغ قدرته على امتصاص هذا الكربون ، لا معدى لنا عن الكلام بإيجاز عن الحرارة التى تفقدها الأرض ، فنقول :

إن كل الطاقة الحرارية المستهلكة تقريباً هي فى شكل الأشعة التى تحت الحمراء ، ولكن جزءاً من هذا الإشعاع يقف فى طريق انتقاله إلى الفضاء ، ولا سيما من أثر الذرّات الدقيقة التى يتكون منها « ثانى أوكسيد الكربون » ، وكل عمل هذا الغاز هو إبقاء الحرارة فى الجو ؛ فهو من هذه الناحية يشبه فى عمله الزجاج المحيط بمستنبت الخضر « الصوبة » .

وقد تبين أن للمحيط مقدرة بالغة على امتصاص هذا الغاز ؛ حتى يصح أن نقول إن أغلب المقادير التى أضفناها منه إلى الفضاء فى القرن الماضى قد ذهب على الأرجح فى البحر ، ولكن المنتظر فى مائة السنة القادمة أن تنتج هذه الزيادة المستمرة فى أنواع الوقود الحجرى قدراً من ثانى أوكسيد الكربون يعادل سبعين فى المائة من الكمية المتوافرة الآن فى الفضاء ، وهو مقدار يتجاوز فى الغالب ما فى إمكان المحيط أن يمتصه . وقد تكهن عالمان أمريكيان بأن معدّل السرعة المتزايدة التى ينتقل بها هذا الكربون فى الفضاء سيؤدى فى غضون الخمسين سنة القادمة إلى زيادة مقاديره فى الجو ثلاثين فى المائة .

فإذا صح هذا فمن الجائز أن يبقى قدر أوفر من الحرارة المشعة من الأرض داخل نطاق الفضاء ، وقد يصبح زجاج المستنبت الأرضى أكثر تأثيراً مما هو الآن ، وقد يرتفع على كل حال من استمرار الرقابة على الكميات التى يحتويها الفضاء من ثانى أوكسيد الكربون ، والواقع أن هناك فعلا دراسات وبحوثاً ومقاييس تجرى خلال السنة الجغرافية الدولية ، وإن كان إدراكنا الشامل للمشكلة لن يتيسر لنا إلا بزيادة معرفتنا بمدى تبادل هذا الأوكسيد بين الهواء والبحر .

* * *

ولم نختر هذه المشكلات الثلاث الواسعة النطاق المتصلة بالمحيطات ، ونعنى بها وفرة الإنتاج البحرى ، والتصرف فى الفائض من الإشعاع الذرى ، وتغيرات « المناخ » على غير قصد ، أو عفو الخاطر ، بل قصدنا باختيارها أن نبين أنها كانت جميعاً موضع دراسة فى مؤتمر دولى عقده من عهد قريب العلماء المشتغلون بالبحر فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وهى أيضاً مشكلات ترتبط بالعوامل الطبيعية والبيولوجية داخل نطاق المحيط .

وهنا أكرر القول بأن مدى معارفنا الحاضرة بدقائق « الأوقيانوغرافيا »* لم يستكمل بعد ، ولا يزال ينقصه الشىء الكثير ، وإن توافرت النظريات والأفكار بسبيلها ، وتهيأت وسائل دراستها ؛ فإن أردنا الظفر بالمزيد المطلوب منها فى غضون السنوات القليلة القادمة ، فلا بد من أن نحشد له جهوداً واسعة المدى تشترك فيها دول العالم كلها ؛ لأن الوقت ، والمال ، والمجهودات التى يقتضيها هذا الدرس تنوء به طاقة دولة واحدة .

ويصح هذا القول أيضاً إذا نحن أردنا أن نرتاد الأجزاء التى لاتزال مجهولة من المحيطات الارتياد الكافى المجدى ، وقد وضعنا فى المؤتمر الذى عقدناه فى أمريكا وأسلفنا ذكره خطة ترمى إلى إيفاد بعثة دولية إلى المحيط الهندى لتحقيق هذا الهدف ، وهو أمر قد يحتاج إلى توافر ست عشرة سفينة من سفن البحوث ، تتولى تقديمها الأمم التى تملك شيئاً منها . والمأمول أن تتحقق هذه الخطة ؛ فلا سبيل إلى الحصول على مزيد من العلم بمسائل المحيط — وهو الملكية العامة بين البشر — إلا بتضافر الجهود ، وتضامن الإنسانية ، فى هذا الميدان .

عن مجلة « The Listener »

(*) « الأوقيانوغرافيا » علم وصف المحيطات وظواهرها .

الكاتب السياسي الاشتراكي الانجليزي جورج أورويل

عرض لحياته من ترجمة للأستاذ أمير كامل

إن قيمة الكاتب تقدر بالموضوعات التى يعالجها ، والفلسفة التى يعتنقها ، والأفكار التى يبديها ، والأسلوب الذى يكتب به ، والطريقة التى يعرض بها موضوعه وآراءه ؛ ولذلك احتل الكاتب السياسى جورج أورويل مكانة مرموقة عند النقاد فى صدر حياته ، وتمتع بمكانة كبيرة متزايدة فى أيامه الأخيرة وبعد وفاته عند القراء والنقاد والأدباء ، ولم تمض سنوات قليلة على هذه الوفاة حتى أصبح علماً كبيراً ، وظهر جيل من الكتاب الإنجليز فى وقتنا الحاضر يجاهر بأنه تتلمذ لأورويل ، وأنه يأخذ عنه .



جورج أورويل

ولقد حاول أورويل أن يصل فى قصصه إلى دوافع السلوك البشرى ، ووجد أن الحافز الأصلى لسلوك الفرد السوى هو إثبات وجوده ؛ وفى سبيل هذا الغرض أقر أورويل أن يحطم الفرد القوانين إذا كانت جائرة أو ظالمة ، أو وضعها طاغ أو محتل ، كما اعترف بحق الجماعة فى الثورة وتغيير النظم التى لا ترضاها ، وواجه أورويل الموضوع الصعب الشائك : مصير الجنس البشرى بأسره . ولا شك أن تلك جرأة من الكاتب وطموح ؛ فقد كان عرضة لأن يصيبه الفشل الذريع ، ولكنه أصاب نجاحاً وحظى بالذكر . وقد واجه أورويل هذا الموضوع بشجاعة ، فلم يكتف بأن يكون هو موضوع آخر رواياته « ١٩٨٤ » ، وإنما عالجه أيضاً فى بعض مقالاته : فمثلا فى مقالته « تحريم الأدب » رسم لنا صورة لمصير الإنسان فى عصر تسيطر عليه الآلات سيطرة تامة ، وتتدخل فى كل شىء حتى فى أفكار الإنسان ، ويسيطر عليه الطغيان نتيجة لانقسام العالم إلى معسكرات وكتلات من الأحلاف العسكرية ، ولوجود فئات قليلة لا يرضيها إلا ممارسة السلطان وإذلال الآخرين . وهذه الصورة التى جلاها لنا أورويل ، ويطلق عليها النقاد اسم « الصورة الأورويلية » لا يمكن أن نصفها بالتشاؤم أو الإمعان فى اليأس ؛ فقد كان يحذر بنى البشر ، ويحاول أن يجذب انتباههم إلى ما يحدث فعلا فى العالم فحسب ، وكانت طريقته هى التتبع والوصول إلى نهاية ما اعتقد أنه التطور المنطقى للمبادئ والأنظمة والمخترعات التى يألفها العالم الآن . وفى نهاية قصته « ١٩٨٤ » بالرغم من أن ونستون سميث بطل الرواية الذى يمثل الفرد المفكر المثقف أذعن وخضع ،

فإنه بقى على قيد الحياة ، كما أن العامة وهم سواد الشعب قد استمروا فى الحياة وإن كان الطغيان لم يذلهم .

وطالما بقى العالم منقسماً إلى كتلتين كبيرتين تهدد كل منهما الأخرى بالفناء ، وتسعى إلى ضم الدول المحايدة إليها ولو عن طريق التهديد ، فسيقرأ الناس جورج أورويل ، ويناقشونه محاولين أن يجدوا فى كتاباته مخرجاً للإنسان من محنته الحاضرة. والواقع أن قصة مثل «١٩٨٤» كانت نتيجة حتمية لتطور أورويل وارتقائه ككاتب وكإنسان : فكتبه الأولى « الفقر والصعلكة فى باريس ولندن » و « أيام بورما » و «حافظ على نبات الأسبيديسترا » و «الصعود طلباً للهواء »، وبعض مقالاته كمقاله عن سلفادور دالى زعيم السيرياليين تختص بالتدهور والفساد الأخلاقى فى المدنية الحالية التى دعاها أورويل بالمدنية الرأسمالية ، وتهدف إلى إظهار أنه ما لم يعالج هذا الفساد ، فالنتيجة هى أن يسود الطغيان الذى لا يهدد حرية الفرد فحسب ، بل يهدد الوجود البشرى؛ ولذلك هاجم أورويل الطغيان وكل ما يهدد العدالة والحرية والخلق القويم ، وهى الضمانات ضد الاستبداد فى نظره ، وهذا معناه أنه كان على أورويل منذ بدأ يكتب أن يكون كاتباً سياسياً ، وأن ينحاز إلى وجهة نظر معينة ، فانضم إلى حزب العمال واعتنق الاشتراكية ، ودافع عنها فى كتبه « الطريق إلى ويجان » و « الأسد ووحيد القرن » و « الشعب الإنجليزى » ، كما طالب بتصفية الإمبراطورية البريطانية .

وقد اعتقد أورويل أنه يصعب على الكاتب أن يتجنب السياسة ، وأن الأدب محاولة للتأثير على وجهة نظر المعاصرين بتسجيل الخبرات ، وأن الفن دعاية ، وأن للأدب هدفاً ، وللأديب رسالة هى دائماً سياسية ؛ لذا حاول فى كتاباته فى النقد الأدبى أن يثبت أن السياسة قد غزت الأدب فى مختلف العصور ، وأن لمعظم الكتاب والشعراء والروائيين اتجاهاً سياسياً ؛ولقد دفعه هذا إلى أن يحذر قراءه من الكتاب الذين اعتنقوا أو عبروا عن آراء سياسية كان يعتبرها خاطئة .

* * *

وبعض مقالات أورويل مثل « هكذا ،هكذا كانت المسرات » و « لماذا أكتب ؟ » و « ذكريات عن الحرب الإسبانية» ، كتبها عن نفسه وعن فترات من حياته . ومؤلفاته مثل «الفقر والصعلكة فى باريس ولندن » و « الطريق إلى ويجان » و « الولاء لقطالونيا » تحدثنا عن خبراته فى مثل هذه الأماكن . وإن كثيراً من الشخصيات فى رواياته لهى شخصية أورويل نفسه ، كما أن الكثير من حوادثها حدثت له هو فعلا ، وكل كتبه ورواياته تعتبر سياسية سواء زادت أم قلت صبغتها .

وإذ كان أورويل هكذا غارقاً فى السياسة فقد حاول أن يجعل من الكتابة السياسية فناً من الفنون ، وهذا يتطلب اهتماماً بالكتاب ومشكلاتهم وخبراتهم ؛ لأنهم غالباً كتاب وأعضاء فى حزب سياسى فى الوقت نفسه .

وقد وجد أورويل أن النثر هو أحسن وسائل التعبير فى الكتابة السياسية ، ولكنه لا يزدهر إلا إذا كان الكاتب حراً لا يرتبط إلا بما يمليه عليه ضميره ، كما وجد أن لغة السياسة الحالية يقصد بها جعل الأكاذيب تبدو حقائق ، وهى تعبر عن آراء الحزب ؛ ذلك لأن الكتاب يستخدمون دون وعى العبارات المحفوظة الخاصة التى يستعملها كل حزب للتعبير عن مبادئه ومهاجمة خصومه . وقد اعتقد أورويل أن الكاتب لا يمكن أن يعبر عن رأيه الشخصى الذى قد يكون غالباً ضد اتجاه الحزب الذى ينتمى إليه إلا إذا فكر أولا فى المعنى ، وبعد هذا يختار اللفظ ؛ فالتفكير الواضح سيؤدى إلى الكتابة الواضحة ، والكتابة الواضحة تساعد الناس على أن يكونوا على احتراس من أى خداع سياسى .

وهكذا اهتم أورويل بأن يخلق وينشر أسلوباً

« بسيطاً » سلساً دقيقاً واضحاً مكتوباً باللغة العادية . ومحاولاته واضحة فى مقالتيه « السياسة واللغة الإنجليزية » و « الكتاب والعمالقة » ، وهذا الأسلوب ، كان هو نفسه يستعمله فى كتاباته، وقد ساعده — كما يقول — على تحقيق غرضه ، وهو أن يجعل من الكتابة السياسية فنا عندما كتب كتابه الرائع « مزرعة الحيوان » . والواقع أن هذا الأسلوب هو أعظم ما صنع أورويل .

* * *

ولم تمتد الحياة بأورويل لإتمام رسالته ؛ فأى تقصير إنما يرجع فى المكان الأول إلى موته المبكر سنة ١٩٥٠ ، ولعل كتاباته التى مات قبل أن يكتبها كانت ستعوض أى خطأ فنى فى كتاباته الأولى أو أفكاره لو كان أتيح له الوقت لكتابتها .

ومن قصة حياة أورويل استخلص الأدباء الإنجليز الكثير من العبر : فقد ولد فى عام ١٩٠٣ فى البنغال فى الباكستان حيث كان والده يشغل وظيفة متواضعة ، وقاسى أورويل من تزمت الطبقة المتوسطة وعيشة الحرمان والتقشف التى تحياها كى تحافظ على مظهرها الخارجى ، وتبدو أمام الناس أرقى اقتصادياً واجتماعياً من حقيقتها . وكعادة الطبقة المتوسطة فى التضحية بالمال فى تعليم أولادها لترفع من مركزهم الاجتماعى والاقتصادى عن طريقه أرسل أورويل عام ١٩١١ إلى مدرسة إعدادية خاصة باهظة المصروفات ، على شاطئ إنجلترا الجنوبى ، وتلاميذها الأغنياء من جميع أنحاء العالم ، ومن بينهم بعض الأمراء الروس .

وقد تعذب أورويل فى هذه المدرسة ؛ فوجوده مع التلاميذ الأغنياء زاد من إحساسه بفقره ، وقوى من مركب النقص عنده ، وخاصة أن تلاميذ المدرسة كانوا يلقون ثلاثة أنواع من المعاملة ، كل بحسب جاه والديه وثرائهما : ففئة يغفر لها كل شىء ، وفئة يغفر لها أحياناً ، وفئة ومنها أورويل لا يغفر لها أبداً ! ولم يكن أورويل قدقبل فى تلك المدرسة إلا لإحساس ناظرها — وقد اتضح فيما بعد أنه كان إحساساً صادقاً — أن أورويل سيحصل على منحة دراسية فى كلية إيتون — المدرسة الخاصة بأبناء الطبقة الراقية فى إنجلترا — وفى هذا إعلان عن المدرسة ، وفعلا حصل أورويل على تلك المنحة ، والتحق بكلية إيتون، وبقى فيها من عام ١٩١٧ ،حتى عام ١٩٢١ . وعندما انتهى من دراسته فى إيتون لم يحصل على منحة فى جامعة كمبردج ، ونصحه معلموه بالاشتغال فى خدمة الإمبراطورية فى الهند حيث يحصل على مرتب عال يتيح له اعتزال العمل فى سن مبكرة ومعه قدر كاف من المال .

فالتحق أورويل بخدمة « البوليس » فى بورما ، وسرعان ما نفر من مساوى الاستعمار ؛ فالمستعمرون ظالمون ، والمستعمَرون قد فسدت أخلاقهم بسبب تهافتهم على استرضاء المحتلين ، وقام العداء بينهم ، ودبر بعضهم المؤامرات لبعض تقرباً من المستعمر ، وضاعت القيم الأخلاقية والمثل العليا مما جعل أورويل يهاجم فكرة الإمبراطورية البريطانية فى وقت كان فيه أكثر الكتاب الإنجليز اعتداداً بحرية الفكر لا يجاهرون بهذا الرأى . وعندما حضر أورويل فى إجازة إلى أوروبا عام ١٩٢٧ قدم استقالته ، ولم يعد إلى بورما ، وعاش فى باريس لرخص المعيشة فيها عنها فى لندن ، ولاعتقاده أنه يستطيع أن يكسب مالا عن طريق إعطاء دروس فى اللغة الإنجليزية والكتابة فى الصحف وتأليف القصص ، ولأن العادة جرت فى الأعوام التالية للحرب العالمية الأولى على أن يستقر الكتاب والفنانون فى باريس مدرسة الأدباء والفنانين من أنحاء العالم كافة ، وخاصة من أمريكا وإنجلترا حيث يعيشون العيشة التى اصطلح على تسميتها بالعيشة البوهيمية ، وفيها يتحررون من كل قيود السلوك وآداب الملبس والمائدة ، وفيها يكتسبون الخبرات التى تساعد على نموهم كأدباء وفنانين .

ولكن نقود أورويل نفدت فى باريس ، والقصص التى كتبها لم تنشر ، والدروس التى كان يعطيها قد انقطعت ، فقاسى مرارة الفقر ،وأمضى أياماً بلا طعام ، واضطر أن يشتغل غاسل أطباق فى فندق كبير ، فرحل إلى لندن حيث استمرت سنو فقره ؛ إذ لم يحصل على عمل مناسب ، كما لم يستطع أن ينشر شيئاً مما كتب ، بسبب الأزمة العالمية الطاحنة التى حدثت حوالى عام ١٩٣٠ ، واضطر فى لندن أن يخالط المشردين والصعاليك، وأن ينام فى الميادين ويستجدى، حتى اشتغل معلماً خاصاً، ومدرساً فى مدرسة حرة، وأجيراً فى الحقول ، ثم بعد هذا عمل مدة عام أو أكثر بائعاً فى إحدى المكتبات التى تبيع الكتب المستعملة . وفى عام ١٩٣٣ استطاع أن ينشر أول كتاب له « الفقر والصعلكة فى باريس ولندن Down and Out in Paris and London» وفيه صور عن حياته كطريد ومشرد فى هاتين المدينتين .

وفى عام ١٩٣٤ نشرت له إحدى دور النشر فى نيويورك قصته الأولى « أيام بورما Burmese days » ، وتحوى نقداً لفكرة الإمبراطورية البريطانية ، وفى عام ١٩٣٥ استطاع أورويل أن يعيش على ما يربحه من كتاباته ، وعند نهاية تلك السنة انتقل إلى الريف ، وافتتح مخزناً تجاريًّا صغيراً ، ولكنه لم يربح منه شيئاً ، ونشر فى العام نفسه قصته « ابنة القس A Clergyman's Daughter » ، ونسب إلى بطلتها بعض ما قاساه من فقر وحرمان .

وفى عام ١٩٣٦ نشر قصته « حافظ على نبات الأسبديسترا Keep the Aspidistra Flying » وهى أيضاً عن حياته عندما كان بائعاً فى حانوت الكتب ، ثم تزوج فى صيف ذلك العام ، وفى السنة نفسها سافر إلى شمالى إنجلترا على حساب الناشر المعروف فيكتور جولانز ، ليدرس حال الطبقات العاملة ، ويكتب عنها كتاباً . وقد نشر الكتاب عام ١٩٣٧ باسم « الطريق إلى ويجان The Road to Wigan Pier » ، وفيه رسم أورويل صورة مؤثرة للفقر والمرض والقذارة والبطالة المنتشرة بين عمال مناجم الفحم ، كما مجّد فيه كفاح هذه الطبقات فى سبيل العيش ، وقد تكلم فى بعض فصول الكتاب عن نفسه وعن تطور آرائه ، وأعلن أنه اشتراكى ، وذكر أن إيراده من جميع المصادر وقت تأليف الكتاب كان ثلاثة جنيهات فى الأسبوع .

وفى أواخر عام ١٩٣٦ ذهب إلى إسبانيا من قبل دار النشر المعروفة « ساكرو اربورج » ؛ ليكتب بعض المقالات عن الحرب الأهلية بين الحكومة الشيوعية والجنرال فرانكو ، ولكنه اشترك فى القتال اشتراكاً فعليًّا ضد فرانكو ؛ ذلك لأن فرانكو كان يؤيده هتلر وموسولينى ، وكان نظام حكمهما الديكتاتورى وسعيهما للسيطرة على العالم وحملة موسولينى على الحبشة — كل ذلك قد استثار شك جميع الأدباء الأحرار الإنجليز والأمريكان فى فرانكو، وجعلهم ينظرون إلى روسيا —وكانت لم تعان من أزمة سنة ١٩٣٠ كما عانى بقية العالم— بإعجاب ، ويرون فى نظامها الشيوعى خلاصاً من عيوب النظام الرأسمالى وما يسبب من فقر وبطالة نشأ من توسع هتلر وموسولينى فى أوروبا ؛ لذلك وقفوا بجانب حكومة إسبانيا الشيوعية التى تؤيدها روسيا .

وقد خدم أورويل مدة أربعة أشهر فى جبهة الأراغون مع جماعة شيوعية تتبع تعاليم تروتسكى خصم ستالين الشخصى ، مما جعل الحكومة الإسبانية تنظر إليه بشك ، وقد جرح جرحاً خطيراً ، لكنه لم يترك آثاراً سيئة. ووصف أورويل مغامراته فى إسبانيا فى كتاب نشره عام ١٩٣٨ سمّاه « تحية الولاء لقطالونيا Homage to Catalonia » حوى نقداً شديداً للحكومة التى حارب فى صفها ، وعزا انتصار فرانكو إلى سوء تصرفها وتفشى الخيانة فيها ، كما أعلن فقد ثقته بروسيا وستالين ، وهو شعور شاركه فيه الكثيرون من الكتاب اليساريين الذين كانوا يميلون إلى روسيا من قبل .

وعندما عاد إلى إنجلترا استقر فى الريف يؤلف

الكتب ويربى الدواجن ويزرع الخضراوات ، ونشر عام ١٩٣٩ قصة سمَّــاها « الصعود طلباً للهواء Coming up for Air » ، ولما نشبت الحرب العالمية الثانية رُفض تطوعه فى الجيش لسوء صحته ، فتطوع فى الحرس الوطنى ، واستخدمته محطة الإذاعة البريطانية ليوجه سلسلة من الأحاديث إلى الهند ، ونشر عام ١٩٤١ كتابه « الأسد ووحيد القرن The lion and the unicorn »، وهو دراسة للاشتراكية من وجهة نظر العقلية الإنجليزية . ومن ذلك التاريخ حتى عام ١٩٤٤ لم ينشر كتباً بسبب ظروف الحرب ، ولكنه كان يراسل صحفاً كثيرة ، واشتهر بعدة مقالات فى السياسة والنقد والأدب . وفى عام ١٩٤٥ نشر « مزرعة الحيوان Animal Farm » ، وهى رواية خرافية كما سمّاها ، ولكنها ذات مغزى سياسى بعيد جعل عدة دور للنشر ترفض نشرها ؛ لأنها كانت تهاجم ستالين وتنتقد الحكم فى روسيا فى وقت كانت فيه من حلفاء الإنجليز فى الحرب الدائرة ضد الألمان . وقد جلبت له هذه الرواية الثراء والشهرة ، فاعتزل العالم فى جزيرة جورا فى شمال أسكتلندا بعد موت زوجه ، وعاش مع شقيقته فى مزرعة اشتراها ، ثم نشر كتابه « الشعب الإنجليزى The English People » ، وهو كتيب صغير فى سلسلة اسمها « بريطانيا مصورة » ، ثم شعر بشدة الوطأة من مرض السل ، وبالرغم من هذا كتب ونشر روايته المشهورة « ١٩٨٤ » آخر رواياته ، ثم تزوج ثانية عام ١٩٤٩ ، ولكنه مات بعد ذلك فى يناير سنة ١٩٥٠ .

* * *

والمقال الطويل الذى كتبه أورويل عن تشارلس ديكنز فضلا عن إلقائه ضوءاً على ديكنز يرينا اتجاه أورويل الأدبى وأسلوبه فى النقد ، ويوضح وجهات نظره ، ويلقى ضوءاً على قصصه نفسه :

يقول أورويل : إن ديكنز كتب عن الطبقة المتوسطة ، ولم يكن ناجحاً عندما كتب عن الطبقات العاملة ، وإن أبرز الشخصيات من العامة فى كتابات ديكنز هى بيل سايكس اللص فى قصته « أوليفر تويست » ، وسام ويلر الخادم فى « أوراق المستر بيكويك » ، والمسز جامب المرأة السكيرة فى « الأوقات العصيبة » ، وهؤلاء لا يمثلون طبقة العمال تمثيلا صحيحاً . وكانت رسالة ديكنز أخلاقية ، كان يريد من الناس أن يسلكوا سلوكاً أفضل ، ولا يجد القارئ فى ديكنز أى اقتراح إيجابى أو إيعاز بأن الثورة ضرورية لتحسين المجتمع ، أو أن النظام الاقتصادى وقت ديكنز كان باطلا ؛ إذ كان يطلب من الناس أن يغيروا ما بقلوبهم فحسب ؛ فلو أصبح الأغنياء والحكام أكثر عطفاً فسيسير كل شىء سيراً حسناً . وقد أظهر ديكنز بوضوح فى قصته « صديقنا المشترك » أن فى امتلاء قلوب الأفراد بالعطف والرحمة علاجاً لكل الشرور .

ويعلل أورويل موقف ديكنز هذا بأن سببه هو كراهيته للجماهير وخوفه من عنف الغوغاء ، ويرجح أورويل أن ديكنز كان يعتقد فى التطور والتقدم عن طريق التعليم ، ولم يستطع أن يحل مشكلة كبيرة ، وهى منع إساءة استعمال السلطة ، ولم يكن لديه النظر الثاقب ليرى أن الملكية الفردية عقبة واضحة فى طريق تقدم المجتمع .

ويرفض أورويل رأى الناقد المعروف تشسترتون من أن ديكنز كان المعبر عن حال الفقراء ، و يرى أن ديكنز كان ينفر من الفقراء نفور رجل الطبقة المتوسطة الذى أصابه الفقر ، وعندما كان ديكنز صغيراً واشتغل عاملا فى مصنع كان يتجنب زملاءه من أبناء طبقة العمال ، وفيما بعد كان يرتاع من الأفكار التى تسود الطبقات المفلسة . ويعترف أورويل بأن ديكنز كان حقًّا فى جانب الفقراء ، لكنه لم يكن أبداً واحداً منهم ، ولا يرضى أورويل عن قصص ديكنز ؛ فديكنز لا يجعل الحوادث تحدث لأبطاله وغيرهم من الأفراد فى قصصه وهم يعملون ، ولكن حين يمضون وقت فراغهم ؛ فحوادث القصة

ليست ناجمة عن نوع العمل الذى يقوم به الفرد فى معظم الأحوال . ويعترض أورويل على مثل هذه النهاية لإحدى قصص ديكنز كدليل على أن ديكنز لم يكن يحتم أن يكون الفرد ذا هدف فى الحياة، أو يكون منتجاً من الناحية الاقتصادية ؛ فديكنز يقول فى نهاية قصته : « مائة ألف جنيه ، ومنزل قديم غريب يكسوه اللبلاب بكثرة ، وزوجة كلها أنوثة وعذوبة ، وقطيع من الأولاد ، ولا عمل » .

وقد اعترض أورويل أيضاً على حوادث قصص ديكنز التقليدية التى لا معنى لها ، وعلى طريقة ديكنز غير المباشرة فى سرد قصته التى كثيراً ما تضيع فى التفصيلات الكثيرة ؛ وبذلك تفقد القصة وحدتها ، كما اعترض على أشخاص ديكنز الذين يمثلون نماذج من البشر، وكل منهم يمثل صفة معينة ، دون أن يظهروا كأشخاص يكافحون فى الحياة ؛ وبذلك يصيبون نموا وتقدما؛ وإنما يظهرون كأناس قد تم صقلهم وصياغتهم ، وكل التغيير الذى يحدث فيهم هو تغيير خارجى فى المركز أو الدخل أو الصلات الاجتماعية ، وليس لهم حياة فكرية ، ولا يحاولون أن يتأملوا الدنيا أو يناقشوا موضوعات صعبة ، ولا يشعر القارئ أن ديكنز يتحدث عنه ، ولا يوجد أشخاص مرهفو الحس أو ذوو نزعات شاعرية ، كما لا توجد مأساة حقيقية أو حب جنسى عند ديكنز .

ويرى أورويل أن استعداد ديكنز الأدبى لم يكن لكتابة القصة ، ولكنه دفع إلى كتابتها ؛ لأنه كان مصلحاً أخلاقياً، عنده عظة يريد إلقاءها ، ولم يكن يهتم بالموضوعات العقلية أو يحاول أن يتفهمها ، كما لم يهتم بالآلات . وقد أساءت الميلودراما ، والفقرات التى كتبت بالشعر المنثور ، والصفحات التى ترمى إلى استدرار دمع القارئ — إلى قصص ديكنز .

ولكن أورويل يرى أن ديكنز كان فكهاً ؛ لأنه كان متمرداً على السلطات ، كما أنه لم يكن متعصباً لقوميته بدرجة مبتذلة .

وأورويل كان كديكنز يكتب فى قصصه عن الطبقة المتوسطة ، ولكنه أعجب بمقاييس الحياة عند الطبقات الوسطى الصغيرة ، وهى التمسك بالمظهر المحترم والعمل والزواج والتناسل فى قصته « حافظ على نبات الأسبيديسترا » ، والأسبيديسترا نبات كان أهل الطبقة المتوسطة يحتفظون به فى أصص توضع فى النوافذ للدلالة على أنهم ليسوا من طبقة العمال ؛ وبذلك اعتبر رمزاً للطبقة المتوسطة ، ولكن أورويل مع هذا كتب عن الفقراء وعن طبقات العمال بعطف ومودة وبأقصى ما يمكن إظهاره من الاحترام . وكان أورويل يسارياً انتقد النظام الاقتصادى ، ونادى بالمساواة ؛ وإذا كان فى قصصه الأولى يريد تغييراً فى الصميم ، ويؤكد أهمية التعليم فى « ابنة القس » و « الصعود طلباً للهواء » كوسيلة للتقدم فى المجتمع فإنه فى « مزرعة الحيوان » دافع عن مبدأ الثورة . وقد قدم لنا أورويل أبطاله وهم يعملون ، كما أن حوادث القصة حدثت خلال عملهم بسبب نوع العمل الذى كانوا يقومون به ؛ فأظهر لنا دوروثى بطلة رواية « ابنة القس » وهى تدير منزل أبيها ، تجمع النباتات فى مقاطعة « كنت » ، وكذلك وهى تقوم بالتدريس فى لندن . ورأينا جوردون بطل « حافظ على نبات الأسبيديسترا » يخدم « الزبائن » فى حانوت بيع الكتب ، وتتبعناه وهو يحاول أن يؤلف قصيدة ، وتتبعنا ونستون بطل « ١٩٨٤ » وهو يقوم بعمله فى الوزارة ، و يكتب فى مفكرته ، كما تتبعنا الحيوانات فى « مزرعة الحيوان » وهى تؤدى عملها .

* * *

وتنتهى قصص أورويل والناس الذين تدور حولهم إما فى حال ليست أفضل من ذى قبل مثل قصة « حافظ على نبات الأسبيديسترا » أو فى الحال نفسها ، ولكن

بعد أن تحطم حلم أو أمل ، مثل قصة «ابنة القس» و « الصعود طلباً للهواء » ، أو فى حال أسوأ ، مثل « أيام بورما » و «١٩٨٤» ، أو أسوأ مما فى المنتصف ، ولكن مثل البدء تماماً ، كما لو أن شيئاً لم يحدث لهم أبداً ، أو كما لو أن حوادث القصة لم تحدث أصلا مثل « مزرعة الحيوان » . ولا يوجد فى كل هذه القصص أى دليل أو إشارة على أن المستقبل سيجلب سعادة ، أو ما يبرر وجود أمل بحدوث تحسن فى المستقبل فى حياة الأفراد الذين تدور حولهم القصة .

* * *

وحوادث قصة أورويل « بسيطة » وغير معقدة ، ولا تضيع القصة فى رواياته الأولى بالرغم من التفاصيل غير الضرورية والموضوعات العقلية ،والمناقشات التى نجدها فيها . وقد أبان المؤلف فيها وصفاً للحياة الفكرية لأبطاله ، وأظهرهم لنا وهم يناضلون ، لتكون لهم فلسفة معينة فى الحياة . وليست الشخصيات الرئيسة فى قصصه ذات جانب واحد مثل شخصيات ديكنز ، وإنما لها أحاسيس شاعرية : مثال ذلك حب باولنج بطل « الصعود طلباً للهواء » — لبركة الأسماك ؛ كما أن هذه الشخصيات تحب المناقشات وهى شديدة الرغبة فى المعرفة . وفى قصص أورويل مآس حقيقية ؛ فمثلا فلورى بطل « أيام بورما » وونستون بطل « ١٩٨٤ » من الشخصيات التراجيدية ، كذلك القس المجدف فى « ابنة القس » ؛ فكلهم غلبوا على أمرهم بسبب نقطة ضعف فى تكوين شخصية كل منهم .

* * *

ولا توجد فى قصص أورويل رغبة فى استدرار دمع القارئ ، ولكن هناك ميلودراما فى كل قصصه ، حتى قصة « ١٩٨٤ » ؛ فى هذه القصة نجد أن بارسون يلقى به فى السجن نتيجة لوشاية أبنائه به لدى بوليس الفكر ، كما نجد أن ونستون وجوليا يتقابلان ويدركان أن الحب الذى كان بينهما قد انتهى ، وأن ونستون بعد ما عذب يبكى عندما يرى نفسه فى المرآة . وأكثر الأجزاء فى كتابات أورويل إمعاناً فى الميلودراما نجدها فى «مزرعة الحيوان» عندما جرت كل الحيوانات خلف عربة الجزار التى كانت تسوق الحصان بوكسر إلى النطع ،وصاح به الحمار بنجامين أن يقفز من العربة ، ولكن بوكسر عجز ، وتركت العربة المزرعة قبل أن تستطيع الحيوانات إيصاد البوابة .

ونستطيع أن نقول أيضاً إن أورويل لم يكن يصلح لفن كتابة القصة ؛ إذ كان واعظاً ومصلحاً أخلاقياً ، ولكنه كان يختلف عن ديكنز فى أنه اعتقد أن التقدم الآلى حتمى ، كما يتضح ذلك فى قصة « مزرعة الحيوان » وقصة « ١٩٨٤ » ، وإن علينا أن نقيم حياتنا على ضوء هذه الحقيقة ، ولم يكن فى استطاعة أورويل أن يكون فكها مثل ديكنز ،ولو أن رسم الكثيرين من شخصياته غير الهامة فى حوادث القصة مأخوذ من ديكنز : فائدة إفطار المسزكريفى فى قصة « ابنة القس » عليها مسحة من ديكنز ، وتذكرنا بمائدة أخت بيب فى قصة « الأمانى الكبيرة » لديكنز ؛ إذ فى كل منهما تقوم سيدة بمحاولات مضحكة لحرمان شخص بائس يقاسمها الطعام من الحصول على قدر كاف لإشباعه ، ولولا المغزى السياسى والأسلوب السلس الواضح ما كان لقصص أورويل أى ذكر وإن كتب البقاء لاسمه ككاتب مقال .

* * *

هكذا كان أورويل: عاش ليدافع عن حرية الفرد وحرية الأديب وحرية الجماهير والشعوب الضعيفة ؛ إذ كان أخشى مايخشاه أن يستبد إنسان بإنسان أو جماعة بجماعة أو دولة بدولة ؛ فهو ينشد المساواة والإخاء والعدالة للجميع .

المـرأة المصـريـة

بين رفاعة الطهطاوى وقاسم أمين

بقلم الدكتور أحمد أحمد بدوى

رجلان مجددان تلقيا دراستهما الأولى بمصر، وأتمّاها فى فرنسا، فرأيا البيت الفرنسى وما للمرأة من أثر قوى فيه، حتى صار بفضلها جنة وارفة الظلال؛ فأحبَّا للمرأة المصرية أن تظفر بثقافة واسعة تمكنها من أن تشغل مكاناً رفيعاً فى الحياة الاجتماعية.

رأى رفاعة أن المرأة «من أجمل صنع الله القدير، قرينة الرجل فى الخلقة، والمعينة له فى تدبير أمره، والحافظة لأطفاله، والساهرة على العناية بتدبير أمورهم، والماسحة بيدها همومهم وآلامهم»، ولكنها تمتاز عنه بجسم أليْن وألطف شكلا، لا يؤهلها لأن تشاركه فى الأشغال الشاقة. وبنْيَة جسمها على الرقة واللين توجب كونها ألطف من الرجل طبعاً، وأرقّ حاشية، وأن يكون من صفاتها: الشفقة والرحمة والعطف والحنان والرِّفق واللين؛ وأن عندها استعداداً لأن تتنزه عن عوائد الرجال الخشنة: كالغضب والحقد والبغضاء والشقاق.

واعتاضت المرأة عن بنيتها الضعيفة بقوّة عقلها، وحدّة إحساسها وإدراكها، «فإذا كانت الأنثى مع عقلها الغريزى ذات معارف كافية، وظرائف شافية، زادها عقلها كمالا على ما تعرفه. وبما فيها من الذكاء تدرك حقائق الإشارات، ودقائق الكنايات، ورقائق التوجيهات والتلميحات، وتؤوِّل المعنى الذى تسمعه بأحسن التأويلات والتوريات، وتقدر على التلميح والتعريض والتورية فى الخطابات والمحاورات»؛ ولهذا رأى رفاعة أن تعلُّم الأدب حسن فى الرجال والنساء جميعاً ولكنه فى النساء أحسن؛ لما فيهن من الرقة الطبيعية، والمحاسن المعنوية.

وقرّر رفاعة فى كتابه «المرشد من الأمين» ما للمرأة الأثر فى دفع الرّجل إلى العلا، وتطلعه إلى المجد، وتمسكه بمكارم الأخلاق؛ «فإنّ الرجل يتمنى دائماً نجاح أفعاله، وصلاح أشغاله، وثمرة مشروعه؛ ليعجب زوجته أو غيرها، فتشهد بالفتوّة والشجاعة والبراعة؛ فطمح أنظار الرجل فى نجاحه وفلاحه وكسبه واغتنامه، إرضاء زوجته المحبوبة، وذوات قرابته من النساء؛ فهل من ميدان يسلكه الفتى من ميادين الفخار، وحلبة يسابق فيها الشّهم أقرانه من حلبات الاعتبار، إلا يلاحظ فيها المدح ممن يهواها؛ فنجاحه دائماً مقرون باستحسان النساء، وربما كنّ معضّدات لحماسته، ومهيجات لتنشيط جوده وسماحته؛ فإن الشهم يفرح كلّ الفرح، ويسرّ كلّ السرور، وتقرّ عينه متى بلغه استحسان ربات الحجال، لما صدر عنه من منتجات الأعمال: فهو يحبّ دائماً أن تكون له منزلة فى قلب من يهواها من النساء، فيتشبث دائماً بتجشم الأخطار لبلوغ الأوطار، فتجده إذا تحرّى الصّدق والأمانة، أو حصل على كمال المعرفة لما فيه من ملكة الذكاء والفطنة، أو نظم القصائد الطنانة الرّنانة، أو اكتسب النصرة فى الحروب، أو اخترع شيئاً فى الصّنائع والفنون طبق المرغوب... فلا تصدق لهجته، ولا تلوح بهجته، إلا إذا كان عند النساء بمكانة علية، وعقيدة قوية، فشهادتهن له شهادة

عادلة ، واعتقادهن فيه بحسن العمل تزكية فاضلة ، وهذا ما يحمله على كمال الاجتهاد ، وأن يزاول تحصيل المناقب الحميدة : ليدرك مرامه ، ويسكن من قلوب النساء فى صميم الفؤاد » . وذلك اعتراف قوىّ بما للمرأة من أثر بالغ فى حياة الرجل .

وإذا كان للمرأة هذا الأثر القوىّ فمن الخطأ تركها ترسف فى أغلال الجهل ، بل من الواجب أن نفسح أمامها الطريق ، لكى تغترف من العلم ما يهيئها لأداء رسالتها خير أداء .

وربما كان رفاعة أوّل من نادى بتحرير المرأة من ربقة الجهل فى العصر الحديث ؛ ففى كتاب « المرشد الأمين » يدعو إلى أن تنال الفتاة حظها من العلم ، كما ينال الفتى ، مؤيداً رأيه بأمور شتّى :

أوّلها — ما للتعلم من أثر قوىّ فى إسعاد بيت الزوجية ، وحسن معاشرة الأزواج : فالتعلم يخلق التناسب والتجانس بين الزوجين ، ويجعل المرأة أهلا لمشاركة الرجل فى الكلام وتبادل الرأى ، ويبعدها عن سخف العقل والطيش . وإن حصول المرأة على العلوم والمعارف وثقافتها الممتازة ، أجمل صفات الكمال ، وأرفع قدراً عند الرجل من الجمال .

وثانيها — أن آداب الفتاة ومعارفها تؤثر كثيراً فى أخلاق أولادها : فابنتها الصّغيرة إذا رأت أمها مقبلة على مطالعة الكتب ، وضبط أمور البيت ، وتربية أولادها ، أحبت أن تقلدها فى ذلك ، على الضد مما إذا رأتها مقبلة على زينتها وتبرجها ، وإضاعة وقتها فى هذر الكلام والزيارات التى لا فائدة منها ؛ فإن البنت تشبُّ مضياعاً لوقتها ، منصرفة عن النهوض ببيتها .

وثالثها — أنّ العلم يهيئ للمرأة سبيل العمل ، فتتعاطى من الأعمال ما يتعاطاه الرجال ، على قدر قوتها وطاقتها إذا دفعها الحال إلى ذلك .

ورابعها — أنّ التجربة قد قضت فى كثير من البلاد بأنّ نفع تعليم البنت أكثر من ضرره ، بل إنه لا ضرر فيه أصلا .

وخامسها — أنه قد روى فى كتب الأحاديث روايات كثيرة عن النساء ، وقد كان فى زمن رسول الله من النساء من تعلم النساء القراءة والكتابة .

وتعرّض رفاعة لمن ينكر على المرأة حقها فى تعلم القراءة والكتابة ، فأبان أنه قد كان من أزواجه ، صلوات الله عليه ، من تقرأ وتكتب : كحفصة بنت عمر ، وعائشة بنت أبى بكر ؛ ولم يعهد أن النساء يتبذلن بسبب آدابهن ومعارفهن .

* * *

هذه الدّعوة التى جاهر بها رفاعة حمل لواءها من بعده قاسم أمين ، ويكاد الرجلان يتفقان فى أن التربية العلمية للفتاة يجب أن تشبه التربية العلمية للفتى ؛ فقد كتب رفاعة موضوعاً فى كتابه « المرشد الأمين » عنونه بقوله : « مطلب أنه يحسن عدم الفرق فى تعليم البنين والبنات أصول المعارف الحسنة للتربية على حدّ سواء » ؛ وفصّل قاسم أمين فى كتابه « المرأة الجديدة » مذهبه فى أنّ الصّواب ألا تنقص تربية المرأة عن الرّجل .

ويتفقان فى أنّ للمرأة أن تتعاطى من الأعمال ما يتعاطاه الرّجال ، عند مساس الحاجة إليه ؛ ولذا كان من الواجب أن تتهيأ للنهوض بمثل هذا العبء ؛ ويعتقد أن بعض المهن تصلح للمرأة ، كالخياطة والتطريز : يقول قاسم أمين : « يوجد حرفتان أودّ أن تتجه نحوهما تربية البنات عندنا ، الأولى : صناعة تربية الأطفال وتعليمهم ؛ والحرفة الأخرى : هى صناعة الطب ؛ وكذلك يمكن المرأة أن تشتغل بجميع الأعمال التى قوامها التّرتيب والتنظيم ، ولا تحتاج إلى قوة العضل والأعصاب كالتجارة » .

وقف رفاعة فى دعوته إلى النهوض بالمرأة عند حدّ تعليمها ؛ أما قاسم أمين فلم يقف عند هذا الحدّ ، بل نادى بأن يكون للمرأة من الحرّية ما للرجل ؛ فلها ،

كما له ، أن تختلط ؛ ولم يتحدث رفاعة عن الاختلاط فى كتابه ، وإن كان يفهم ضمناً أنه يبيحه للضرورة ، عندما تضطرّ المرأة إلى النزول فى ميدان العمل كالرجل وهو ما أباحه لها رفاعة ، كما أنه أبدى إعجابه بالمنزل الفرنسىّ ، تزيّنه المرأة المثقفة ، ويكمل بحضورها الأنس ؛ فلعلّ رفاعة كان يبيح الاختلاط فى دائرة محدودة ، وعند الضرورة ؛ أما فى غير ذلك « فالطريق المغنية عن الغيرة ألا يدخل عليها الرجال ، وهى لا تخرج إلى السوق » .

والمفهوم من مجموع كلامه أنه لا يريد الاختلاط .

ولم يَدعُ قاسم أمين إلى تعليم المرأة وحريّتها فحسب ، ولكنه دعا إلى تخفيف الحجاب ، وردّه إلى أحكام الشريعة الإسلامية التى أباحت للمرأة الكشف عن وجهها وكفيها ، وقد رأى « أنّ الغربيين قد غلوا فى إباحة التكشف للنساء إلى درجة يصعب معها أن تتصوّن المرأة من التعرّض لمثارات الشهوة ، ولا ترضاه عاطفة الحياء ، وقد غالينا نحن فى طلب التحجب والتحرج من ظهور النساء لأعين الرجال ، حتى صيّرنا المرأة أداة من الأدوات ، أو متاعاً من المقتنيات ، وحرمناها كل المزايا العقلية والأدبية . . . وبين هذين الطرفين وسط ، هو الحجاب الشرعىّ الذى ندعو إليه » .

لم يتعرّض رفاعة لحجاب المرأة ، ولم يدعُ إلى إزالته ، وإن كان يرى أن عفة النساء لا تأتى من تكشفهنّ أو سترهنّ ، بل منشأ ذلك التربية الجيدة والتعوّد على محبة واحد دون غيره ، وعدم التشريك فى المحبّة ، والالتئام بين الزّوجين .

وشنّ قاسم أمين حرباً شعواء ضدّ تعدّد الزوجات ، فلم يجزه إلا فى حال الضرورة المطلقة ؛ أما فى غيرها فهو حيلة لقضاء شهوة بهيمية ، وهو علامة تدلّ على فساد الأخلاق ، واختلال الحواس ، وشره فى طلب الملاذ .

أما موقف رفاعة من ذلك فموقف المجيز ، بشرط العدل بين الزوجات ، وإن كان الأفضل الاقتصار على واحدة ، إذا لم تدع الحاجة إلى غيرها . وما أورده من بعض القصص يوحى بشقاء من يؤثر تعدّد الزوجات .

وتعرّض قاسم أمين للطلاق ، واقترح له نظاماً يحد من سوء استخدامه ؛ حتى لا تتعرّض الأسرة وأفرادها للانهيار والتشرّد .

* * *

ومن تلك الموازنة يبدو أنّ دعوة رفاعة كانت دعوة محدودة إلى تعليم المرأة تعليما يراد به أوّلا وبالذّات إسعاد الأسرة ؛ أما دعوة قاسم أمين فدعوة شاملة يراد بها إنهاض المرأة ورفع مستواها الاجتماعى تمهيداً للمساواة التامة بين الرجل والمرأة حتى فى الحقوق السياسية ، عندما تتهيأ المرأة لاستعمال هذه الحقوق ؛ فلا عجب إذا لم تثر دعوة رفاعة تلك الضّجة التى أثارتها دعوة قاسم أمين ؛ فإنه مهما يكن من أمر المخالفين له فى شأن تعليم المرأة فإنّ صوتهم لا بدّ أن يخفت أمام ضوء العلم ، وما يسلم به الناس من فضله وفوائده فى المجتمع ؛ ولهذا وجدت فكرة تعليم المرأة فى ذلك الحين ترحيباً من الطبقات العالية ، فأخذت الأسر الكبيرة تعلم بناتها فى المنازل على يد معلمين ومعلمات ، فظهرت طبقة من سلالة البيوت الكبيرة نالت حظّا وافرًا من العلم والثقافة ، ومن هذه الطبقة نذكر الكاتبة الشاعرة عائشة تيمور .

كانت دعوة قاسم أمين تجديدية شاملة ، يراد بها نقل المرأة من حياة راكدة ألفتها ، وألفها الشعب ، إلى حياة عاملة مشاركة مجدّدة ، وكان فى دعوته إلى التحرر من الحجاب ، وإلى حرّية المرأة ، وإلى تعديل نظم الزواج والطلاق ما أثار عليه كثيراً من نفوس المحافظين ؛ مما دعا إلى مقابلة دعوته بما قوبلت به من اصطدام وضجة ، ولسنا نستطيع أن ننكر ما لنشأة الرجلين التعليمية ، وما للزمن من أثر فى اتجاه دعوتيهما .

مراجع البحث :

(١) المرشد الأمين ، لرفاعة الطهطاوى .

(٢) تخليص الإبريز ، لرفاعة الطهطاوى .

(٣) مناهج الألباب المصرية ، لرفاعة الطهطاوى .

(٤) تحرير المرأة ، لقاسم أمين .

(٥) المرأة الجديدة ، لقاسم أمين .

مخطوط الدكتور مانت

بقلم تشارلس دكنز
ترجمة الأستاذ محمد بدران

كل من قرأ قصة مدينتين تأليف الكاتب الإنجليزى الكبير تشارلس دكنز يذكر بلا ريب بطلها الدكتور مانت سجين الباستيل الذى قضى شطراً كبيراً من حياته فى إحدى حجرات هذا السجن السياسى المظلمة التى أنسته كل شىء عن ماضيه ؛ فلم يكن يذكر إلا رقمه فى السجن وعمله فى صناعة الأحذية . والدكتور مانت – وإن كانت شخصيته خيالية ابتدعها عقل دكنز – مثل صحيح لنزلاء السجن السياسى الذى كان المسجونون يزجون فيه لذنب أو لغير ذنب يقضون فيه حياتهم ولا يعلم أحد شيئاً عن مصيرهم . وكان من أكثر أجزاء هذه القصة أثراً فى النفس المذكرات التى كتبها مانت قبل أن يذهب طول سجنه بعقله ، وها هى ذى المذكرات مقتبسة من هذه الرواية الخالدة .

أنا ألكسندر مانت ، الطبيب البائس ، من أهل بوفيه ، والمقيم بعدئذ فى باريس ، أسطر هذا المخطوط المحزن فى حجرتى الانفرادية المظلمة بسجن الباستيل فى الشهر الأخير من عام ١٧٦٧ . وأنا أكتبه فى أوقات أختلسها اختلاساً ، وألاقى فى ذلك أشد الصعاب ، وسأخفيه بعد كتابته فى جدار المدخنة حيث أعددت له بعد عمل شاق دام زمناً طويلا مكاناً أودعه إياه ، لعل يداً رحيمة تعثر عليه بعد أن أستحيل أنا وأحزانى تراباً .

وأنا أكتب هذه الألفاظ بسن حادة صدئة وبمداد مصنوع من سناج الفحم أنتزعه من المدخنة وأمزجه بدمى ، وذلك فى الشهر الأخير من السنة العاشرة من سنى سجنى ، وأعانى فى كتابتها صعاباً جمة ، وأنا موقن من النذر الرهيبة التى تبينتها من نفسى أن عقلى لن يظل سليما زمناً طويلا ، ولكننى أعلن صادقاً أنى الآن مالك لكل قواى العقلية ، وأن ذاكرتى سليمة صافية دقيقة ، وأنى حين أدون هذه الألفاظ الأخيرة لا أكتب إلا الحقيقة التى سأسأل عنها يوم الحساب أمام الواحد الديان سواء قرأها الناس أو لم يقرءوها .

* * *

كنت فى ليلة مقمرة غائمة فى الأسبوع الثالث من ديسمبر – أظنها ليلة اليوم الثانى والعشرين منه – فى عام ١٧٥٧ ، أسير فى مكان منعزل على رصيف نهر السين ، أستنشق الهواء البارد على مسير ساعة من مسكنى فى شارع مدرسة الطب ، وبينما أنا سائر على هذا النحو إذ أقبلت من خلفى عربة مسرعة ، فتنحيت جانباً لأفسح لها الطريق ، خشية أن نصطدم ، ولكن رأساً أطل من نافذة العربة ، وانبعث منه صوت يأمر السائق بالوقوف .

ووقفت العربة بأسرع ما يستطيع السائق جذب جواديها ، ونادانى ذلك الصوت نفسه باسمى ، فرددت عليه ، وكانت العربة فى أثناء ذلك قد تقدمتنى بحيث وجد الرجلان فسحة من الوقت يفتحان فيها بابها وينزلان قبل أن أصل إلى مكانها . ولاحظت أنهما يلبسان معطفين ، وبدا لى أنهما يخفيان شخصيتيهما ، وألقيت نظرة عليهما وهما يقفان متجاورين قرب باب العربة فخيل إلى أنهما فى نحو سنى ، أو أقل قليلا ، وأنهما متماثلان فى طول القامة ، وفى مظهريهما ، وصوتيهما وفى وجهيهما (على قدر ما استطعت أن أتبينه وقتئذ) .

وقال أحدهما : « هل أنت الدكتور مانت ؟ »

فأجبت : « نعم ».

وقال الآخر : « الدكتور مانت الذى كان يقيم من قبل فى « بوفيه » ، والطبيب الشاب ، الذى كان أولاً إخصائياً فى الجراحة ، والذى أخذت سمعته تنتشر فى باريس خلال السنة الماضية أو السنتين الماضيتين ؟ ».

فأجبتهما قائلا : « نعم يا سيدى ، أنا الدكتور مانت الذى تفضلتما بذكر اسمه مقروناً بالثناء عليه » .

وقال أولهما : « لقد ذهبنا إلى مسكنك ، فلم يسعدنا الحظ بوجودك فيه ، وقيل لنا إنك فى أغلب الظن تتنزه بالقرب من هذا المكان فجئنا فى أثرك لعلنا نلحق بك ، فهل تتفضل بركوب العربة ؟ » .

وكان كلاهما صارماً فى مظهره ، ولما نطق أولهما بما نطق به تحركا حركة أصبحت معها واقفاً بينهما وبين باب العربة ؛ وكانا مسلحين ، أما أنا فلم يكن معى سلاح .

وقلت لهما : « معذرة يا سيدى ، لقد اعتدت أن أسأل : من ذا الذى يتفضل فيطلب معونتى ؟ وما نوع المرض الذى أدعى لعلاجه ؟ » .

وأجاب الرجل الذى تحدث فى المرة الثانية عن هذا السؤال ، فقال : « إن مرضاك يا دكتور من ذوى المكانة ، أما عن نوع المرض الذى يتطلب معونتك فإننا لا نرتاب أبداً فى أنك ستعرفه بنفسك خيراً مما نستطيع أن نصفه لك ؛ حسبك هذا ، وتفضل بركوب العربة » .

ولم يسعنى إلا أن أجيبهما إلى طلبهما ، وركبت معهما فى صمت ، وركب كلاهما بعدى ، وقفز الأخير منهما إلى داخل العربة بعد أن رفع سلمها ، وعادت العربة أدراجها ، وانطلقت بسرعتها السابقة .

وأنا أذكر هذا الحديث بنصه ، ولا يخالجنى شك فى أن كل كلمة من كلماته هى التى قيلت بالفعل ؛ وكذلك أصف كل شىء كما وقع ، وأركز عقلى حتى لا يشرد عن الموضوع . وإذا كان فى هذه المذكرات نقط تدل على عدم اتصال الحديث فسبب ذلك أنى أقف عن الكتابة مؤقتاً لأضع الورقة فى مخبئها . . . .

واجتازت العربة الشوارع وتركتها من خلفها ، ومرت بالحاجز الشمالى ، واندفعت فى الطريق الريفى . وبعد أن قطعت نصف فرسخ — وهى مسافة لم أقدرها وقتئذ ، بل قدرتها فيما بعد حين اجتزتها — خرجت عن الطريق الرئيسى ، ووقفت عند باب بيت منعزل عن سائر البيوت ، ونزلنا منها نحن الثلاثة ، ومشينا فى طريق ضيق لين مرطوب فى حديقة حيث نافورة مهملة ترسل الماء حتى وصلنا إلى باب البيت ، ولم يفتح الباب على الفور ، حين دق الجرس ، فلما فتح لطم أحد الرجلين اللذين كانا معى الرجل الذى فتحه على وجهه بقفازه السميك .

ولم يكن فى هذا العمل شىء يسترعى نظرى بنوع خاص ؛ فقد رأيت من قبل بعض العامة يضربون أكثر مما تضرب الكلاب ، ولكن رفيقى الآخر كان هو أيضاً مغضباً ، فضرب بيده الرجل الذى فتح الباب ، وكان الأخوان متماثلين فى مظهرهما وسلوكهما تماثلاً أدركت معه لأول مرة أنهما توءمان .

وكنت منذ اللحظة التى نزلت فيها من العربة عند الباب الخارجى — الذى وجدناه مغلقاً ، ففتحه لنا أحد الأخوين ثم أغلقه بعد أن دخلنا — أسمع صراخاً منبعثاً من إحدى الحجرات العليا ، وأخذت من فورى إلى هذه الحجرة ، وكان الصراخ يزداد شدة كلما صعدنا الدرج ، فلما دخلتها وجدت فيها امرأة مريضة مصابة بحمى مخية ، مستلقية على سرير .

وكانت المريضة ذات جمال بارع ، وفى مقتبل العمر ، لا تزيد سنها كثيراً على عشرين ربيعاً ، وكان شعرها منفوشاً ومقطوعاً بعضه ، وذراعاها مشدودتين إلى جانبيها بأربطة ومناديل يد . ولاحظت أن هذه القيود كانت كلها منتزعة من ملابس رجال ، وأن أحدها —

وهو طيلسان ذو أهداب مما يلبس فى الحفلات — يحمل شعار أحد النبلاء وحرف ا .

شاهدت هذا فى الدقيقة الأولى أثناء بحثى حال المريضة ؛ ذلك بأنها فى محاولاتها المضطربة كانت قد انقلبت على وجهها عند طرف سريرها ، وأدخلت طرف الطيلسان فى فمها وأوشكت أن تختنق .وكان أول ما عملته أن أخرجت الطيلسان بيدى، لأساعدها على التنفس ، فلما أخرجته استرعى نظرى النقش الذى فى طرفه .

وقلبتها بلطف على ظهرها ، ووضعت يدى على صدرها لأهدئها ، ولألقى نظرة على وجهها . وكانت عيناها متسعتين يستبين الناظر فيهما أثر الرعب ، ولم يكن ينقطع لها الصراخ النفاذ المصمُّ للآذان ، وكانت تكرر تلك الألفاظ : زوجى ، وأبى ، وأخى ! ثم تعد من واحد إلى اثنى عشر وتقول بعدها : صه ! وتسكت بعدئذ لحظة لا أكثر يبدأ بعدها الصراخ النفاذ مرة أخرى ، وتكرر قولها : زوجى، وأبى ، وأخى ! وتعدُّ من واحد إلى اثنى عشر ، وتقول : صه ! وكان هذا كله يجرى على وتيرة واحدة بلا تغيير فى ترتيبه أو فى طريقة النطق به ، ولا تنقطع عنه إلا فى فترة السكوت المنتظمة .

وسألت : « كم من الوقت مضى عليها وهى على هذه الحال ؟ » .

وسأميز الأخوين أحدهما عن الآخر بأن أطلق على أحدهما اسم الأخ الأكبر ، والآخر اسم الأخ الأصغر ؛ وأقصد بالأكبر ذلك الذى كان له معظم السلطان ، وكان أكبرهما هو الذى أجاب بقوله : « منذ هذه الساعة أو نحوها فى الليلة الماضية » .

— « وهل لها زوج ، وأب ، وأخ ؟ » .

— « لها أخ » .

— « ألا أتحدث الآن إلى أخيها ؟ » .

فأجاب بازدراء شديد : « لا » .

— « هل لها صلة حديثة بالرقم ١٢ ؟ » .

فأجاب أصغر الأخوين وهو فارغ الصبر : « بالساعة الثانية عشرة » .

وقلت لهما ويداى لا تزالان على صدرها : « إنكما لتريان يا سيدىّ أننى لا أستطيع أن أكون ذا فائدة ما بالوضع الذى أنا فيه الآن ! ولو أننى عرفت ما قد جئت لأفعله لأحضرت معى ما أنا بحاجة إليه ؛ أما والحال كما هى الآن ، فلا بد من ضياع بعض الوقت ، وليس فى مقدورنا الحصول على دواء فى هذا المكان المنعزل » .

ونظر أكبر الأخوين إلى أصغرهما ، فقال هذا فى كبرياء وغطرسة : « إن لدينا هنا علبة أدوية » ؛ ثم تناولها من خزانة ، ووضعها على النَّضَد . . .

وفتحت بعض قنينات الدواء ، وشممت بعضها ، ووضعت أغطيتها على شفتى ، ولو أننى كنت أريد أن أستعمل أى شىء غير الأدوية المسكنة ، وهى نفسها أدوية سامة ، ما استعنت بشىء مما قدمه لى .

وسألنى الأخ الأصغر قائلا : « أتشكُّ فيها ؟ »

فأجبته قائلا : « إنك لترى ياسيدى أنى سأستعملها» ولم أقل غير هذا .

وجعلت المريضة تبتلع القدر الذى أردت أن أعطيها إياه من الدواء ، بعد أن بذلت فى سبيل ذلك جهداً كبيراً ، ولم يكن ابتلاعه بالأمر الهين عليها . وإذ كنت عازماً على أن أكرر الجهد بعد وقت قصير ، وكان لا بد لى من مراقبة أثر الدواء فى المريضة ، فقد جلست على حافة السرير .

وكانت تقوم بخدمتنا امرأة وَجلة (هى زوجة الرجل الذى تركناه فى الطبقة السفلى) ، وقد ابتعدت عنا فى أحد أركان الحجرة .

وكان البيت رطباً متهدماً ، يبدو على أثاثه عدم العناية به ، ما سكنه مَنْ فيه إلا منذ وقت قريب ، ولا يقيمون فيه إلا مؤقتاً . وقد علقت بعض الأستار القديمة السميكة على نوافذه لتخفف من حدة الصرخات ، التى ظلت

تتوالى بنظامها المعتاد ، مصحوبة بالنداء : زوجى ، وأبى ، وآخى ! وبالأرقام من واحد إلى اثنى عشر يتبعها قولها : صه .

وكانت النوبة حادة ، فلم أشأ أن أحل الأربطة التى تقيد الذراعين ، ولكننى استوثقت أنها لا تؤلم المريضة . وكان كل ما خلته من دلائل التشجيع فى حالها أن وَضْعَ يدى على صدرها قد هدأها بعض الشىء ، وأن هذا الهدوء كان يستمر فى كل مرة بضع دقائق . غير أن يدى لم يكن لها أثر فى الصراخ ، فقد كان ينبعث منها فى انتظام دونه انتظام خطار الساعة !

وإذ كان لبدى هذا الأثر فى المريضة (كما أظن) ، فقد جلست إلى جانب سريرها نحو نصف ساعة ، والأخوان ينظران إلىّ ، وأخيراً قال أكبرهما :

« إن بالدار مريضاً آخر » .

وارتعت لهذا القول ، وسألته : « هل هى حال عاجلة ؟ » .

فأجاب فى غير اكتراث : « يحسُن بك أن ترى ذلك بنفسك » . ثم أمسك بمصباح . . . .

وكان المريض الثانى يرقد فى حجرة خلفية يصعد إليها بدرجات أخر ، أشبه بعلِّية فوق إسطبل ، وكان لجزء من هذه الحجرة سقف منخفض مطلى بالجص ، أما بقيتها فكانت مكشوفة إلا من عروق من الخشب . وكان فى هذا الجزء المكشوف دريس وقش وخشب للوقود وكمية من التفاح المغطاة بالرمل ، وكان لا بد لى أن أمر بهذا كله كى أصل إلى المريض . إن ذاكرتى فيما أرويه قوية دقيقة لا تخوننى ، وأنا أمتحنها بذكر هذه التفاصيل ، وكأنى أشاهدها الآن أمامى فى حجرة الباستيل الضيقة بعد عشر سنين أو نحوها من بداية سجنى ، كما كنت أشاهدها طوال تلك الليلة .

وكان غلام قروى وسيم — لا يتجاوز السابعة عشرة من العمر على أكثر تقدير — يرقد على كومة من الدريس وتحت رأسه وسادة ، وكان مستلقياً على ظهره ، مصراً على أسنانه ، ويده اليمنى مقبوضة على صدره ، وعيناه تحدقان إلى أعلى . ولم أستطع رؤية مكان جرحه حين ركعت على إحدى ركبتى ، وانحنيت فوقه ، ولكننى أدركت أنه كان يلفظ أنفاسه الأخيرة من جرح أصيب به من آلة حادة .

وقلت له : « إنى طبيب أيها الشاب المسكين ، دعنى أفحص جرحك » .

« لست أريد أن يفحصه أحد ، فدعه وشأنه » .

وكان الجرح تحت يده ، فلاطفته حتى سمح لى أن أزيحها عنه . وكان من أثر طعنة سيف ، تلقَّاها من مدة تتردد بين عشرين وأربع وعشرين ساعة ، ولكن حذق الطبيب مهما بلغ لم يكن لينجيه من الموت لو أنه عنى به على الفور . وكان وقتئذ يحتضر . ولما التفت إلى أكبر الأخوين رأيته يحدق بعينيه فى هذا الغلام الوسيم المحتضر كأنه طير جريح أو أرنب برية لا مخلوق آدمى .

وسألته : « كيف وقع هذا يا سيدى ؟ » .

— « إنه كلب صغير مسعور ! إنه رقيق أرض ! لقد أرغم أخى على أن يستلّ سيفه ، فسقط مدرجاً بدمه بطعنة من سيف أخى ؛ فقد طعنه طعنة السيد الشريف » .

ولم يكن فى هذا الرد أثارة من شفقة ، أو حزن ، أو أية صفة مماثلة لهما من صفات الإنسانية . ولاح لى أن المتحدث كان يقرُّ بأن من غير المرغوب فيه أن يموت فى ذلك المكان هذا الصنف المخالف له من الخلائق ، وأنه لو مات المبتة المألوفة التى تلقاها الحشرات من أمثاله لكان ذلك خيراً ، ولم يكن يطوف بقلبه طائف من شعور الرحمة بهذا الغلام أو بمصيره .

وكانت عينا الغلام قد اتجهتا نحوه وهو يتحدث ، ثم عادتا فاتجهتا نحوى على وجل :

— « أيها الطبيب ، إن هؤلاء النبلاء متكبرون أشد الكبرياء ؛ ولكننا نحن الكلاب ، من السوقة نتكبر

أحياناً ، إنهم ينهبوننا ، ويعتدون علينا ، ويضربوننا ، ويقتلوننا ، ولكنهم يجدون فينا أثارة من الكبرياء باقية أحياناً ؛ وهي ... هل رأيتها يا دكتور ؟ » .

كان الصراخ يصل إلى آذاننا في هذا المكان وإن كان بُعد المسافة قد أضعفه ، وكان هو يشير إليه كأن أخته معنا .

فأجبته : « نعم رأيتها » .

— « إنها أختي يا دكتور » .

— « لقد كان هؤلاء النبلاء ينالون حقوقهم المهينة ، فيعتدون على كرامة أخواتنا وعفتهن ، كانوا يفعلون هذا منذ سنين طوال ، ولكن كان من بيننا بنات فاضلات . إني أعرف هذا ، وقد سمعت أبي يقصه علينا . وكانت أختي فتاة فاضلة ، وقد خطبها لنفسه شاب صالح مثلها ، من زارعيه فنحن كلنا من زارعي هـذا الرجل الواقف هناك ، وهذا الآخر أخوه وهو شر جماعة الأشرار كلهم » .

وكان الغلام يلاقي أشد الصعاب وهو يستجمع قواه الجسمية ليستطيع الحديث ، ولكن روحه كانت تتحدث وتؤكد الألفاظ تأكيداً رهيباً .

« ولقد نهبنا ذلك الرجل الواقف هناك — كما ينهبنا جميعاً نحن عامة الكلاب أولئك السادة الأعلون — فيفرض علينا أفدح الضرائب بلا رحمة ، ويرغمنا على العمل في خدمته بلا أجر ، ويضطرنا إلى أن نطحن حبوبنا في طاحونته ، ونطعم المئات من طيوره الداجنة من محصولاتنا القليلة ، ويحرم علينا أن نحتفظ لأنفسنا بشيء من الطيور وإلا جوزينا على ذلك أقسى الجزاء ، ويسلط علينا ضروباً من السلب والنهب بلغ من شدتها أن أحدنا إذا نال قطعة من اللحم كان يأكلها وهو خائف وجل ، بعد أن يغلق عليه باب بيته ومصاريع نوافذه خشية أن يراه أشياع ذلك الرجل فيختطفوها منه . أقول : إن ما كنا نلاقيه من سلب ونهب وما يصبونه علينا من عذاب ، وما نعانيه من ذلة وفقر ، قد بلغ من الشدة درجة قال معها آباؤنا : إن من أعظم البلايا أن يولد للإنسان طفل في هذا العالم ، وإن أحب الدعوات التي نوجهها إلى المولى جلت قدرته ألا تلد نساؤنا وأن ينقرض جنسنا البائس من العالم ! » .

لم أكن قد شاهدت في يوم قبلُ الإحساس بالظلم يعبّر عنه أحد مثل هذا التعبير الملتهب . نعم إني كنت أظن أن هذا الظلم كامن في مكان ما في الشعب ، ولكنني لم أره قط ينفجر حتى شاهدته في هذا الغلام المحتضر .

ثم واصل الشاب حديثه قائلا : « ومع ذلك فقد تزوجت أختي يا دكتور . وكان حبيبها المسكين مريضاً في ذلك الوقت ، وقد تزوجته كي تعنى به وترعاه في كوخنا ، كوخ الكلاب ، كما يحلو لذلك الرجل أن يسميه . ولم يمض على زواجهما إلا بضعة أسابيع حتى وقعت عليها عين أخي هذا الرجل ، فأعجب بها ، وطلب إلى هذا الواقف هنا أن يعيرها إياه ، نعم يعيرها إعارة السلع ! وهل للأزواج قيمة عندنا ؟ ولم يمانع الرجل ، ولكن أختي كانت عفيفة صالحة ، وكانت تكره أخاه بقدر ما أكرهه أنا . أتعلم ماذا فعل الرجلان لكي يحملا زوجها على أن يؤثر فيها ، فتجيب ذلك الوغد إلى ما طلب ؟ » .

واتجهت عينا الصبي في تلك اللحظة إلى أحد الأخوين الذي كان ينظر إلينا ، وقد كانتا من قبل تحدقان في عيني ، وأيقنت من ملامح وجهيهما أن كل ما قاله صحيح . وفي مقدوري أن أرى الآن ذينكما الصنفين المتعارضين من الكبرياء يواجه أحدهما الآخر حتى في ظلام الباستيل : أرى كبرياء الشريف الذي يتسم بعدم المبالاة والاكتراث ، وكبرياء القروي وعواطفه تطؤها الأقدام ، وأرى معهما الرغبة الشديدة في الانتقام .

« وأنت تعلم يا دكتور أن من حق أولئك الأشراف أن يشدونا نحن عامة الكلاب إلى عرباتهم ويسوقونا

كما تساق السائمة ، وقد شدّاه فعلاً وساقاه ، وتعلم أن أن من حقهم أن يبقونا فى أرضهم طوال الليل نُسكت نقيق الضفادع حتى لا تؤرقهم وتنغص عليهم نومهم الهنيء . وقد أخرجاه فعلا فى برد الليل وضبابه المضر بصحته ، وعادا فشدّاه إلى العربة أثناء النهار ، ولكن الزوج ظل معانداً ، ولم يرض قط بما طلباه . وأخرجاه يوماً فى منتصف النهار ليتناول الطعام — إذا استطاع أن يجد طعاما — فأخذ يبكى وينتحب ، يبكى اثنتى عشرة مرة ، واحدة كلما دق الجرس ، ثم مات على صدرها ! »

وكان الغلام يحدثنى هذا الحديث ، وهو يغالب الموت ، ولم يكن شيء يحفظ عليه حياته إلا تصميمه على أن يفضى إلىّ بكل ما قاساه من ظلم ، فكان يردّ عنه أشباح الموت المتجمعة أمامه ، بالقوة التى يحتفظ بها بيده اليمنى مقبوضة ، يغطى بها جرحه .

« ثم انتزع أختى قسراً بموافقة ذلك الرجل ، بل بمساعدته أيضاً ؛ على الرغم مما قالته لأخيه — ولن أخفى عنك طويلا ما قالته يا دكتور — أخذها ليستمتع بها لحظة من اللحظات ، وشاهدتها بعينى تمرُّ بى فى الطريق . ولما حملت النبأ إلى بيتى تحطم قلب والدى ، ولم ينطق بكلمة واحدة مما كان يفيض به صدره ، وأخذتُ أختى الصغرى ، (لأن لى أختاً أخرى) وأبعدتها عن متناول الرجل الأثيم ، فى مكان لن نكون فيه من خدمه ومواليه ، ثم اقتفيت أثر الأخ إلى هذا المكان ، وفى الليلة الماضية تسلقت جدران هذه الدار وسيفى مسلول فى يدى : أين الكوّة العليا ؟ لقد كانت هنا فى مكان ما ؟ » .

وكان الصبى يتحدث وقد أخذ ضياء القمر يتضاءل فى ناظريه ، والعالم تضيق رقعته من حوله ، وتلفتُّ حولى فرأيت الدريس والقش متناثرين على الأرض كأن شجاراً قد حدث فوقهما .

« وسمعتنى أختى وجرت إلىّ ، فأمرتها ألا تقترب منا حتى يلقى منيته . وأقبل هو وألقى إلىّ أولاً ببعض النقود ثم ضربنى بسوط ؛ ولكنى ، وإن كنت من عامة الكلاب ، هجمت عليه لأرغمه على أن يستلّ سيفه — دعه يحطم ذلك السيف ، إرْباً إرباً — السيف الذى تخضّب بدمى . واستلّ سيفه ليدافع عن نفسه ، وهجم علىّ بكل ما أوتى من مهارة تبتغى الموت .

وكانت عيناى قد وقعتا قبل لحظات قليلة على شظايا سيف محطم ، متناثرة بين الدريس ؛ وكانت شظايا سيف من سيوف الأشراف ، كما وقعت فى مكان آخر على سيف قديم خيل إلى أنه سيف جندى عادى .

« والآن ارفعنى بين يديك يا دكتور ، ارفعنى بين يديك . أين هو ؟ » .

فقلت له وأنا أسند جسمه ظنًّا منى أنه يشير إلى غريمه .

— « إنه ليس هنا » .

— « هو ! مهما يكن من كبرياء هؤلاء الأشراف ، فإن ذلك الرجل يخشى أن يرانى . أين الرجل الذى كان هنا ؟ أدِرْ وجهى نحوه » .

وصدعت بالأمر ، فرفعت رأس الصبى على ركبتى ، ولكنه هبطت عليه فى تلك اللحظة قوة غير عادية فهمّ واقفاً واضطررت أنا أيضاً للوقوف وإلا فما استطعت أن أسنده .

وقال الصبى وهو يلتفت نحوه وعيناه مفتوحتان كأوسع ما يستطيع ، ويده مرفوعة إلى أعلى : « يا مركيز ! إذا جاء ذلك اليوم الذى سوف تسأل فيه عن هذه الأعمال كلها ، فسأدعوك أنت وأهلك ، إلى آخر نفر من قومك الأشرار ؛ لتحاسبوا على ما جنت أيديكم . إنى أرسم هذا الصليب بالدم فى اتجاهك لأشهد الله على ما أنا فاعل . وفى تلك الأيام التى ستحاسبون فيها على هذه الأعمال كلها سأدعو إلى ذلك الحساب أخاك ، وهو شرُّكم جميعاً أيها الأشرار ؛ لكى يحاسب عليها منفرداً ، وأرسم هذا الصليب بالدم عليه شاهداً على ما أنا فاعل » .

وغمس الصبيُّ يده مرتين فى جرح صدره ، ورسم بسبَّابته علامة الصليب فى الهواء ، ووقف هنيهة وسبابته مرفوعة ، فلما سقطت سقط معها ، وأسجيته على الأرض ميتاً ! . . . .

ولما عدت إلى فراش الفتاة وجدتها تهذى كما كانت تهذى من قبل ، وعرفت أن هذه الحال قد تدوم عدة ساعات ، وأنها ستنتهى فى أغلب الظن بصمت القبر .

وكررت الدواء الذى أعطيتها إياه من قبل ، وجلست على حرف السرير حتى مضى الشطر الأكبر من الليل ، ولم تخفّ قط حدَّة صراخها ولم يضعف نفاذه ، ولم تخطئ قط فى ترتيب ألفاظها أو يقل وضوحها ؛ فقد كانت على الدوام : « أخى ، وأبى ، وزوجى !— واحد ، اثنين ، ثلاثة ، أربعة ، خمسة ، ستة ، سبعة ، ثمانية ، تسعة ، عشرة ، أحد عشر ، اثنى عشر ، صه ! »

ودامت هذه الحال ستًّا وعشرين ساعة بعد اللحظة التى وقعت فيها عينى عليها . وكنت قد جئت إلى المكان وغادرته مرتين ، وعدت إلى الجلوس بجانبها حين بدأت تحتضر ، وفعلت الشىء القليل الذى كان فى مقدورى أن أفعله لمساعدتها فى تلك الظروف ، ولم تلبث أن سكنت حركتها سكون الموتى .

وبدا لى كأن الرياح والأمطار قد سكنت آخر الأمر عقب عاصفة مروعة طويلة ، وفككت ذراعيها ، ودعوت المرأة التى كانت بالدار كى تساعدنى على أن أمدَّها على فراشها وأسدل عليها أثوابها التى مزقتها ، وعرفتُ فى هذه اللحظة أنها فى بداية حملها ، كما فقدتُ أيضاً ما كان يجيش فى صدرى من أمل ضعيف فى إنقاذها .

وسألنى المركيز الذى لا أزال أسمِّيه الأخ الأكبر — وقد دخل علينا الحجوة فى تلك اللحظة بحذاءيه الطويلين بعد أن ترجَّل عن جواده : « هل ماتت ؟ » — فأجبته : « لم تمت بعد ولكنها فى ظنى موشكة أن تموت» .

وقال وهو ينظر إلىَّ بشىء من الدهشة : « ما أكبر ما تحتويه أجسام أولئك العامة من قوة ! » .

فأجبته قائلاً : « ما أعظم ما يبعثه الحزن واليأس من قوة ! » .

وضحك أول الأمر من ألفاظى ثم قطب جبينه ؛ وجاء بكرسى ، فقرَّبه منى حتى لمستْ ساقه ساقى ، وأمر المرأة بالخروج ، وقال بصوت خافت : « دكتور ، لما وجدت أخى فى مأزق مع أولئك الفلاحين ، أوصيته بأن يستدعيك لمعونته . وأنت رجل حسن السمعة ، ولا تزال شابًّا تتطلع إلى مستقبل باهر ، وأكبر الظن أنك غير غافل عن مصالحك . إن ما رأيته هنا شىء يرى ، ولا يتحدث عنه أبداً » .

وكنت فى هذه الأثناء أستمع إلى تنفس المريضة ، وتحاشيت أن أجيب بشىء ما ، فواصل حديثه قائلا :

« هل تتفضل فتعيرنى سمعك يا دكتور ؟ . . . »

فقلت له : « سيدى ، إن مهنتنا لتقضى علينا بأن نحتفظ على الدوام بسرِّية ما يفضى به المرضى إلينا » .

واصطنعت الحذر فى ردى؛لأن ما رأيته وسمعته قد أقلق بالى . وكان من الصعب علىَّ أن أتتبع تنفسها ، ومن أجل هذا حاولت جسَّ نبضها ومعرفة حال قلبها . وكل ما استطعت أن أتبينه أن الحياة ما تزال تدبُّ فى جسمها ، ولكنى لا أستطيع أن أقول أكثر من هذا . وتلفتُّ حين عدتُ إلى موضعى فرأيت الأخوين كليهما يحدقان فىَّ . .

إنى أجد الآن صعوبة كبيرة فى الكتابة ، فالبرد قارس ، وأنا أخشى أن تقع علىَّ عين فألقى فى غيابة جب تحت الأرض فى الظلام الحالك ؛ ولهذا سأختصر قصتى . بيد أننى لا أحسُّ فى ذاكرتى بأى اضطراب أو عجز ، بل إن فى مقدورى أن أتذكر ، وأن أدوِّن بالتفصيل كل كلمة من الحديث الذى دار بينى وبين هذين الأخوين .

وامتدت حياة الفتاة أسبوعاً ، وكان فى مقدورى فى

اوأخر ساعاتها أن أفهم بعض مقاطع الكلام الذى نطقت به لى ، وذلك بأن أقرّب أذنى من شفتيها ؛ فقد سألتنى : أين هى ؟ ورددت على سؤالها ، وسألتنى : من أنا ؟ فأجبتها ؛ ولكننى عبثاً حاولت أن أعرف منها اسم أسرتها ؛ ذلك أنها كانت تهزُّ رأسها هزًّا ضعيفاً وهى مستلقية على وسادتها ، واحتفظت بهذا السر كما احتفظ به أخوها .

ولم أجد فرصة أوجه إليها فيها أى سؤال آخر ، حتى أبلغت الأخوين أنها مسرعة إلى منيتها وأنها لن تعيش أكثر من يوم واحد . ومع أن أحدًا لم يكن يقترب منها حتى ذلك الوقت إلا أنا والمرأة التى فى الدار ، فإن أحد الأخوين كان يحرص دائماً على أن يجلس خلف الستار على طرف السرير حين أكون إلى جانبها . فلما وصل الأمر إلى ما وصل إليه بدا لى أنهما لا يأبهان بما عسى أن يدور بينى وبينها من حديث ؛ كأنى أنا أيضاً أوشك أن أموت ، وقد خطر ذلك ببالى فعلا .

وكنت ألاحظ على الدوام أن كبرياءهما قد جرح لأن الأخ الأصغر (كما أسميه أنا) قد بارز فلاحاً ، وأن هذا الفلاح كان غلاماً . وكان يبدو لهما أن الشىء الوحيد الذى تأثر به كلاهما فى هذا الحادث كله هو أن هذه المبارزة مزرية بمنزلة أسرتهما ، وأنها عمل سخيف فى حد ذاته . وكنت كلما لمحتُ عينى الأخ الأصغر ، أدركت من منظرها أنه يبغضنى أشد البغض ؛ لأنى عرفت من الصبى ما عرفت ؛ ومع هذا فقد كان أكثر أدباً وملاطفة لى من أخيه الأكبر ، لقد تبينت هذا ، كما تبينت أنى ثقيل بغيض من أكبرهما .

وقامت المريضة قبيل منتصف الليل بساعتين ، فى مثل الدقيقة التى شاهدتها فيها أول مرة بحسب ما دلت عليه ساعتى . وكنت وحدى إلى جانبها حينما مال رأسها بلطف إلى أحد الجانبين واختتمت بذلك أحزانها ومظالمها .

وكان الأخوان ينتظران وقتئذ فى حجرة بالطبقة السفلى ، يتعجلان الرحيل عن ذلك المكان . ولقد سمعتهما ، وأنا وحدى إلى جانب سرير المريضة يضربان حذاءيهما بسوطيهما ويتمشيان على مهل فى الحجرة .

وقال الأخ الأكبر حين دخلت عليه : « لقد ماتت أخيراً ؟ » .

فأجبته : « نعم ، ماتت » .

فقال لأخيه وهو يلتفت إليه : « أهنيك بهذا يا أخى ! » .

وكان قبلئذ قد عرض علىّ مالاً أرجأت تناوله ، والآن قدم إلىّ كيساً مليئاً بالنقود الذهبية ، تناولته منه ، ولكننى وضعته على النضد ، وكنت قد فكرت فى هذا الأمر ، وقررت ألا أقبل شيئاً .

وقلت له : « أرجو أن تقبل عذرى ؛ فلست أستطيع قبول شىء من المال فى هذا الظرف » .

وتبادلا النظرات ، ولكنهما حنيا رأسيهما لى كما حنيت رأسى لهما ، وافترقنا دون أن ينطق أحدنا بكلمة أخرى . .

إنى الآن متعب أشد التعب ، متعب ، متعب ، منهوك الجسم من فرط البؤس ، ولا أستطيع قراءة ما كتبته بهذه اليد النحيلة .

وفى الصباح الباكر وجدت كيس الذهب عند باب مسكنى فى صندوق صغير كتب اسمى على غطائه ، وقد فكرت من أول الأمر وأنا قلق مضطرب فيما يجب علىّ أن أفعله ، واستقر رأيى فى ذلك اليوم على أن أبعث برسالة خاصة إلى الوزير أصف فيها حال المريضين اللذين استدعيت لزيارتهما ، والمكان الذى ذهبت إليه ، وظروف الحالين مفصلة . وكنت أعرف ما لرجال الحاشية من نفوذ ، وما يتمتع به الأشراف من حصانة ، وتوقعت ألا يعرف أحد شيئاً عن الحادث ؛ ولكننى كنت أحبُّ أن أريح ضميرى فحسب . واحتفظت بالأمر سرًّا مكتوماً لم أبح به لأحد حتى زوجتى نفسها ، وقررت كذلك أن أذكر هذا فى رسالتى للوزير ، ولم أكن

أخشى أي خطر حقيقي يحيق بي ، ولكنني كنت أدرك أني قد أعرِّض غيري من الناس للخطر إذا ماظُنَّ أنهم يعرفون ما أعرف .

وكانت مشاغلي كثيرة في ذلك اليوم ، فلم أستطع إتمام رسالتي في تلك الليلة ، ومن أجل هذا استيقظت قبل موعدي المعتاد في صباح اليوم التالي كي أتمها ، وكان ذلك آخر يوم في العام ، وكانت الرسالة أمامي بعد أن فرغت توًّا من كتابتها ، حينما أبلغت أن سيدة في انتظاري ، وأنها تريد أن تتحدث إليّ . . .

إنني أحسُّ الآن بعجزي عن مواصلة العمل الذي أخذت نفسي به ؛ فالبرد قارس ، والظلام حالك ، وحواسي مخدرة ، وقد استولت عليّ كآبة رهيبة .

وكانت السيدة في مقتبل العمر ، رائعة الجمال ، ولكنها لم تكن ممن يظن أنهن سيطول عمرهن . وكانت شديدة الاضطراب ، وقدمت نفسها إليّ قائلة : إنها زوجة المركيز إفريمند . وذكّرني ذلك باللقب الذي كان الغلام يخاطب به الأخ الأكبر وبالحرف الذي كان مطرزاً على الطيلسان ، ولم أجد قط صعوبة في أن أستنتج أن هذا الاسم هو للسيد الذي رأيته من وقت قريب .

ولا تزال ذاكرتي قوية دقيقة ، ولكنني لا أستطيع كتابة ما دار بيني وبين السيدة من حديث ؛ فأنا أظن أني أراقَب مراقبة أشد من ذي قبل ، وإن كنت لا أعرف أية الساعات أراقب فيها . وكل ما أستطيع أن أقوله ، هو أن السيدة قد استنتجت بعض أجزاء الحقائق الهامة في هذه القصة وكشفت عن بعضها الآخر ، وعرفت ما كان لزوجها من يد فيها ، وأنه قد التجأ إليّ ، غير أنها لم تكن تعرف أن الفتاة قد قضت نحبها ، وقالت لي وهي في شدة الحزن : إنها ترجو أن تظهر لها سرًّا ما في طبيعة النساء من عطف وحنان ، وأنها تأمل أن تُنجي من غضب الله البيتَ الذي تبغضه الكثرة المعذبة من زمن بعيد . وكان لديها من الأسباب ما يحملها على الظن بأن أختاً صغيرة لهذه الفتاة لا تزال حية ، وكانت شديدة الرغبة في أن تمد يد المعونة لهذه الأخت . وكل ما كان في وسعي أن أخبرها به هو : أن لهذه الفتاة أختاً ؛ أما ما عدا هذا فلم أكن أعرف عنه شيئاً ؛ وقالت : إن الذي أغراها بالمجيء إليّ ، معتمدة على ثقتي ، هو رجاؤها في أن أخبرها باسم هذه الأخت وبالمكان الذي تقيم فيه ، مع أنني لا أزال حتى هذه الساعة المنحوسة أجهل كليهما . . .

إنني أحسُّ بالعجز عن كتابة هذه القصاصات من الورق ، ولقد أخذت مني واحدة منها بالأمس ، وحُذِّرت العودة إلى الكتابة ؛ ولهذا لا بد لي من الفراغ منها اليوم . لقد كانت هذه السيدة صالحة رحيمة ، ولم تكن موفقة سعيدة في زواجها ؛ وأنَّى لها هذه السعادة ؟ فقد كان أخو زوجها يبغضها ولا يثق بها ، وكان نفوذه كله في غير صفها . وكانت هي ترهبه أشد الرهبة ، كما ترهب زوجها نفسه . ولما أوصلتها إلى الباب رأيت في عربتها طفلا جميلا ، بين الثانية والثالثة من العمر .

وقالت وهي تشير إليه والدمع يترقرق من عينيها : « من أجل هذا يا دكتور لا أتردد في فعل كل ما أستطيع لأصلح ما يسعني أن أصلحه من فساد ، وإن لم يسعني منه إلا القليل ، وبغير هذا لا يستطيع أن يكون سعيداً فيما سوف يرثه من أسرته . وإنني لأحسُّ بأنه إذا لم يكفِّر عن هذا الذنب التكفير الواجب البريء ، فإنه سوف يقع كله عليه في يوم من الأيام . وسيكون أول ما أوصيه بأن يفعله في حياته إذا ما استطاع أن يعثر على هذه الأخت ، هو أن يهب لها ولأسرتها المظلومة ما بقي لديَّ مما أستطيع أن أصفه بأنه ملك لي ، وهو لا يزيد على ثمن عدد قليل من الحلي ، يضاف إليه حنان أمه الميتة وحزنها » . ثم قبَّلت الطفل وقالت وهي تدلله : « إني أفعل هذا من أجلك يا بني العزيز ، ستكون معيناً أميناً

يا شارل الصغير ؟ » . وردّ عليها الطفل فى شجاعة : « نعم سأكون » ! وقبلتْ يدها ، واحتضنتْه بين ذراعيها ، وغادرت المكان وهى تدلله وتلاطفه ، ولم أرها بعد ذلك أبداً . وإذ كانت قد ذكرت اسم زوجها وهى تعتقد أنى أعرفه ، فإنى لم أذكر هذا الاسم فى رسالتى ، وغلفت الرسالة ، ولم أجد من أثق به فى إيصالها إلى صاحبها ، فأوصلتها بنفسى فى ذلك اليوم .

وفى تلك الليلة نفسها ، وهى آخر ليلة فى العام ، وقرب الساعة التاسعة ، دق الباب الخارجى رجل فى ثياب سود ، وطلب أن يرانى ، وصعد الدرج وراء خادمى الشاب إيرنست دفراج . ولما دخل هذا الخادم الحجرة التى كنت أجلس فيها مع زوجتى — زوجتى أحب الناس إلى قلبى ، زوجتى الشابة الإنجليزية الجميلة — شاهدنا معه الرجل الذى كنا نظنه عند الباب واقفاً من ورائه لا ينبس ببنت شفة .

وقال : « إن ثمة حالا عاجلة فى شارع سانت أونوريه » ، وأضاف أنها لن تكلفنى كثيراً من الوقت لأن لديه عربة فى انتظارى .

وجاءت بى العربة إلى هذا المكان الذى أنا فيه الآن ، جاءت بى إلى قبرى ؛ ذلك أنى لم أكد أبتعد عن بيتى حتى شُدَّ قناع أسود من خلفى على فمى كمّم به صوتى ، وأوثق ذراعاى ، وعبر الأخوان الطريق من ركن مظلم ، وأكدا بإشارة واحدة أننى الرجل المطلوب ، وأخرج المركيز من جيبه الرسالة التى كتبتها ، وأطلعنى عليها ، وحرقها فى لهب مصباح أمسكه له شخص آخر ، وأطفأ الرماد بقدمه ، ولم ينبس فى أثناء ذلك ببنت شفة ، وجىء بى إلى هذا المكان ، جىء بى إلى قبرى الذى أدفن فيه حياً ! .

ولو أن الله جلت مشيئته قد بعث الرحمة فى قلب أحد الأخوين ، فى خلال تلك السنين الرهيبة ، فَمَنَّ علىّ بخبر أيّاً كان عن زوجتى العزيزة — وإن لم يزد هذا الخبر على أن أعرف منه أحية هى أم ميتة — لظننت إذن أنه لم يدعهما لأمرهما ، ولكننى أومن الآن أن إشارة الصليب الأحمر ستفعل فعلها فيهما ، وأنهما ليس لهما نصيب من رحمته سبحانه وتعالى .

ومن أجل هذا فإنى أنا ألكسندر مانت السجين المعذب أبعث بشكواى منهما ومن أبنائهما وذريّتهما إلى آخر فرد من نسلهما فى تلك الليلة الأخيرة من عام ١٧٦٧ التى أقاسى فيها من الآلام ما لا يحتمله بشر ، أبعث بشكواى ليحاسبوا عليها جميعاً فى ذلك اليوم المشهود الذى يُسأل فيه كل إنسان عما جنت يداه ، أبعث بشكواى إلى خالق الأرض والسماء .



نقد الكتب

السرقات الأدبية

دراسة فى ابتكار الأعمال الأدبية وتقليدها

تأليف الدكتور بدوى طبانة — ٢٠٤ صفحات من القطع الوسط
مطبعة الرسالة ونشر مكتبة نهضة مصر بالفجالة

تحتل مشكلة السرقات فى النقد العربى جانباً أساسياً فيه ؛ إذ ترتبط بموضوعات نقدية مختلفة ، وتتمثل فيها صورة العقلية العربية فى قوة حافظتها ، وفى ذودها عن تراث الأقدمين الفكرى وحفاظها عليه ، وفى نزوعها إلى التجديد ومحاولة خلق شخصية فنية متفردة مبدعة ؛ ولهذا اهتم الباحثون فى القديم والحديث بدراستها ، وأفردوا لها كتباً كثيرة .

ومن بين الدراسات الحديثة للمشكلة كتاب (السرقات الأدبية — دراسة فى ابتكار الأعمال الأدبية وتقليدها) للدكتور بدوى طبانة أستاذ النقد الأدبى المساعد بكلية دار العلوم ، وقد صدر هذا الكتاب منذ وقت قصير فى سلسلة مؤلفات الجمعية الثقافية المصرية .

ولما كنت مهتماً بدراسات النقد العربى ، وبمشكلة السرقات على وجه الخصوص ، رأيت من واجبى قراءة هذا الكتاب وخاصة أنه لأستاذ جامعى متخصص . وما إن فرغت منه حتى رأيت أن من واجبى مرة أخرى الكتابة عنه لأجلو صورة من صور الدراسات النقدية الحديثة ، وأبين مدى توفيقها فى اتباع المنهج العلمى الحديث .

ولما كنت لا أبغى من وراء هذا النقد إلا وجه العلم ، اعتزمت أن أكون موضوعياً فى دراستى للكتاب إلى أقصى حد :

١ — بدأ المؤلف كتابه بمقدمة قال فيها : «إن الحكم بالسرقة أو الإنكار يحتاج إلى « سعة معرفة بالأدب وفنونه ، واطلاع واسع على التراث الأدبى فى سائر عصوره ومواطنه ، وحفظ طائفة كبيرة للمشهورين والمغمورين من الأدباء حتى يسهل ربط المتقدم بالمتأخر» .

وهذا فى الواقع كلام القاضى الجرجانى ، فات المؤلف أن ينسبه إليه ، وهو فى الواقع كلام منطقى فى حد ذاته ، ولكنه لا يخدم مشكلة السرقات كقضية فنية .

ويندفع المؤلف فى حبه للقدماء فيقول : إن فى منهجهم « يختفى إلى حد كبير الأثر الذاتى فى الأحكام الأدبية » ولا أعتقد أن المؤلف — وهو يقوم على تدريس النقد العربى فى كلية جامعية — يؤمن بما قاله حقاً ؛ ذلك لأن الأثر الذاتى القائم على الذوق هو الطابع المميز لأحكام غالبية نقاد العرب . ويمضى المؤلف فى مقدمته ، فيحمل على البلاغيين من طبقة صاحب المفتاح — يقصد السكاكى — لأنهم لا يعرفون من السرق إلا اسمه كما يرى القاضى الجرجانى . والقاضى الجرجانى لم ير رأيه هذا فى البلاغيين ؛ لأنه كان أسبق منهم بكثير ، ولكنه كان يراه فى النقاد والرواة الذين كانوا قبله ، أولئك الذين وصفهم المؤلف بأن الأثر الذاتى يختفى فى أحكامهم .

ثم يوضح المؤلف منهجه فى البحث فإذا به يجعل الأساس التاريخى محوراً لدراسة مشكلة السرقات ، ويعتبر الكلام الذى قيل فيها « مبعثه الاجتهاد لأن الأدب أصابه الضياع ، كما لا يوجد الشخص الذى يوصف بأن له إحاطة مستوعبة » . وهذا أيضاً كلام القاضى الجرجانى نسى المؤلف أن ينسبه إليه ، وهو متصل بما سبق للمؤلف نقله عن القاضى الجرجانى فيما أشرنا إليه ، ولكن من العجيب أن الكاتب يحاول أن يضفى على نفسه هذه الصفة التى جرد منها النقاد الأقدمين جميعاً ، وذلك فى قوله : « وقد كان فى طول العكوف على دراسة النقد الأدبى وتتبع اتجاهاته ومناهجه المختلفة من عقل إلى عقل ، ومن عصر إلى عصر ، ما أعان على هذه الدراسة التى بحثت فيها عن مواطن الابتكار ومجالات التقليد ، متجهاً إلى التعليل

النفسي والتأثير الاجتماعي فى درس ظاهرة السرقات ليكون من ذلك سند لدراستها دراسة أدبية ونقدية، ومحاولاً أن أطوف بفنون الأدب العربي البارزة فيما يتصل بموضوع السرقات».

وإذا بحثنا عن التعليل النفسي والتأثير الاجتماعي اللذين وعد الكاتب باستخدامهما فى دراسة المشكلة، فلن نجد منهما شيئاً على الإطلاق :

٢ – فى الفصل الأول وعنوانه (بين الأصالة والتقليد) يعنّى الكاتب نفسه بتناول أشياء خارجة عن موضوعه ودراسته، وهى عبارة عن مجموعة من المتناقضات يلتقطها من هنا ومن هناك، ولا بأس عنده من توشيحها ببعض آيات القرآن الكريم مثل: (إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون)، وببعض الأسماء الأجنبية؛ ليدلل على قراءته للكتب الأجنبية (المترجم منها طبعاً) مثل علم التاريخ «لهرنشو»، «علم اللسان» لماييه. وترتيب تناوله لهذه المتناقضات يجرى كما يلى: المثل العليا – الفن – الخلق – الدين – العقل – القلب – الحب – الأفلاطونية – الحيوانية – المذاهب – التطور – التاريخ المقارن – فيكو – منتسكيو – أنواع الوراثة – الإنسان الأول – علم اللسان – الخطابة عند العرب – وصف الأطلال. وبين جميع هذه المتناقضات التى يضل فيها القارئ تظهر الرابطة التى حاول المؤلف اصطناعها، وهى عبارة عن فكرة بسيطة بديهية، فكرة أن المحدثين ينتفعون بثمرات تفكير الأقدمين.

والموضوع الأساسى الذى كان من الواجب أن يتناوله الكاتب فى هذا الفصل، هو معنى الأصالة والتقليد عند العرب وتطور مفهومهما، ومعناهما عند الغربيين منذ أيام اليونان والرومان؛ وهل الأصالة معناها خلق شيء من الهواء أو هى تكمن فى تعبير الفنان فحسب؟ وهل التقليد معناه نقل الأفكار والأساليب، أو أنه تمثل قوى لتراث الإنسانية فى عصورها المختلفة؟ وما بواعث أصالة شاعر وتقليد آخر؟ هذه هى الموضوعات التى كان من الواجب على المؤلف أن يتناولها فى هذا الفصل بدلا من المتناقضات التى لا معنى لها، والتى ليس بينها أى ترابط.

٣ – فإذا جئنا للفصل الثانى «السرقات الأدبية» – وهو فى الواقع محور الكتاب – وجدناه عبارة عن حشد لروايات عن السرقات، ينقلها الكاتب نقلا دون إيجاد أية رابطة تجمع بينها، ودون دراستها أو التعليق عليها؛ فلا هو ذكر هذه الروايات مسلسلة من الناحية التاريخية، ولا هو نظمها فى مجموعات تدل كل منها على نوع معين من السرقات التى كانت شائعة فى النقد العربى. ثم هو يخلط الروايات التاريخية بأقوال النقاد فى السرقات، فيذكر طرفاً من أقوال أبى هلال العسكرى فى كتاب الصناعتين، والآمدى فى الموازنة. والمؤلف لا يستشهد بهذه الأقوال فى دراسة رأى أبى هلال أو الآمدى فى مشكلة السرقات، ولكنه يذكرها ليؤكد فكرة أن المحدث يأخذ من القديم ويتبعه، وأن المعانى متداولة بين الشعراء، وأن الانكباب على قراءة الشعر يؤدى إلى الإجادة «ولا يقول الأصالة». ويذكر رأى الآمدى فى أبى تمام بهذا الشأن، ويضيف من عنده أمثال البارودى فى العصر الحديث. ثم ينقل المؤلف عن ابن رشيق معانى المصطلحات التى وضعت للسرقة، ينقلها كما هى بأمثلتها دون أى تعليق منه، ثم ينتقل إلى أن فكرة السرقة ليست فى ميدان الشعر فحسب، ولكنها قد تكون فى ميدان النثر أيضاً، وإن كان الشعر قد غلب على مشكلة السرقات؛ وكأن هذه الفكرة البسيطة تحتاج إلى تأكيد، فيستعين المؤلف برأى عارض فى الشعر للناقد آبركرومبى كتبه المؤلف «كرمبى»، ولعله ظن أن فى ذلك اختصاراً لاسمه.

ويحاول المؤلف أن يدرس السرقات فى ميدان النثر دراسة تطبيقية، وذلك فى نهاية هذا الفصل، فيقرر «أن مقامات الحريرى صورة حائلة لمقامات البديع لا تزيد عليها فى شيء» وأن السرقة ظاهرة فيها حتى فى عناوين المقامات. ولا شك أن الخطأ فى مفهوم السرقات الذى وقع فيه المؤلف هو الذى أدى به إلى هذه النتيجة

الخاطئة ، وجعله يجهر بهذه الدعوى ،وهى أن الحريرى قد فقد فى تلك المقامات الشخصية الأدبية فقداناً تاماً ، ولعل اعتراف الحريرى فى مقدمته بفضل بديع الزمان عليه ، واحتذائه له ، هو الذى جعل المؤلف يصدر ذلك الحكم العجيب .

٤ — ويكتب المؤلف فى الفصل الثالث عن (معانى الأدب) فيستغرق كلامه عشرين صفحة خصص ثلاثة أرباعها لمقدمة بحث فيها هذا السؤال : هل الشعر عاطفة أو فكر ؟ ولم يكن فى إجابته عن هذا السؤال أى جديد ، على الرغم من أنه لم يكن بحاجة إلى تناول هذا السؤال أصلاً ؛ لأن غايته من هذا الفصل كانت — فحسب — مجرد عرض لوجهة نظر الأقدمين بشأن تقسيم المعانى إلى مشتركة عامة الشركة ، وأخرى مختصة ، وثالثة مبتذلة ليس أحد أولى بها من أحد . وحتى عرْض المؤلف لوجهة نظر الأقدمين لم يكن مستوفياً لتقسيماتهم فى المعانى ؛ إذ فاته أن يذكر المعنى المبتدع الذى تداول حتى استفاض فحمى نفسه من السرق كما يقول القاضى الجرجانى .

٥ — وخصص المؤلف الفصل الرابع لدراسة « الإبداع والاتباع » ، ولا أدرى ما الفرق بين هذا الفصل والفصل الأول (بين الأصالة والتقليد) ؟ ولا ما الداعى لتجزئة الكلام عن موضوع واحد فى فصلين ؟ فالمؤلف فى هذا الفصل يقرر وجود معان مبتكرة ، وإن كان مفهوم المعانى المبتكرة فى الدراسة الحديثة يغاير فكرة المؤلف ، وهى فكرة القدماء التى تعتمد على المعانى الجزئية المولدة ، لا المعانى الكلية .

ويرى المؤلف أن من بواعث المعانى المبتكرة : الموهبة ، التجربة الجديدة ، تحدى الأديب ورميه بالقصور ، اختيار الوقت الملائم . وكل عامل من هذه العوامل أشد من أخيه غرابة ؛ فالموهبة أساس فى كل فن ، ولا يمكن أن نصف الشاعر المتبع — بالمعنى الفنى للاتباع — بضعف موهبته أو عدم وجودها أصلا ؛ ولدينا كثرة من الشعراء يصرحون باتباعهم وأخذهم ، وهم من أصحاب المواهب العبقرية من أمثال دريدن وكولتر وتوماس جراى وغيرهم . وما لنا نذهب بعيداً ولدينا من شعراء العرب كثرة من المتبعين — بالمعنى الفنى الذى لم يعرض لذهن الكاتب — وأولهم المتنبى والبحترى وأبو تمام وعشرات غيرهم . أما عن التجربة الجديدة فلا أدرى : هل كانت البشرية منذ آلاف السنين قد أبقت تجارب جديدة لنمارسها فى عصورنا الحديثة أو لا ؟ إن الناقد « سانتسبرى» يجيب عن ذلك حين يتعرض لنظرية « لابروير » (كل شىء قيل Tous est dit) فيقول : « لا شك أن كل شىء قيل منذ زمن بعيد ؛ فالمعانى إنما تثيرها فكرة الحياة والموت ، ومنظر الفجر والغروب ، والبسمة والخجل ، والصهباء حين تتقد فى الكأس ، والليل المهول . . . إلى آخر هذه الأشياء التى لا تتغير فى أى عصر من العصور ، لكن الذى يظن أن تداول الشعراء لهذه المعانى لا يدع مجالا للتجديد فى الشعر ، إنما يعمى عن الحقائق ؛ لأن كل شاعر يمكنه أن يعرض هذه المعانى عرضاً جديداً فى صورة جديدة تلائم عصره الذى يعيش فيه » ؛ فالتجربة الجديدة إذن جديدة لا بالتعبير عنها ، ولكن بطريقة التعبير عنها ، وهذا ما لم يدركه الكاتب . والدليل على ذلك هذه الأمثلة التى أوردها ليبين لنا ماهية التجارب الجديدة ، فذكر من بينها قصيدة المتنبى فى وصف الحمى ، وفاته أن ابن المعذل قد وصفها قبله ، ولا بد أن ألوفاً غيرهما قد تناولوها فى شعرهم فى عمر الإنسانية الطويل ؛ فالتجربة ليست جديدة ، إذن ، ولكن الجديد فيها طريقة التعبير عنها .

أما العامل الثالث وهو تحدى الأديب ورميه بالقصور فأعجب تلك العوامل جميعاً . ولا يستطيع المرء أن يكتم دهشته حين يعرض لهذا العامل . ويبدو أن الكاتب تورط فى ذكره ؛ إذ استطرد منه إلى النقائض فى الشعر العربى وكيف أنها (خير مثل للابتكار الذى كان باعثه التحدى والإنكار) ، ويبدو أن هذا الحكم الذى يصدره المؤلف حكم السجع فى العبارة ، وليس حكم الدراسة والروية ؛

فما يستطيع إنسان أن يحكم على النقائض فى مجموعها – وهى تبلغ آلاف القصائد والأبيات – بالابتكار أو عدمه . ثم إن التحدى أصلا ليس من العوامل التى تساعد على الابتكار – ولو فى المعانى الجزئية – فى تلك النقائض ، بل لعل العكس من ذلك هو الصواب ؛ فقد حاول الرواة عقد صلة بين خاطر كلٍّ من جرير والفرزدق ، حتى لقد قيل إنهما كانا ينطقان فى بعض الأحوال عن ضمير واحد . ومن الطبيعى أننا نستبعد حدوث هذا الاتفاق بين الشاعرين على تلك الصورة ، ونؤمن فى ذلك بما قاله ابن الأثير : « هب أن الخواطر تتفق فى استخراج المعانى الظاهرة المتداولة ، فكيف تتفق الألسنة أيضاً فى صوغها الألفاظ ؟ » . والذى دعا الرواة إلى هذه الفكرة استبعادهم أن يسرق جرير والفرزدق ، كلٌّ من الآخر ، وهما فى عصر واحد يتراشقان بالشعر فى كل وقت ، ولكن النقائض التى كانت بينهما هى السبب فى وجود هذه الفكرة ؛ لأن كلا منهما قد فهم مذهب الآخر فى شعره فهماً عميقاً ؛ حتى إن الرواة قالوا : إن الفرزدق انتحل بيتاً من شعر جرير وقال : هذا يشبه شعرى ! هذا سبب ، والسبب الآخر أن كلاًّ منهما كان يقرأ قصيدة الآخر بيتاً بيتاً ومعنى معنى ليستطيع أن يكتب نقيضته عليها ؛ ومن هنا أيضاً جاءت فكرة الاتفاق فى هذه الأشعار المشتركة بينهما .

أما العامل الأخير الباعث على الابتكار فى رأى المؤلف ، فهو اختيار الوقت الملائم لقول الشعر ، ويستشهد بأقوال نقاد العرب الأقدمين على أهمية اختيار هذا الوقت ؛ وأنا فى الواقع لا أفهم أن الشاعر يستطيع أن يبتكر وهو جالس فى روض معشب ، ويعجز عن الابتكار وهو جالس فى صحراء جافية ؛ فالشعر تجربة تمر بمراحل كثيرة فى نفس الشاعر ، فإذا كانت التجربة ناضجة كان حظها من الابتكار – بمعناه الفنى – عظيما ، وإذا كانت غير ناضجة كان حظها من الابتكار ضعيفاً ، وتلك هى حقيقة الفن .

٦ – ويتناول الكاتب بعد ذلك عوامل الاتباع ، فإذا بها تنحصر عنده فى عاملين : الإعجاب بأديب أو بكتابته ، والآخر غرابة أفكار أديب ما . والإعجاب من عوامل الاتباع حقا ، ولكن لا أدرى : ما الصلة بينه وبين المعارضات فى الشعر العربى ، تلك التى أخذ المؤلف يورد لها أمثلة كدليل على ما يدعيه ؟ وقد كان المؤلف فى غنى عن هذا الخلط لو أنه رجع إلى تاريخ أدبنا القديم ، وأدرك كيف كان المتنبى يعجب بأبى تمام ؛ ولهذا كان يتبعه بالمعنى الفنى للاتباع ، أى يتمثل معانيه وأفكاره ، ولا يسرق أوزانه وقوافيه كما يفهم المؤلف من معنى الاتباع .

أما غرابة الفكرة التى يعرفها المؤلف بأنها التى لم تشهر بين الناس ، أو لم تعرف إلا فى بيئة محدودة ، فما أدرى ماذا يقصد بها المؤلف . وأغلب الظن أنه لا يدرى هو أيضاً ؛ لأنه حين تحدث عنها غاص معين أمثلته الذى كان ينزح منه ، ولم يجد إلا المستشرقين مجالاً لهذه الغرابة ، فأخذ يطعن عليهم ويلعنهم ، ويسب من يأخذ عنهم مقرراً : (أن الآراء الأجنبية لا ينبغى أن تؤخذ على علاتها وأن يقذف بها فى وجه أبناء العروبة بما فيها من الطرافة المزعومة) ، وبهذه الطريقة تحدث المؤلف عن غرابة الفكرة !

٧ – وتناول المؤلف بعد ذلك (الاختراع والتوليد) ، فسجل ما كتبه ابن رشيق فى كتاب العمدة على علاته وكأنه يؤمن بما آمن به ابن رشيق والنقاد الأقدمون : فابن رشيق يعرف المخترع من الشعر بأنه : (ما لم يسبق إليه قائله ، ولا عمل أحد من الشعراء قبله نظيره أو ما يقرب منه) : وهذا التعريف يبعدنا بعداً كاملا عن معنى الأصالة ؛ لأنه يجعل منها شيئاً لا وجود له على الإطلاق ؛ فالفنون سلسلة تتوارد عليها الأجيال ، كلّ جيل يصنع بشخصيته حلقة فيها ، وتعريف ابن رشيق يهدم هذا الاعتبار هدماً كاملا ، بل إنه ينكر وجود أدنى أثر لشخصية الفنان . وقد أدرك ابن رشيق جناية

هذا التعريف على الشعر والشعراء ، فخفف من حدته بذكر اصطلاح (التوليد) وتعريفه له بأنه : « ليس باختراع لما فيه من الاقتداء بغيره ، ولا يقال له أيضاً سرقة » فكأن التوليد هو الذى يتيح فيه النقاد للشعراء الاقتداء بغيرهم . ويبدو لى أن النقاد العرب كانوا يعنون بالمعنى المبتدع ، المعنى الذى لم يعثروا لشاعر قبل قائله على بيت يماثله ، مع أن الأمر فى الواقع لا يعدو أن يكون قصور وسائلهم عن إدراك المعنى السابق ؛ فهذه الأمثلة الكثيرة التى ذكروها لامرىء القيس — على اعتبار أن معانيها كلها مبتدعة ، وضربوا بها المثل على معنى الابتداع — ما يدريهم أن ابن خزام أو غيره ممن سبقوا امرأ القيس — ولم نعرف من شعرهم شيئاً — قد قال فى هذا المعنى أو ذاك ؟ بل إننا نقطع بذلك استناداً إلى ما تقرره الدراسة الحديثة ، تلك التى لم يتعمق المؤلف بحثها ، فانساق وراء النقاد الأقدمين يضع العناوين الحديثة لأفكارهم وآرائهم ، فيقع التناقض والتخليط بين العنوان وما تحت العنوان !

٨ — ثم نصل مع المؤلف إلى الفصل الأخير ، وعنوانه (السرقة فن) ، فنجده يتوهم أن الأقدمين قد عدوا (السرقات) ضرباً من الفنية الأدبية ، وهو يقصد ما يطلقون عليه اسم (الأخذ الحسن) . وهناك فرق واضح بين السرقات المحضة ، والأنواع الأخرى من (الأخذ) التى يذكر المؤلف منها التضمين والاقتباس فحسب ، وياليته ضرب أمثلة جيدة للتضمين ، ولكنه مثل له بقول القائل :

فبتُّ والأرض فراشى وقـــد
غنّت (قفانبك) مصارينى

وحتى التضمين والاقتباس لا يجمع النقاد العرب على اعتبارهما من باب السرقات . وقد كان أولى بالمؤلف أن يتعمق درس عبد القاهر الجرجانى ؛ ليعرف كيف فرق بين السرقات المحض ووجوه الأخذ الحسن التى تنطبق عليها الفنية الأدبية .

ثم يبدأ المؤلف فى نقل آراء القدماء فى وجوه الأخذ الحسن والقبيح ، فلا يستوفى شيئاً من هذا ولا من ذلك ، ثم يطلع علينا بعنوان (الأخذ الفنى) — ولا أدرى ما الفرق بينه وبين عنوان هذا الفصل «السرقة فن» — فينقل فيه عن القدماء (أسباب إخفاء الأخذ الكثيرة التى تبدو فيها الفنية وهى : نقل المعنى من غرض إلى غرض ، نظم النثر ، نثر المنظوم ، إيجاز العبارة ، اختيار الألفاظ الحسنة والوزن الرشيق) وقد فات المؤلف أن يذكر زيادة المعنى وتأكيده وقلبه ، وهى من وجوه الأخذ الحسن التى حصرها الجرجانى .

وينتقل المؤلف إلى عنوان آخر هو (أوهام فى السرقات) ذكر فيه ما فطن إليه الأقدمون من أن التشابه اللفظى بين الشاعرين ، أو استخدام أسماء المواضع ، أو التوارد فى استخدام بعض المصطلحات ، كل ذلك لا يعد سرقة بأية حال ، كما ذكر قولهم فى توهم الابتداع حيث لا ابتداع ، ونقل تهجم ابن الأثير على أبيات أبى نواس المشهورة التى منها :

تدار علينا الراح فى عسجدية
حبتها بأنواع التصاوير فارس

فقال : إن هذا المعنى لا كبير كلفة فيه ، وأنه من المعانى المشاهدة ؛ فلماذا ينسب النقاد إليه التفرد بالإبداع ؟ وهذا الإنكار يرجع بنا إلى المشكلة أصلا ، وهى أن المؤلف نظر إلى مشكلة السرقات بعين ابن الأثير والمتغالين من النقاد الأقدمين ، فجاء كتابه عبارة عن روايات تاريخية ، وأمثلة مضطربة ، ورابطة مصطنعة بين موضوعات متنافرة ، وتكرار لأقوال فى مواضع متفرقة مع عدم دراسة هذه المشكلة النقدية العميقة دراسة جدية ؛ وذلك باستكمال أدوات البحث وتهيئة وسائله ؛ فكان ينبغى للمؤلف أن يقرأ فى عمق وروية كتب النقد العربى القديمة التى تناولت المشكلة ، بدلا من أخذ جملة من هنا وعبارة من هناك . كان ينبغى له أن يقرأ من المصادر المطبوعة أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى ،

والإبانة عن سرقات المتنبى لفظاً ومعنى للعميدى ، والرسالة الحاتمية للحاتمى ، وقراضة الذهب لابن رشيق ، والموشح للمرزبانى ، والكشف عن مساوى شعر المتنبى لابن عباد ، والطراز للعلوى ، وعيار الشعر لابن طباطبا ، وسرقات أبى نواس لمهلهل بن يموت ؛ هذا فى القديم ؛ أما فى الحديث فكان ينبغى له أن يقرأ ما كتبه الدكتور مندور فى (النقد المنهجى عند العرب) ، وأحمد الشايب فى (أصول النقد الأدبى) ، وأن يتأنى فى قراءة (بلاغة أرسطو بين العرب واليونان) لإبراهيم سلامة .

وكان ينبغى للمؤلف ألا يتعرض لهذه الدراسة قبل أن يطلع على المصادر المخطوطة مثل (المآخذ الكندية من المعانى الطائية) لابن الدهان ، واستدراك ابن الأثير عليها ، « والبديع فى نقد الشعر » لأسامة بن منقذ ، و « المنصف فى الدلالات على سرقات المتنبى » لابن وكيع التنيسى .

ولعلى لا أثقل على المؤلف حين أقول : إنه كان ينبغى له أن يقرأ ما كتبه الأوروبيون خاصاً بهذه المشكلة فى أدبهم قديماً وحديثاً ، وما كتبه المستشرقون عن المشكلة فى أدبنا العربى وخاصة بحث جوستاف فون جرونباوم ، وكان أولى به أن يقرأ بعض كتب الدراسات النفسية العميقة بدلا من كتابىْ (فى التربية) للدكتور على وافى ، و (فى علم النفس) للأستاذين حامد عبد القادر والأبراشى وهما موضوعان لغرض تربوى معين ، لا تعنيه دراسة مشكلة الإلهام ، وطبيعة الخلق الفنى ، ومراحل الإبداع ، وحقيقة الخيال ، وتكوّن الصور الفنية والمعانى فى النفس .

هذا ما كان ينبغى للمؤلف أن يقرأه قبل الإقدام على هذا البحث ، ولو كان فعل لاستطاع أن يعرض لنا تطور مشكلة السرقات فى خلال عصور الأدب المختلفة ، ويحلل مناهج النقاد العرب فى بحثها ، ويقارن لنا بين دراساتهم ودراسة الأوروبيين للمشكلة ، ولاستطاع أيضاً أن يضع يده على أسس المشكلة فى النقد العربى القديم ، فيعرف أثر الرواية والرواة ، وعمود الشعر ونهج القصيدة ، وقضية اللفظ والمعنى ، والخصومة بين القدماء والمحدثين فى نشوء هذه المشكلة وتطورها ، ولاستطاع أيضاً أن يفسر لنا هذه المشكلة فى ضوء الدراسات الإنسانية الحديثة ، فيعرف أن الفنان يستمد صوره ومعانيه من مخيلته عن طريقين : التذكر التلقائى ، والتذكر المتعمد . وما فى مخيلة الشاعر ليس إلا الآثار الشعرية التى قرأها ، والتى لابد من وجودها ليستطيع الشاعر الإبداع . ويعرف أيضاً أهمية الإطار الشعرى الذى يحيا فيه الشاعر ، وأن هذا الإطار — وهو عبارة عن التراث الشعرى — لايعارض التجديد ، وأن تقارب الإطار الشعرى بين شاعرين ينتج فناً متشابهاً ، فمن الطبيعى جداً أن يتشابه إنتاج شعراء العرب ؛ لأن إطارهم الشعرى يكاد يكون واحداً بسبب قيود عمود الشعر ونهج القصيدة . ويعرف كذلك أن الإطار الشعرى كما يؤثر فى إنتاج الشعراء يؤثر فيه أيضاً الإطار الثقافى ، ومعناه أن الشاعر خاضع لظروف البيئة الاجتماعية والطبيعية ، وظروف اللغة والعصر .

لقد كان فى استطاعة المؤلف أن يصل إلى كل هذا لو أنه اتبع فى بحثه المنهج العلمى السوى ، واستكمل عدته من الدراسة والبحث قبل أن يشرع فى الكتابة ، ولن يعفى الكاتب من ذلك كله قوله : إنه « لم يقل كل شىء فى هذا الموضوع الخطير المترامى الأطراف » ؛ فمسئوليته كأستاذ مساعد للنقد الأدبى فى كلية دار العلوم ، كانت تحتم عليه أن يقول كل شىء ، فى هذا الموضوع ، أولا يقول شيئاً على الإطلاق ؛ فالدراسة التى تصدر عن أستاذ جامعى متخصص ينبغى أن تكون جديرة باسمه ومنصبه وتلامذته الذين يتخرجون على يديه ؛ وهذا هو السبب الذى دفعنى لنقد هذا الكتاب وتحليله ، وأرجو أن يكون فى ذلك النقد ما يعين المؤلف على معاودة البحث فى المشكلة ، والنظر فى دراسته من جديد .

محمد مصطفى هدارة

أنباءٌ وآراءٌ

تشارلس ديكنز

يموت من فرط القراءة ، ولا تميته كثرة الكتابة والتأليف

منذ مائة عام — أو على الأصح فى ٢٩ من أبريل عام ١٨٥٨ — ظهر تشارلس ديكنز ، فوق المنصّة فى قاعة سانت مارتن فى لندن ليسمع الناس أول قراءة له من مختارات قصصه ، وأكبر الظن أن نجاحه الباهر فى هذه الناحية الغريبة من العبقرية لم يدهش أحداً من الذين سمعوه من قبل وهو « يقرأ » من تلك القصص التى أخرجها للناس ، فى بعض حفلات الخير والإحسان ، أو من الذين شاهدوه يمثل على المسرح كبعض « الهواة » ؛ فقد لمس هؤلاء وأولئك يومئذ مخايل براعة بالغة فى هذا الباب .

ولكن لقد كان من الخير لديكنز نفسه ، وللأجيال الخالفة ، لو أن المستمعين إليه فى القراءة الأولى والقراءات التالية التى جعل يطوف بالمدائن فى سبيلها ، لم يستقبلوه ذلك الاستقبال الحماسى ، ولم يشجعوه بالإعجاب على المضىّ فى أمر استنكره صديقه ومؤرخ حياته جون فورستر ، ووصفه بأنه لم يكن غير « عرض عام » لمجرد الكسب ليس خليقاً بأديب كبير مثله ، وقصّاص عظيم .

وقد يكون من قبيل التهور فى الحكم أن يقال إن هذه القراءات هى وحدها التى أودت بحياة ديكنز ، ولكن ليس من الغلوّ فى شىء أن نقول : إنه لو كان قد عدل عنها حين تبين أنها سيئة الأثر فى صحته ، لكان من المحتمل أن يمتد به العمر بضع سنين أخر ، وأن يتمّ قصته التى تركها غير مستكملة . وهى قصة « أدوين درود » ، أو يخرج للدنيا شيئاً جديداً . وإن كان من العبث أن نتكهن بما كان ممكناً أن يصنع لو لم يوغل فى تلك القراءات المجهدة .

لقد كان ديكنز قبل ذلك العهد بفترة طويلة « قد بدأ يحرق الشمعة من طرفيها » . كما يقول شسترتون ، وإن راح يعقب على هذا القول بـ « أن ديكنز كان من حيث المواهب الفطرية أحد القلائل الذين أوتوا الشمعة العظيمة المجيدة ليضيئوا بها على الناس وهم يحترقون » .

والواقع أن ديكنز لبث اثنى عشر عاماً دائباً على هذه القراءات يطوف من أجلها بأرجاء بريطانيا وأمريكا ، ولو لم يفعل ، ما عدم متنفساً آخر لقواه العظيمة التى كانت متلفة لصحته ، ومستنفدا لحياته على السواء .

وقد يرجع اعتزامه الشروع فى هذه القراءات لكسب المال إلى اضطراب عيشه بسبب شقوته بالزواج ؛ فقد فشل فى الحياة الزوجية ، وهو القائل : « لقد بقى تعس حياتى الزوجية شديد الأثر فى أعصابى ؛ حتى لم أعد أستطيع أن أكتب ، ولا أن أستقرّ لحظة واحدة ؛ فلا عجب إذا خطر لى أن الجهد البدنى وحده الذى تقتضيه القراءة والتنقل فى مختلف المدائن قد يكون وسيلة تعين على الاحتمال ، وإن لم يكن ثمة شىء يمكن أن يغير من ذلك التعس ، أو يخفف بعض ما أجده من البلاء » .

وكان ديكنز بحاجة أيضاً إلى المال لتحسين الدار الغنّاء التى كان قد اشتراها قبل ذلك بعامين ، وتبين له بحق أن المال سوف يأتى إليه من القراءة أسرع وأخف خطى من مأتاه بكتابة قصة جديدة ، ولكن ليس من المرجح أنه كان يعتقد أن القراءة سوف تلقى ذلك النجاح العجيب الذى لقيته . والواقع الذى يهمنا هو أن الاستقبال الحماسى الذى قوبل به فى كل موضع انحدر إليه

ليقرأ على الناس شيئاً من قصصه لم يوات أحداً من الكتاب والمؤلفين .

فلم يكن يخطو إلى المنصة ، وهو يمشى كعادته دافعاً بكتفه اليمنى إلى الأمام ، والزهرة فى عروة ثوبه ، والقفاز فى يده ، حتى يطالعه هتاف عاصف ، وتتلقاه الجماهير بدوىّ قاصف ، فإذا انتهى من القراءة والتمثيل عاد الهتاف يدوى طويلا إلى أن يغير ثيابه ويغادر المكان .

وقد يبدو لنا غريباً فى أيامنا هذه على فرط ولوع الناس بالكواكب والأنجم الزهر فى السينما والمسرح ، أن خلقاً كثيراً من الأفراد جعلوا يعرضون خمسة جنيهات لكى يظفروا بمقعد لسماع ديكنز الروائى وهو يقرأ شيئاً من تواليفه على طريقته البارعة فى إبراز الأشخاص ، وتمثيل المواقف ، وأن أسراباً من السيدات فى أزهى المطارف ، وأحدث الأزياء ، جعلن يتدافعن لكى يظفرن ببضع ورقات من زهرة « الجرانيوم » البادية فى عروة سترته ، ورحن يقفن مسندات أذقانهن إلى حافة المنصة ، أو جالسات فوق مدارج السلم زحاماً لكى يملين الأعين منه عند انصرافه .

ولكن ذلك كان يحدث فعلا : لا مرة ، ولا مرتين ، بل فى كل مرة ، وفى مدائن متنائية ، كدارولنجتون ، ودبلن ، ووشنطن ، ولفر هايتون .

وقد يصعب علينا نحن الذين لم نسمعه أن ندرك سرّ ذلك الأثر الذى كان يحدثه ديكنز فى نفوس سامعيه ؛ إذ لا بد من أن يكون ثمة شيء آخر غير البراعة المسرحية وإن كان لها بلا شك أثرها ، ولعل هذا الشيء هو «المغناطيسية الخارقة » فى ديكنز نفسه ، تلك المغناطيسية التى أعانته بقوة جاذبيتها على امتلاك نفوس المستمعين .

وقد رأينا « كارلايل » — وهو رجل لا يمدح أحداً جزافاً — يعلن أنه لم يكن يتصور ، قبل أن يسمع ديكنز وهو يقرأ ، مدى ما فى وجه الإنسان وصوته من قوة السحر ومدى الفتون ، وما شهدت يوماً على المسرح ممثلين أكثر ممن شاهدتهم يلوحون مارقين على صفحة وجهه ، ولا سمعت أصواتاً مختلفة الأنغام مثل ما سمعت فى تضاعيف صوته .

ولم يكن « كارلايل » وحده الذى وصف مدى « التقمص » الذى كان يبدو على ديكنز ، وهو ينتقل من تمثيل شخصية إلى الاندماج فى أخرى ؛ فقد كتب تشارلس كنت يقول : إن شخصيته كانت تختفى جملة ، فلا نبصر أمامنا غير المستر بكويك ، أو « سام ويللر » أو « بيجوتى » أو غيرهم من تلك الشخصيات التى خلدها فى قصصه .

ولم يكن ديكنز بالطبع يعتمد كل الاعتماد على مواهبه الطبيعية فى إحداث ذلك التأثير العجيب ؛ فقد كان يرجع إلى قصصه مرة بعد أخرى ، ويضع لنفسه « هوامش » تحوى تعليمات معينة لمراعاتها عند القراءة على الناس ، كما كان يستذكر ويتمرن ويثابر على « البروفات » قبل أن يقدم على القراءة حتى يستوثق من الاستمكان التام والاطمئنان إلى الإجادة ، فى كل حركة ، وسكنة ، ومقطع ؛ ويقال : إن عدد «البروفات» التى تكررت قبل قراءة « وصفات الدكتور ماريجولد » بلغ أكثر من المائتين ، بل لم يشأ أن يضمها إلى برنامج قراءته ؛ حتى يسمعها نخبة من أصحابه ، ومن بينهم الشاعر الكبير « روبرت براوننج » ، فى جلسة خاصة وأبدوا استحسانهم لها ، وكان ذلك البرنامج يحوى ست عشرة قراءة ، وإن كانت القصة الأثيرة لديه حتى ليعاود قراءتها فى الفينة بعد الفينة هى « ديفيد كوبرفيلد » .

وكانت له أغلاط أيضاً فى بعض الأحيان ، ولكن جمهوره كان يتقبلها مع ذلك برضا وسماحة ، لقوة سلطانه على نفوس سامعيه ، ولأنه ديكنز نفسه ، وإن كان تمثيله ليسمو فى جملة من القراءات إلى حد لا يبقى فى المستمعين أحد مستطيع أن يمسك عليه دموعه ، كما كان فى مشهد ممات « بول » الصغير فى قصة « دومبى وولده » .

وكانت صحته فى الجولة الأولى عامى ١٨٥٨ ، ١٨٥٩

قوية ، وأعانته على الحركة الدائمة من المحطة إلى الفندق ، ومن الفندق إلى القاعة ، ولكنه لم يلبث بعد ذلك أن أحس الإعياء ، والألم الشديد ، من أثر ورم فى قدمه اليمنى ، كما كان يشعر أحياناً وعلى فترات متقطعة بخفقان ودوار وصعوبة تنفس .

وفى جولته فى ربوع أمريكا خلال عامى ١٨٦٧ و ١٨٦٨ حين راح يظهر على المسرح ستًّا وسبعين مرّة فى غضون عشرين أسبوعاً ، كادت قواه تنهار من فرط الإجهاد ووطأة الأحوال الجوية فى القارة الأمريكية ، ولكن عودته بالبحر أفادته كثيراً ، وأجدت على صحته ، حتى لقد صاح طبيبه حين أبصره عقب رجعته قائلا : يا لله ! إنك لأصغر عمراً بسبع سنوات !

ولكن من سوء الحظ أن ديكنز انخدع بهذا التحسن الظاهر ، فظنه أتمّ وأكمل مما هو فى الواقع ، فراح يعتزم جولة أخيرة فى بريطانيا لقراءة قصصه ، بل أسوأ من ذلك حظًّا أن اختار مصرع نانسى فى قصة « أوليفر تويست » ؛ لأن هذا الاختيار لذلك الموقف بالذات كان إقراراً منه أو شهادة بوفاته . وقد ألح عليه أهله وصحبه حين شهدوه يمثلها قراءة ، أن يختار شيئاً سواها ، ولكنه أبى إلا أن يجعلها ضمن برنامج قراءاته ؛ فقد رأوه يمثل بواقعية مروعة صرخات نانسى الأخيرة ، وهى تتشحط فى دمها ، فلبثوا فى أماكنهم مأخوذين .

وعند ما أبلغته ممثلة كبيرة تدعى « مسز كيلى » ، أن الجمهور وقد لبث خمسين سنة إلى اليوم يتطلع إلى مشهد مثير للنفوس ، وهم والله واجدوه فى هذا الذى أريتنا الآن لم يبق فى نفسه أثر من التردد ، بل أقدم فى بداية عام ١٨٦٩ على قراءة تلك القصة على الناس ، فكان استقبالهم لها أكبر ما كان يرجوه ؛ حتى لقد كتب صديق إليه بقوله : « لا أستطيع أن أكتمك أننى لم أستطع أن أغالب دافعاً يدفعنى إلى إطلاق صرخة من أعماق صدرى عند مشاهدتك » كما حُملت بضع عشرة امرأة من القاعة فى كليفتون متخشبات الأجساد ، مغشيًّا عليهن من تأثير ذلك المشهد فى نفوسهن !

وكان أثر هذه القراءة التمثيلية فى صحة ديكنز نفسه خطيراً أشد الخطر ؛ فقد ارتفع نبضه وهو ماض فى قراءته من ٧٢ إلى ١١٠ أو ١٢٠ ، ولم يلبث بعد ذلك أن انهدت قواه ؛ حتى اضطر القوم إلى حمله إلى غرفته حيث ظل طريحاً لا يقوى على الكلام عدة دقائق ، وعاوده ألم القدم ، واشتدت الأوجاع عليه ، وأصابه دوار شديد فى حفلة « بلاكبول » . وتلاه فى مدينة « شستر » شلل فى الجنب الأيسر ، أو خدر يشبهه حتى بات أطباؤه يخشون عليه عودة الوطأة ، فمنعوه من القراءة عدة شهور .

وقد ندم الأساة فيما بعد على أن سمحوا له باثنتى عشرة قراءة أخر قبل أن يعدل إطلاقاً عن هذا العمل المجهد ، وإن لمحّوا له بأنهم غير مسئولين عن النتائج إذا هو قرأ « مصرع نانسى » مرة أخرى ، ولكنه أبى أن يستمع لنصحهم ؛ فقد أصبحت هذه القراءات مرضاً لديه أو لازمة لا يستطيع عنها حوّلا .

وقد قرأ ذلك المصرع للمرة الأخيرة فى شهر مارس عام ١٨٧٠ ، وأصاب النجاح الذى طالما ظفر به ، ولكن تبين من حركاته وإشاراته أنه أمسى « شبحاً محطماً يغلب الجهد عليه » بل لقد كان يبدو كطيف خيال من فرط الإعياء والذبول .

وقد بلغت قراءاته فى الاثنى عشر عاماً الأخيرة من حياته ٤٢٣ قراءة ، واجتمع له منها خمسة وأربعون ألفاً من الجنيهات ، ولكن هذا المال بلا شك قضى عليه ، وعجّل بمنيّته .

ولسنا ندرى على اليقين : هل كان ديكنز نفسه يدرك ذلك أو لا يدركه ؟ ولكن القرائن كلها توحى بأنه حين كان القلق بالغاً على صحته أبى أن يواجه الحقيقة ، وقد لبث إلى النهاية يعتقد أن اختلال نظام قلبه يرجع إلى علة عصبية ، وأن أعراض الشلل لا سبب لها إلا الأدوية التى كان يتناولها .

ولكن لم تكد تنقضى ثلاثة أشهر أخر حتى سقط من

فوق كرسيه ، وهو جالس إلى الغداء مصاباً بضربة فى المخ لم يشب من أثرها حتى فارق الحياة .

وقد أشفق من هذه النتيجة أو نحوها جون رسكن الكاتب الفيلسوف الخبير بالجمال ، فرفض فى عام ١٨٧٤ دعوة تلقاها لإلقاء سلسلة من المحاضرات قائلا : « إن الميتة المحزنة التى ماتها ديكنز المسكين ، فى وقت كان من الجائز أن يخرج لنا خلاله كتباً ممتعة إلى الثمانين ، لولا قسوة الجماهير ، هى نذير رهيب لنا جميعاً ، إذا نحن وعيناه وتدبرناه » .

وهكذا قضى ديكنز نحبه قارئاً ، يطوف بالدنيا ؛ ليتلو على أهلها مختارات من قصصه ، ولم يمت كاتباً . حين نفدت قريحته ، واحتاج إلى المال ، فلم تسعفه أخيلته ، وراح يلتمسه فى هذه المجهدة التى استنفدت بقية الحياة فيه . . .

عن روبرت وودال
عدد مايو من مجلة « كونتمبوراري ريفيو »

معرض الصور البلغارى

من المعارض التى شهدتها القاهرة أخيراً معرض الصور البلغارى الذى ضم مجموعة كبيرة من الصور الشمسية توضح كل منها المعالم الحياة فى تلك الدولة الناهضة ، وتبرز أمام المشاهدين ألواناً من التقدم المطرد هناك ؛ فمن شوارع أبدع تنظيمها ، وميادين أحسن تنسيقها ، ومبان اتسمت بالبساطة بحيث لا يزيد ارتفاعها عن ست طبقات .

ولم يكن هذا المعرض مجرد عرض لصور ، ولكنه كان كتاباً مفتوحاً للزائرين يلمون منه بكثير من المعلومات ويتزودون بمزيد من الإحصاءات عن بلغاريا التى تعتبر واحدة من البلدان التى تكاد نسبة المتعلمين فيها تصل إلى مائة فى المائة : فالتعليم الابتدائى فيها إجبارى ، وقد زاد عدد معاهد التعليم العليا زيادة كبيرة ، فبينما كانت عام ١٩٣٩ لا تزيد على خمسة معاهد تضم ١٠١٦٠ طالباً أصبحت عام ١٩٥٦ عشرين مؤسسة تضم ٣٦٧٠٥ طلاب ، كما ارتفع عدد الطلبة الذين يتلقون منحاً دراسية من ٣٠٣ طلاب عام ١٩٣٩ إلى ١٢٨٣٧ طالباً عام ١٩٥٦ .

وتهتم بلغاريا بالبحوث العلمية ؛ ولذا وسعت شبكة معاهد البحوث العلمية التابعة لأكاديمية العلوم البلغارية لمختلف الوزارات والمعاهد . وهناك الآن ٥٩ معهداً لتلك البحوث .

ومنذ ٩ من سبتمبر سنة ١٩٤٤ حدثت بالمسرح البلغارى تطورات هائلة ؛ فلم يكن فى البلاد حتى عام ١٩٣٩ سوى ثلاثة عشر مسرحاً يتردد عليها ١,٥٢١,٠٠٠ شخص ، فأصبحت فى سنة ١٩٥٦ خمسة وأربعين ، منها ٣٩ للدراما ، وخمسة مسارح للأوبرا ، ومسرح للأوبريت يتردد عليها جميعاً ٤,٦٦٢,٠٠٠ شخص . وفى عام ١٩٥٧ افتتح بصوفيا مسرح الدولة التجريبى (النقدى) .

أما الفن السينمائى فقد وسعت الحكومة البلغارية الشعبية أمامه الآفاق ، وبعد أن كانت بلغاريا من أكثر الدول تأخراً فى هذا المجال إذا بها فى عام ١٩٥٦ تفتتح ١٠٧٦ داراً جديدة ، وأصبح هذا العدد فى سنة ١٩٥٧ ١١٠١ من الدور . وصار عدد الأفلام البلغارية التى عرضت فى عام ١٩٥٦ واحداً وعشرين فيلماً ، وفى سنة ١٩٥٧ صارت ١٤٥ فيلماً .

وأما قاعات المحاضرات فيتزايد عددها بشكل سريع : فبعد أن كانت ٢٩١٨ قاعة فى سنة ١٩٤٤ قفز عددها فى نهاية سنة ١٩٥٦ إلى ٤٥١٩ قاعة ، وأصبح عدد الكتب المعروضة فى دور الكتب حتى نهاية عام ١٩٥٦ خمسة ملايين و٧٧٠,٨٧٧ كتاباً .

* * *

وشعب بلغاريا فنان بطبعه ، والفولكلور البلغارى غنى بألوانه الكثيرة من موسيقى توقيعية راقصة إلى أغان شعبية عذبة ، وألحان وطنية عميقة تعبر عن مفهومات الشعب وتترجم آماله . وأشهر رقصاتهم الوطنية رقصة الشوبس ، وهى رقصة جماعية تفيض حيوية وجمالا .

سعدية غنيم